يوميات طبيب

بلغ المشيب

يوميات طبيب

بلغ المشيب

د. منير لطفي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

[يوسف:١١١]

الإهداء..

إلى مرضاي الذين أَسعدوني ببصيص من حكاياهم..

هنا تجدون بعض حصاد ألسنتكم ونتفا من أحوالكم.

المقدّمة

وُلدتُ بريف مصر الطيّب قبل خمسة عقود ونيّف، ونشأتُ به طفلا فصبيًّا فشابًّا، ثمّ اكتهلْت في غربة كانت لي أحنّ من وطن، ويعلم الله أين تكون شيخوختي ومرقدي. وعلىٰ مدار تلك الرحلة الميمونة، حملني مركب الطبّ طالبا فطبيبا، ولازمَني كالشّعار في الحلّ والترحال والظّعن والمُقام، فكان نديم يومي وسمير ليلي، وبات كما ترون ثوب كتابي هذا بمضمونه وحواشيّه وفهارسه.

ومع أنّ الامبراطور والفيلسوف الروماني (هادريان) قلّد الطبيبَ عرش الامبراطورية بقوله: **"من الصعب أن تظلّ امبراطورا في حضرة الطبيب"**، فإني أرىٰ المريض هو الامبراطور، وبدونه لا طبّ ولا طبيب. ألا تراه يتكلّم والطبيب يصغي؟! ويتمدّد علىٰ فراشه بينما يتحلّق حوله الطبيب وبقيّة الهيئات الطبيّة المعاونة وقوفا، ثمّ يدورون ليل نهار في فلك راحته وخدمته؟!

و رغم علمي أن الطبيب للمريض حبيبٌ قد لا يسكن القلب، وصديقٌ ربما يلقاه علىٰ مضض، وحكيمٌ قد لا يتمنّىٰ المثول بين يديه؛ إلّا أني حرصْت أثناء ممارستي الطبيّة علىٰ إرخاء حبل التواصل الإنساني مع مرْضاي، حتىٰ عدّني الكثيرون منهم صديقًا لا طبيبا، وراحوا يثرثرون بحكايا واقعية أثقلَت كاهلهم وضعْضعَت أرواحهم، فكنتُ لها بالمرصاد سمْعا وفهْما، وها أنذا أسوق بعضها لكم عبر شقّ قلمي، تدوينًا وتعليقًا وتحليلا، ولعلّها بتوفيق الله تخلو من زبَد يذهب وتزْخر بنفْع يمكث.

والواقع أنّ هذه اليوميّات لم تُدوَّن في حينها، يوما بيوم وحدَثا بحدَث، كما عهدناها في نظيرها من يوميّات حيّة نابضة خطّتها أقلام المشاهير، ولكنّها أقرب إلىٰ ذكريات، قطفْتُ عناقيدها توًّا من ذاكرة: أظنّ بينها وبين الغربال حجاب، ولم تصل إلىٰ مرحلة الخريف بعْد ولله الحمد، حتىٰ وإن تاه منها بعض الأسماء والأمكنة والمواقيت، فتلك تفاصيل ليست ذا بال علىٰ أيّة حال.

المؤلّف

د. منير لطفي

كُتب في سلطنة عمان ٢٠٢٠- ٢٠٢٢م

(١) ذهب مع الرّيح!

إذا كان لكلّ طبيب دعوةٌ يتمْتم بها ويهمس في أذن السماء؛ فقد كانت دعْوتي بعيادتي إبّان غربة ممتدّة على شاطئ الخليج؛ أن يتوقّف بثّ المرضىٰ كلِّيًّا لخمس دقائق قبل الأذان وإلىٰ ما بعد صلاة الجماعة بخمس أخرىٰ. وفي هذا اليوم البعيد، يبدو أنّ دعوتي فُتحت لها أبواب السماء وعانقتْها ذراع الإجابة، إذ خلَت العيادة إلّا من جدرانها، فجاوزْتُ عتبتَها قاصدا المسجد بسلام. وأثناء السّيْر، لمحْت شابّا آسيويا يقبل نحوىٰ في تبتّل وخضوع! وخوفًا من أن يكون واحدا من المرضىٰ العائمين الذين يطلبون استشارة مجّانية خاطفة، فيعطّلني عن الوصول قبل بدء الصلاة؛ كدت أعرض عنه بالتحليق في الأفق البعيد كالقذّافي، والإسراع بالخطا كمَن طائرته علىٰ مدرج الإقلاع. ولكنه كان أسرع من بديهتي؛ إذ مدّ إليّ يده المرتخية بمسواك وقارورة عطر، يتسوّل بهما علىٰ طريقة المناديل الورقية وكتيّباتٍ للأذكار يلقيها في حِجرك أحدُ الشحّاذين أثناء ركوب الحافلات والقطارات في مصرنا الحبيبة. فوهبْته ما قسم له الله، وتناولْت ما أفاء به عليّ، ولا أظنه سمع بالأذان أو شدّ إلىٰ المسجد

الرحال، فالله عند البعض يُقصد علىٰ التراخي لا علىٰ الفور، وللتجارة لا للعبادة! ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[1].

وفي الطريق، خطر لي أن أُنعش روحي برائحة هذا العطر، وأُطرب أنوف المصلّين بأريجه الفوّاح، وتخيّلتُه مسكًا أو عنبرا أو دهن عود أو غيره ممّا حُبِّب إلىٰ النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم مِن طِيب.. ولكنه كان صرحا من خيالٍ فهوىٰ علىٰ رأي إبراهيم ناجي في الأطلال! إذ بدا العطر المزعوم وكأنّه خليط من بول الإتان وعَرق الفئران، صُنع خصيصا لإفاقة المُغمَىٰ عليهم وإعادة الوعي لحالات الغيبوبة العميقة، فكادت معدتي تقفز من فمي لهوْل رائحةٍ دونها نتن الجِيَف البائدة وعَطَن الجوارب القذرة، وعلىٰ الفور، كان أقرب صندوق قمامة هو الحلّ الذي لا ثاني له. ولا تعجب إن قلت أن تلك الرائحة لا زالت عالقة في خيشومي، وكأنّ ذاكرة الشمّ لا يعتريها النسيان.

أمّا المسواك المغلَّف، ورغم نحافته الشديدة حتىٰ لا تدري أبه تُخلَّل الأسنان أم تُستاك؟! فقد أدّىٰ ما عليه؛ إذ استكْت به عند الوضوء، واستعنْت به علىٰ سنّة الحبيب، ثمّ وضعْت له خطّة طويلة الأمد، فقلْت في نفسي: ماذا لو أَودعْتُه مكانا ما بالمسجد، بدلًا من حمله كخنجر يمنيّ في المجيء والعودة؟ وهو ما لم يحدث! كيف؟ وضعْتُه فوق مفتاح المروحة

---

(١) الحج ٧٤.

داخل غلافه المفضوض، وفي الصلاة التالية وجدتُه فصّ ملح ذاب وعصفورا من قفصه المفتوح طار، بعدما عبثَت به يدٌ متوضّئة لا ترىٰ في السرقة جُرما، ولا تبالي بما في استخدام أدوات الغير من ضيْر، وما أكثر أولاد الأبالسة!

وعندها التمعت في ذاكرتي واقعتان: إحداهما ذاتيّة: تنتمي بصِلة إلىٰ زجاجة العطر اللعينة، ومغمورة لا يعرفها من الأشخاص إلّا ثلاثة فرّقتهم الأيام بددا ولم نلتق منذ سنين عددا. والأخرىٰ تاريخية: ترتبط بآصرة مع السّواك الذي سُرق داخل المسجد، ومشهورة منثورة في كتب التاريخ هنا وهناك. أمّا الواقعة الأُولىٰ: فجرَت أيّام تأديتي الخدمة العسكرية، حين جاءنا ذات مساء رطب حارّ، جنديٌّ من قِبل رتبة كبيرة تطلب مطهّرا لتنظيف الحمّام! ورغم عدم وجود مثل هذه المطهّرات لدينا كسَريّة طبيّة مَنوط بها تطهير جروح المرضىٰ المكلومين لا حمّامات السّادة ذوي الأكتاف العريضة المزيَّنة بالسيوف والنسور والنجوم؛ إلّا أنه لم يكن بوسع الصيدلي أن يردّ بالسالب، بناء علىٰ القاعدة العسكرية: (تَصرَّف)، وكذلك خوفا من غضب هذا القائد الذي بمُكْنته العصْف بنا كضبّاط صغار زغْب الحواصل خضْر الرِّيش. ولهذا تناول الصيدلي الداهية عبوّة زجاجيّة فارغة سعتها نصف لتر، وتفضّل مأزورا بدخول الحمّام وملْئِها ببوله الأصفر الفاقع إلىٰ ما دون الحافّة، ثمّ تقمّص دور لافوازييه وجابر بن حيّان؛ فأضاف لها بعضا من الكحول ليطفئ جذوة رائحتها،

وبعضا من صبغة اليود ليموّه فاقع صفْرتها، قبل أن يستوْدعها يد الجنديّ ويحمّله أحرّ السلام لقائده الهُمام!

أمّا الواقعة الثانية المشهورة؛ فهي جلوس الإمام أبي الحسن الأشعري يُلقي درسه علىٰ تلاميذه في مسجد البصرة، وبعدما أفاض وأجاد، تلفّت حوله واكتشف فقدان مصحف كان قد وضعه بجانبه. ولمّا كانت آيات التقوىٰ والورع والخشوع ترتسم علىٰ وجوه التلاميذ، والدموع الغزيرة تبلِّل منهم اللّحىٰ! عجب ممّا رأىٰ، وتساءل في دهشة: كلّكم يبكي..فمَن سرق المصحف؟!

(٢) كشف منزلي

عقب تخرّجي بشهور قلائل، وقبل أن يجفّ حبر شهادة التخرّج؛ دقّ بابَ دارنا المتواضعة أحدُ هؤلاء الذين يمتلكون في قريتنا الفدادين من الأطيان، ويُصنَّفون بموجبها من الأثرياء ذوي الكلمة المسموعة، والأعيان أصحاب القامة المرفوعة، هذا قبل أن تنقلب الموازين اليوم وتصبح الأرض الزراعية مجرّد تراب لا تمنح صاحبها صكّ الثراء حتىٰ لو ملك منها المئات! وبعد التحيّات الطيّبات المباركات، طلبني للذهاب معه وعلاج شقيقته من إغماءة مباغِتة انتابتْها وطرحتْها أرضا.

ومع أنّ لديّ بُغضا فطريا للكشف المنزلي، ونقمة سرّية وجهْريّة تجاه مَن ابتدع هذا الطقس الطبّي الذي يجور علىٰ حقوق الطبيب والمريض معًا، لا سيّما بعدما اتّخذه بعض الناس نوعًا من الوجاهة؛ إلّا أنّني –وعلىٰ طريقة مُجبَر أخاك لا بطل– لبّيتُ النداء وتجهّزْت علىٰ عجل؛ إذ كنت حييّ الطبع ليّن العريكة، ولا أقوىٰ علىٰ تحمُّل تبعات (لا) في مجتمع ريفي مترابط يقوم علىٰ العشَم والعاطفة أكثر من اتّكائه علىٰ

المنطق والقواعد. وقد راعيتُ أنّ تصدُّر مثل هذا الرجل مجلسا يشيد فيه بي كنطاسيّ بارع قدمه قدم الخير وطالعه طالع السعد حتىٰ لَيبرئ الأكمه والأبرص، كافٍ لأُصبح علىٰ الفور فارسًا طبّيًا لا يُشقّ له غبار في ربوع القرية، وربّما في القرىٰ والكفور والنجوع المتاخمة أيضا. والواقع أنّ حقيبة الطبيب كانت بدائية كبداوة الحياة وبساطتها آنذاك، فلا تحوي سوىٰ سمّاعة وجهاز ضغط ومِحرار (ترمومتر)، بالإضافة إلىٰ كشّاف صغير وخافض لسان معدني يُغسل بالماء بعد كلّ استعمال!

وبيْنا نشقّ الطريقَ إلىٰ وجْهتنا التي لا تبعد أكثر من بضع خطوات؛ شرعْت أستقي بعض التفاصيل عن المريضة وما دهاها؟ فذكر لي أنها كانت أصحّ من ظبْي، ولا تشكو سوىٰ ما يشكوه الناس أيّامذاك من الجهل والفقر، ولكنها عقب تناول نفَسَيْن من الشِّيشة التي يسمُّونها الجُوزة، مالت برأسها جهة اليمين وسافرت في إغماءة. وبينما شدّ الرّحال إليّ، ترك النسوة وراءه يحشون أنفها بالبصل الحِرِّيف، ويسكبون فوق رأسها ماء القُلّة البارد، ويبلّلون شفتيْها ولسانها بما تَوفّر لديهم من عسل أسود رخيص، في الوقت الذي هرع فيه البعض للبحث لدىٰ الجيران عن كولونيا الشبراويشي ماركة الثلاث خمسات، ذات الطبيعة المنعِشة المصنَّعة من الليمون وبعض الكحول، والحاضرة بقوّة آنذاك في الأحزان كما المسرّات، والصالحة لفقراء الرجال والنّساء علىٰ حدّ سواء.

ولك أن تعلم أن قريتي -وكبقيّة القرىٰ- كانت أسرة كبيرة لا يشبهها سوىٰ أصابع الكفّ الواحدة؛ تقوم علىٰ الودّ والتعاون، وترتبط فيما بينها بأواصر القربىٰ والمصاهرة، صغيرهم ابن للجميع وكبيرهم أب للكل. ومن المَعيب حينذاك أن يُغلق المرءُ بابَ داره في وضح النهار، بل جرىٰ العرف أن تُشرَع مع أوّل ضوء وتبقىٰ باسمة الثغر هكذا إلىٰ أن يُسدل الليلُ أستاره ويأوي كلٌّ إلىٰ فراشه أو حصيره. ولكن -والحقّ يقال- لم يكن مَعيبا ولا مُستقْبَحا أن تشارك المرأة العجوز في حلقة شيشة تدور عصاها الغابيَّة المجوَّفة من فم إلىٰ فم، بعد أن يحتاط كلٌّ منهم فيمسح طرفَها بكفّه قبل أن يناولها لمَن يليه! وذلك بناء علىٰ اعتقاد سائد أنّ بعض أنفَاس من الشيشة أو السيجارة؛ تزيل الصداع، وتخفّف ألم الأسنان، وتقوّم المزاج، وتهزم الأرق فتستدعي النوم علىٰ عجل! وهو اعتقاد أوْهن من خيوط ثوب مهترئ، ورأي خليق بالسفر إلىٰ أعمق أودية البُطلان.

وبعد هنيْهة، وجدتُني أجتاز قاعة الدار الفارغة إلّا من بعض أَجْولة وأَوْعية وأطفال نصف عارية، وأقف علىٰ رأس مريضة ممدَّدة علىٰ حصيرٍ مغبَّر بال، وساهمة ساكنة لا يصدر منها نأْمة أو خلجة. وعندها أَفسح لي الحضورُ المكان، وطفقتُ أجسّ النبض وأتسمّع القلب وأقيس الضغط، وهو ما لم أجد له بقيّة من أثر! فأَعدْتُ الكَرّة مرّة إثر مرّة؛ ظانّا أنّ سمنة المرأة المفرطة قد حالت بيني وبين الحسّ الدقيق والسمْع المرهف. ولمّا

طاف بخاطري أنها -والحال كذلك- أقرب إلىٰ قعر الوفاة منها إلىٰ بَرّ الإغماء أو حتىٰ الغيبوبة، شعرتُ بكرة من الثلج تمسّد ظهري وبرذاذ بارد يخضّل جبهتي، ومضيتُ أتفحّص حدقة عينيْها بتركيز شديد، لأتأكّد من ذهاب بريقها واتّساعها وعدم استجابتها للضوء كعلامات شبه مؤكّدة علىٰ الوفاة. كلّ هذا ومَن حولي رابطو الجأش لا يخالطهم أدنىٰ هاجس للموت، وذلك علىٰ طبع القَرويّ الذي يمتثل للأقدار بصبرٍ ورضًا يجعله يبسّط كلّ أمر، ويحْمله دوما علىٰ محْمل الخير؛ فالتهاب الرئة مجرّد برد عارض، وآلام الزائدة الدودية ليس سوىٰ ريح بالبطن، وصفار الوجه في الأنيميا الشديدة هو بعض خوف تكفيهم مَؤونته ما يُعرف بطاسة الخَضّة[1]! وإزاء هذا المأزق الذي أَربك حدْسي، ولم أحسب له حسابا ألبتّة؛ تأبّطتُ ذراع أعقل الموجودين، وأَومأتُ له بالخروج، بعد أن طمأنتُ البقيّة التي تعلّقَت أحداقُها بي، وادّعيتُ أنّي سأدوّن الروشتّة في البيت. وفي منتصف الطريق، مهّدتُ للرجل ببضع كلمات ظننتُها تربت علىٰ الفؤاد المكلوم، وشرحْتُ له غياب علامات الحياة؛ ففهم ما قصدتُه،

(١) طاسة الخضّة: طبق مصنوع من النحاس الخالص، مكتوب بداخله آية الكرسي، يُوضع به ٧ تمرات مع قليل من الماء، ويبقى لثلاثة أيام في الهواء الطلق من بعد المغرب حتى الفجر، ثم يشرب الشخص ماءه ويأكل تمره، فيذهب ما به من خوف وأرق وغيره، وذلك على زعمهم!

وعاد أدراجه منكّس الرأس كجنديّ مهزوم، ومتهدّل الكتفيْن كأنّ عليهما ثقل مائة طنّ.

وكالعادة في مثل تلك الحالات، وكذلك في الحالات الخطرة التي تقوم بتحويلها إلىٰ المستشفىٰ، لن تجد مَن يمدّ يده بأجرة الكشف، ولسان حالهم يقول: يعني موت وخراب ديار! إذ إنّ الأجرة في عرفهم لا يستحقّها الطبيب إلّا بعد كتابته روشتّة! ولكن ماذا بوسعي كتابته لميت لا يجديه سوىٰ الدعاء بالمغفرة والرحمة. وتلك إحدىٰ رزايا طبيب الريف الذي يريدونه مستشفىٰ يركب قدميه ليُجري الفحص، ويكتب الدواء، ويعطي الحقن والمحاليل، وجاهزا للعمل أربع وعشرين ساعة، بما فيها الجمع والإجازات وأيام الأعياد. وعليه الإلمام بمهارات فريق طبي متكامل، من مداواة المغص والرمد إلىٰ خياطة الجروح وإجراء الختان إلىٰ توليد الحوامل وجبْر الكسور، دون اعتراف بالتخصص، هذا وإلّا عُدّ في نظرهم جاهلا لا يصلح لثقتهم وفاشلا لم يُتمّ تعليمه.

وبينما جرّتْني قدماي الثقيلتان إلىٰ عتبة الدار، وابتلعني صمت غرفتي المطلّة علىٰ شارع ترابي أضيق من ظلّ هاتف جوّال؛ بقيَت رأسي مشحونة بالقلق، وأُذني متشوّفة لإعلان وفاة ينطلق عادة من مكبّر الصوت بالمسجد القريب لدار المتوفّىٰ، فيخترق سمع القاصي والدّاني، ويبادر

إلىٰ تقديم واجب العزاء المقدَّس. ولا أكتمكم سرًّا أنّ يدي كانت علىٰ قلبي الواجف، خشْية أن تكون خبرتي الطبيّة الضئيلة قد خلطَت بين الغيبوبة والوفاة، فتصبح فضيحتي كامرأة العزيز، ويخلعني الطبّ خلع الزوجة لبعلها، خاصة أنّ لذلك سوابق ونوادر تُروىٰ في بطون الكتب كحكايات ألف ليلة وليلة.

ووقْتما أنا غارق في بحر صمْتي، أصارع لجّة أفكاري؛ إذ بنداء صاخب يشقّ السكون ويغزو الأثير، ليعلن عن وجود سمك روسي رخيص الثمن عند الجامع الأوسط! تبًّا للرُّوس والأمريكان، أهذا وقت السمك؟! وتحسُّبًا لأن يكون إعلان الوفاة قد تمّ وفاتني خبرُه؛ رحْت أتساءل هنا وهناك بدهاء: هل تُوفِّي أحدٌ اليوم؟ فلم أجد سوىٰ مصْمصة الشفاه، متبوعة بقولهم: فَال الله ولا فالك، افْتِكِر لنا حاجة حلوة! وبعد مرور ساعتيْن كانتا كدهر؛ انطلق البشير الذي أضناني انتظاره، وغرّد المنادي قائلا: تُوفِّيت إلىٰ رحمة الله تعالىٰ الحاجة فلانة... فوقع الخبر بردا وسلاما علىٰ قلْبي، وكان بمثابة إعلان نجاحي في تشخيص الموت، وهو تشخيص عسير وعصيب لو تعلمون.

(٣) مَصيف جَمصة

يَعرف الأباعد والأقارب أنني لستُ من محبّي المصايف ومرتادي الشواطئ، ولا أقصد بالمَصيف نسيمَه العليل الذي يداعب الخدود ويفتح مسام الروح، ولا رائحة البحر النديّة المنعشة، ولا أجواءه العائليّة التي تهب منها رياح التغيير المحمود والسرور المنشود؛ ولكن أعني ما لا أستسيغه من موج صاخب، وزحام خانق، وماء مالح، ورمال تتسلّل خفية إلىٰ العيون والأنوف والأفواه. وقبل ذلك كلّه؛ تلك الألبسة العارية، وطقوس من الاختلاط والانفلات تعتري المصطافين وكأنهم في نجْوة من رقيب وعتيد!

ورغم حالة اللاحُبّ هذه؛ فقد قصدتُ ذات يوم قائظ، مصيفَ جمصة لليلة أو ليلتيْن، باعتباره المصيف الأقرب، إذ لا يستغرق الوصول إليه أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، وما قصدته للانبطاح علىٰ الرمل أو ركوب الموج أو حتىٰ المشي حافيا علىٰ الشاطئ، بل لأسترخي في واجهة شقّتي هناك مستقبلا هواء البحر البكر النقي، بلا جدران تحجزه ولا مصانع

تلوّثه ولا سيارات تتنفّسه ثمّ تدخّنه، وما أجمله من هواء للروح منعِش وللنفس منشِّط.

وبعدما تجاوزْنا- أنا وأخي- مدينة المنصورة وركبْنا طريق جمصة السريع؛ لمحْت علىٰ شطره المقابل، سيّارة مقلوبة وبجوارها شخصان، أحدهما يتلفّت مذعورا ذات اليمين وذات الشمال ويشير بيمناه طالبًا النجدة! فكان لا بدّ من الإسراع إليه، لعلّه يحتاج معونة طبيّة تكون سندا له في محنته وغوْثا لي يوم الدِّين.

وبنظرة نصف فاحصة، تبيّنت أنّ السائق مصاب بكسر في عظمة الفخذ، وحالته العامة مستقرّة. إلّا أنه ينبغي تثبيت الكسر، ثمّ تأمين نقله إلىٰ أقرب مستشفىٰ مجهّز لإجراء جراحة عاجلة؛ باعتبار عظمة الفخذ هي أحد أعمدة خيمة الجسم الرئيسية، وبحسبان هذا الكسر أبًا للكسور ولا غنىٰ له عن مسامير وشرائح معدنية تديرها يدٌ مختصّة ماهرة تصل به إلىٰ برّ الشفاء. ومع أنّ مرافقه أخبرني بمرور وقتٍ ليس بالقصير علىٰ الحادث والاتصال برقم النّجدة؛ فقد حمدتُ الله أن لاحت سيارة الإسعاف تزمجر كالقطار من بعيد، إذ خمَّنتُ أنّ بها سريرا مُعَدًّا يقي المصاب وعثاء طرق احتلّتها الحفر والمطبّات، ومجهَّزَة بجبيرة (توماس) تكفل للكسْر الثّبات في مكانه وتمنع تحرّش حواف العظام المكسورة بما يجاورها من لحم وأعصاب وأوعية دموية، إضافة إلىٰ

كانيولا وريدية سريعة التثبيت، ومسكّن قوي يهدّئ من روع المصاب ويخفّف آلامه وأنّاته. وهو ما وجدتُه قبْض ريح وباطل الأباطيل، مع الاعتذار لعمّنا المازني، إذ لم يكن بحوزة المُسعف سوىٰ نقّالة بدائية من مخلّفات الحرب العالميّة الأولىٰ، وعلىٰ الله قصد السبيل.

وبإطلالة علىٰ السيارة التي تهشّمَت وصارت أسوأ هيئة من علبة مشروب غازي فارغة دهستْها قدمٌ ثقيلة؛ لا تجد كبير عناء في إدراك مدىٰ السرعة الجنونية التي كانت عليها القيادة، وأدّت إلىٰ انقلابها أكثر من مرّة كلعب الأطفال وسيارات السباق، دون أن تشتبك معها سيارة أخرىٰ في طريقٍ كان من رأفة الله هادئا وقت الصباح. وقد علمتُ مِن المرافق أنّ السائقَ ميكانيكيٌّ مخضرم يقوم علىٰ إصلاح السيارات، وكان بصدد اختبار هذه السيارة التي تخصّ أحد الزبائن بعد إصلاحها، ويعلم الله هل كان فعلا يجرّبها، أم يستخدمها لمشوار خاص علىٰ عادة الميكانيكيين الذي يعتبرون سيّارة الزبون غنيمة مستَباحة طالما بقيت حبيسة (الجراج) وفي متناول اليد.

وهنا لا أنسىٰ زميلا لي، أُصيبت سيّارته بعطب بسيط في منتصف الأسبوع، فأخبره الميكانيكي بضرورة إيداعها رهْن الإصلاح، ثم العودة لاستلامها يوم السبت. وأثناء تلك المهلة، راح الزميل الطبيب يركب قدميْه جِيئة وذهابا لقضاء أغراض تخصّ أسرته وعمله. وفي يوم

الخميس، وهو يوم الأفراح والليالي الملاح، وأثناء سيره الحثيث قبيْل الغروب مثقَلا بأحمال الخضروات وأكياس الفاكهة، علىٰ طريقة مجبَر أخاك لا بطل؛ مرّ به موكب عرس برّاق لجِب، فدفعه الفضول إلىٰ التفرّس كبقيّة المارّة التي ترنو بطبيعتها إلىٰ الفرح وتتشوّف إلىٰ لحظة استثنائية في مسيرة الحياة وهي طقوس الأعراس. وهنا لفت انتباهَه سيارةٌ في مقدّمة الرّكب تشبه سيارته، إلّا أنه لا توائم في السيارات! وساعَده بطء سير الموكب في التحقّق من كونها سيّارته التي أخّر الميكانيكي استلامها ليتسنّىٰ له الظهور بمظهر الوجيه صاحب الأفضال؛ فكان كأصلع يتباهىٰ بشعر زميله، وبوّاب يفتخر بقصر سيّده، ومفلس يتصدّق من جيب جاره. وكم كان زميلي جَسورا مغوارا، حين أوقف السيّارة بكلّ حدّة، وأحرج الميكانيكي أيّما إحراج أمام الحضور، حتىٰ تعرّقَت جبهتُه وابتلع لسانَه وتمنّىٰ لو انشقّت الأرض عن جُبّ واراه تحت ثراه.

(٤) سائل الحياة

لا أظنّ طالبا درَس الطبّ، مانَع يومًا في التبرّع بدمه، هذا إن لم يبادر بالتبرّع من تلقاء نفسه دون انتظارٍ لطلب أو حاجةٍ لتوسّل؛ ربّما لأنّ هؤلاء الطلّاب يعرفون أكثر من غيرهم قيمة الدم كسرّ الحياة علىٰ قول أبقراط أو كروح مقدّسة علىٰ اعتقاد المصريين القدماء. أو لأنهم إنسانيون من الطبقة العالية وفي طريقهم ليكونوا ملائكة الرحمة حسبما يُطلَق عادة علىٰ الأطباء وطاقم التمريض.

أو لأنهم علىٰ علم بالفوائد العديدة للتبرّع بالدم؛ من حيث تنشيط مصنع الخلايا الدموية المُسمَّىٰ بنخاع العظم، ومن جهة تقليل نسبة الحديد التي تشكّل زيادتها خطورة حقيقية تجاه الإصابة بالأزمات القلبية والدماغيّة، وهو ما لخّصه المثل الفنلندي القائل: تَبرَّع بدمك وانجُ بقلبك.

ولهذا السبب، كانت قاعة محاضراتنا بكليّة طب المنصورة لا تخلو يوما من مُرافق لمريض يلتمس أحدَ الطلّاب للتبرّع وإنقاذ ذويه من

الراقدين علىٰ طاولة العمليات الجراحية الكبرىٰ، أو المكسورين النازفين جرّاء حوادث السيارات، أو هؤلاء البؤساء المصابين بأمراض الدم الوراثية كالثلاسيميا وفي حاجة ماسّة إلىٰ نقل دم متكرّر بين الفينة والأخرىٰ.

وضمن هذا السياق، لم أستغرب إدراجي ضمن قائمة الشرف هذه، بعدما طرق بابي في المدينة الجامعية مرافقٌ لمريض من قريتي يقاسي تليّفَ الكبد ودوالي المرّيء النازفة، كإحدىٰ المضاعفات الخطيرة لبلهارسيا لعينة ظلّت لعقود ترعىٰ في ريفنا المصري وتنهش أكباد الفلاحين بلا هوادة. ومنذ تبرّعي قبل زهاء أربعين عاما، ظلّ هذا المرافق علىٰ علاقة حميمة بي، يلقاني بالبشر والترحاب في كلّ مكان، ويَذكُرني بالثناء الجميل في أيّ محفل عام أو خاص، بل ويتفقّدني إنْ غبْت، ويدعو لي بظهر الغيب، حتىٰ عجب البعض لعمق تلك العلاقة المبهَمة في نظرهم.

أمّا المريض، والذي تخطّىٰ الستّين أيّامها، وتكرّرَت نوبات حجزه بالمستشفىٰ جرّاء العلّة ذاتها؛ فقد حدث ذات ليلة صائفة أن نزفَت الدوالي بشدّة، بعدما انفجرت الأوردة المنتفخة علىٰ وقْع ارتفاع الضغط داخلها، فاندفعَت الدماء كشلال متدفّق من الفم، وفعلَت فعلها في

الملابس والشراشف، وتركَت آثارها علىٰ الأرض والممرّات كأنّ ذبيحة مرّت من هنا! ونظرا لعدم توفُّر المناظير وتقنيّات الربط والحقْن الحديثة آنذاك، وبعدما حاول الطبيب عبثا تركيب بالون يُوقف هذا الفيْض الشبيه بفيضان النيل، وأدرك أن الطبّ عاجز عن الحيلولة بين الرجل وبين الوفاة؛ نصح المرافقَ باصطحاب قريبه والعودة به إلىٰ البيت، إذ إنّه علىٰ شفا الموت واقف، وفي حفرة الرّدىٰ لا محالة واقع.

وبعدما لمْلم المرافقُ أغراضه وأعدّ للرحيل عدّته، دار بخلده صعوبة العثور علىٰ سيّارة وسط هذا الليل البهيم، وحدّثتْه نفسه بأنّ الموت في البيت أو المستشفىٰ سِيّان، ولا داعي لإرهاق مريضه بالسّفر ساعة الغرغرة ولحظة الاحتضار. وبهذا عزم علىٰ الانتظار حتىٰ يلوح الفجر وتطلع الغزالة وتدبّ الحياة في الأرض، مستسلما لقضاء الله الذي لا يُردّ، كديْدن الأخيار من ذوي التُّقىٰ والصلاح.

وفي الصباح؛ سرىٰ النشاط في جنَبات المستشفىٰ سريان الكهرباء في الأسلاك، وتوافد الأطباء والممرّضات وحدانا وزرافات، وراح كلّ منهم يتفقّد مرْضاه بصبر وأناة كما جدّتي حين تمارس واجبها المقدّس وطقسها اليومي في تفقُّد دجاجاتها التسع كلّ مساء. وعندها دُهش الطبيبُ المناوب من وجود المرافق، ودُهش أكثر لتوقّف النزيف وانقشاع غبار الموت وبقاء مريضه علىٰ قيد الحياة! إذ ظنّه جاد بأنفاسه الأخيرة في ليلته الفائتة،

ويمثُل الآن بين يدي الملَكيْن يسألانه عن ربّه ودينه ونبيّه! فسبْحل في دخيلة نفسه وحمْدل وهلّل وكبّر، ثمّ وضع خطّة جديدة للعلاج، استردّ بموجبها الحاجّ (محمود) عافيته في غضون أيّام، وامتدّ به العمر بعدها لنحو عشر سنوات؛ فالآجال –كما قيل– آماد مضروبة؛ إن شاء الله مدّها بحكمة وافية، وإن شاء قصَرها بلطيفة خافية. وقد كنت في تلك الحِجج العشْر عزيزا علىٰ نفسه وحبيبًا إلىٰ قلبه، ولَطالما ذكّرني بأنّ دمي لازال ينساب في عروقه ويتجوّل بحنان داخل حجيْرات فؤاده الأربع.

ومن تصاريف القدر، أنني أسطّر هذه الكلمات بينما العالَم يحتفل باليوم العالمي للتبرّع بالدم؛ والذي يهدف إلىٰ التوعية بمنتجات الدم الآمنة وأهمية التبرّع بالدم لإنقاذ حياة الآخَرين، ويُقام سنويا في الرابع عشر من يونيو، الموافِق لمولد عالِم الأحياء والطبّ النمساوي (كارل لاند شتاينر)، تقديرًا لاكتشافه التقسيم الحديث لفصائل الدم عام ١٩٠١، والذي نال بموجبه جائزة نوبل في الطبّ عام ١٩٣٠م. وللعلم، فإن (النعمان) أحد الأسماء التي تُطلق علىٰ الدم، ومنه سمّيت زهور شقائق النعمان[١] نظرا للونها الأحمر القاني.

(١) يُقال أيضا أنها سمّيت بهذا الاسم نسبة إلى الملك النعمان بن المنذر الذي حمى أرضا فنمت فيها هذه الورود وكثرت.

ومن الطرائف أو المواجع، أنّ طائفة مسيحية تُدعىٰ (شهود يهوه)، تحرّم علىٰ منتسبيها التبرّع بالدم أو تعاطيه، بما في ذلك أيًّا من مكوّناته الأربعة (كرات الدم الحمراء-كرات الدم البيضاء-الصفائح الدموية-البلازما)، حتىٰ لو كان في ذلك إنقاذهم من هلاك محقَّق، بل وتَعتبر كلَّ من يقترف هذه الجريمة النكراء منبوذا مطرودا من عضويّتها، علىٰ زعمهم بأن الروح تسري في الدم، ولا يجوز نقل روح الشخص إلىٰ شخص آخَر!

(٥) قنبلة يدويّة

بعض الأحداث تستعصي علىٰ مكنسة النسيان، ولا يقوَىٰ الأثير علىٰ تبديد غبارها وإلحاقها بالهباء؛ ذلك لأنها حفرَت عميقا، عميقا جدّا، وصارت تعيشُنا أكثر ممّا عشْناها، ومنها وحدها تتناسل ذكرياتٌ متلألئة نعطّر بها مجالسنا ونرطّب أحاديثنا، وها هي أقلامنا أيضا تنال حظّها فتغرف من معين مائها وكنوز منجمها.

ومن تلك الأحداث ما جرىٰ أثناء تأديتي الخدمة العسكرية كضابط طبيب من فئة الاحتياط، وبالتحديد يوم الرّمي بالقنابل اليدويّة بإحدىٰ الكتائب العسكريّة، وقتما كان التأمين الطبّي في شخصي حاضرا، إضافة إلىٰ تأمينات فنيّة أخرىٰ لازمة في مثل تلك الرمايات التدريبية الحيّة، والتي يُتوقّع فيها نسبة خسائر مقنَّنة، وتَحبِس لها القيادةُ أنفاسَها وعلىٰ أطراف أصابعها تقف. ويقضي التدريب بنزول الجندي إلىٰ حفرة واسعة تستر نصفه الأسفل تُسمَّىٰ خندقا، ليناوله المعلِّم قنبلة بحجم ثمرة الكمثرىٰ

تزن نصف كيلوجرام يزيد قليلا، فيقبض عليها جيّدا بيُمناه، ثـمّ ينـزع فتيـل أمانها في حذر بالغ بيُسراه. وفي غضون ثوان معدودات، عليه تطويح يمناه إلىٰ أقصىٰ الخلف، ثـمّ القـذف بالقنبلـة خـارج الحفـرة عاليـا وإلـىٰ الأمـام لنحو مائة وخمسين مترا، لتنفجر بعيدا في فضاء رحب، يتخيّله الرامي هدفا قتاليا، يفتح به ثغرة في حصون العدو، أو يفتك براجلة من مشاة الخـصم، أو سـوىٰ ذلـك مـن أغـراض قتاليّـة يقْتـضيها الكـرّ والفـرّ في الحروب.

وبينما أدّىٰ كلّ الجنود دورهـم بإتقـان، وتهلّلـت وجـوههم مـع انفجـار قنابلهم واحدة تلو الأخرىٰ، ولوّحوا بقبضتهم في الهواء تعبيرًا عـن الـروح القتالية العالية وتأكيدا علىٰ شجاعة هي للمقاتل كدمع العين ولعاب الفم؛ بقـي جنـديّ رِعديـد كـاد أن يتـسبّب في كارثـة مروّعـة، إذْ مـا إن نـزل إلـىٰ الحفرة وتناوَل القنبلة ونزع الفتيل؛ حتىٰ اصفرّ وجهـه وارتعـدَت فرائـصه ودقّ قلبُه بعنف كطبْل وتسمّر كتمثـال مـن الرخـام أخطـأ مكانَـه، وبالتـالي عجز عن تنفيـذ الـشقّ الأهـمّ وهـو رمـي القنبلـة خـارج الحفـرة، ولـولا أنّ المعلّم الأريب خطفها سريعا من كفّه المتهدّلة، ورمىٰ بها خـارج الحفـرة، لانفجرت داخلها وتمزّق كلاهما إربا إربا، إذ تمتدّ القوّة التدميرية للقنبلـة المنفجِرة لتشمل دائرة قطرها بضعة أمتار. والواقع أنّ انفجارا خطيرا كهذا كان فوق قدرتي التأمينية، وما كان في مستطاعي ساعتها سوىٰ نقله لأقـرب

مستشفىٰ مجهّز يبعد نحو ست ساعات ستبدو ساعتئذ كسنة ضوئية! وبالطبع لا يوجد إسعاف طائر، وهو الأمثل في مثل تلك الحالات.

وعقابًا لهذا الجندي؛ كتب القائد بخط بارز علىٰ ورقة كرتون (أنا جبان)، وعلّقها برقبته ثلاثة أيام لا تفارقه في صحو أو منام، كما أمره بحمل المعلّم علىٰ كتفيْه والطواف ركْضا في أنحاء المعسكر، تزفّه الخيبة ويجلّله العار، وهو عقاب معنوي تتصاغر أمامه أيّة عقوبة مادّية، حتىٰ لو كانت تلك العقوبة حيّة تلدغ أو عقربا يلسع أو سوطا كلهيب النار يلفح.

وبينما أرقب مشهد الرّمي المثير من الخطوط الخلفية داخل سيارة الإسعاف؛ كنت مع كلّ قنبلة تحتضر وتُحدث دويّها المعهود، أغبط هؤلاء الجنود البواسل وأتحرّق شوقًا لمشاركتهم تلك الوليمة الفاخرة، مع أنّي بطبعي أنتمي إلىٰ فصيل البشر الهادئ المسالِم غير المغامر. ولمّا بلغَت إثارتي ذرْوتها وصعُب عليّ إلجام الأدرينالين الذي راح يعربد في عروقي، رجوْت القائد أن يمنحني شرف المشاركة بالرّمي.

ومع أنّ مهمّتي كانت طبّية بحتة، ولا يحقّ لي الرمي بأيّ حال من الأحوال، إلّا أنه غامر بمنحي الفرصة ووافق علىٰ رمي قنبلة واحدة لا غير. وفورًا قفزت إلىٰ الحفرة، وتقمّصْت دور تشرشل وأيزنهاور، وأدّيت دوري بإتقان. وبدلًا من مغادرة الحفرة كما اتفقنا، أشرتُ إليه متوسّلا:

هـل مِـن مزيـد؟! فابتـسم ورفـع لـي إبهامـه الأيمـن، إيـذانا بالموافقـة والاستحـسان والتـشجيع، فبقـرتُ بطـن اثنتيْن أخـريين، لا زال دويّهمـا يشدو في أذني شدْو العنادل.

(٦) شذوذ جنسي !

مع أنّ المساجد مقصد الأبرار وملتقىٰ الرّجال؛ إلّا أنّ الحُكْم علىٰ مرتاديها بالورع والتّقىٰ يظل منقوصا ما لم يخضع المرء منهم لاختبارات الحياة الكاشفة. وقصّة فاروق الأمّة في هذا الصدد معلومة ومشهورة، عندما أثنىٰ أحدُهم علىٰ رجل أمامه، فقال عمر رضي الله عنه: صَحبْته في سفر؟ قال: لا، قال: فأْتمَنْته علىٰ شيء؟ قال: لا، قال: ويْحك! لعلّك رأيته يرفع ويخفض في المسجد.

ومن باب التمثيل والإيضاح، وبكلّ ألم وأسف، أعود بالذاكرة إلىٰ بواكير دراستي الجامعية، حين اعتدتُ الصلاة في مسجد قريب يفصلني عنه بضعة أمتار، ولا ريب أنّ مجاورة المسجد نعمة تجعلك تألفه وتُكثر المكْث فيه وكأنه جزء من بيتك. ولأني غريب عن المنطقة وحديث عهد بهذا المسجد؛ فقد دأبتُ علىٰ صلاة فرضي ونفلي ثمّ المغادرة دون الانخراط مع مجموعة تتحلّق هناك في الركن، أو طائفة تقف هنا علىٰ الباب، ممّن نسمّيهم حمائم المسجد ومرابطيها، وكأنّهم وُلدوا في مآذنها.

وفي غضون يومَيْن، اقتحم عزلتي شاب عشريني ممتلئ القوام أبيض البشرة ذو خدّين في حمرة التفاح، حرص علىٰ الصلاة بجواري ومصافحتي بودّ بعد الصلاة! فاستبشرْت به، وانقشع ما بيننا من ضباب يلفّ الغرباء عادة، وبمرور الأيام صار ينتظرني بعد الفراغ من الصلاة ويصحبني حتىٰ باب البيت كصديق قديم التقاني بعد فراق!

وذات يوم، عزمْت عليه بالدخول لشرب الشاي كعادة أهل المحروسة في كل زمان ومكان، فقبل من فوره، وأعرب أثناء الزيارة عن بالغ محبّته لي. ولمّا أطال الجلوس، استأذنْته في الانصراف لأستذْكر دروسي، فقام متثاقلا وسلّم بحرارة، ثمّ استسْمحني في تقبيل يدي فرفضْت، وعجبْت! وفي اليوم التالي وجدتُه ينتظرني، ليس في المسجد، ولكن علىٰ باب البيت! وطلب الدخول لأمر مهمّ يريدني فيه، ثمّ طفق يحكي بصوت خفيض رقيق، أنه متزوّج حديثا، وهو وزوجه لا يدريان شيئا عن العلاقات الزوجية الحميمية، وبصفتي طبيبا يريدني أن أزوّده بمعلومات كافية عن ماهية تلك العلاقة ، بل ويرجوني في الذهاب معه إلىٰ البيت لأشرح له ولزوجه ذلك! باعتباري صرت منه بمنزلة الأخ!

والواقع أنني كنت لتوّي طالبا في الثانوية، وبالكاد أقف علىٰ عتبة الطبّ، ولا أدري عن هذا الذي يريد إلّا كما يعرف فتي غرير أو أقلّ، وهو ما اجتهدْت في إيصاله إليه، ولكن علىٰ غير قناعة ورضا من جانبه، إذ

ادّعىٰ أنّ معلوماته وزوجه تحت الصفر، وأن هذا القليل الذي أعرفه هو بالنسبة لهم كثير، وعليّ أن أنقذ زواجهما وأُسدي إليهما معروفا لن ينسيانه!

وفي أثناء حديثي معه، وجدتُه يرمقني بنظرات مشبوهة، ويقترب في جلسته منّي لدرجة الاحتكاك غير البريء، فارتبْت منه، وشرعتُ باب الغرفة المغلَق، وناديت علىٰ زملائي في الشقّة بصوت عال ليشاركونا الجلوس والرأي، فانسلّ سريعا كجرذٍ لمح فأرا، علىٰ وعد باللقاء غدا لاستكمال الحديث.

وبوصفي حديث عهد بالمدينة والجامعة، وقليل الخبرة بالحياة والناس؛ استعنتُ بخبرة أبناء بلدتي المخضرمين ورويتُ لهم ما كان، فنبّهني أحدُهم مشكورا إلىٰ أنّ هذا الشاب شاذّ جنسيا وفي طريقه لاستدراجي! فكان ذلك كوقع الصدمة، إذ كنت بساذج فطرتي أعتقد أنّ هذا من مخطوط الكُتب فقط، ولا وجود له في أرض الواقع من حولي، ثمّ إنّ الرجل ابن المسجد وربيبه! ولكنّي لمّا تمعّنتُ في سطور صفحته منذ لقائي به، تأكّد لديّ هذا الافتراض بما لا يدع مجالا للشكّ، فمهما كان المرء مخاتلا، ومهما استبْطن من نوايا، فإنّ إيماءاته وكلماته وسيماء وجهه تفضحه دون أن يدري. وبهذا غلّقتُ دونه كلّ منفذ، وأشهرتُ في

وجهه كلّ بطاقاتي الحمراء بلا هوادة، ولم يمض سوىٰ يومَيْن علىٰ معاملته بهذا النحو؛ حتىٰ تلاشىٰ من المسجد والمنطقة بأسْرها، وإلىٰ غير رجعة!

(٧) في العجلة النّدامة

قد تسمع عن سِير مجدي يعقوب كأشهر جرّاح قلب، وعن ألمانيا كرائدة لطبّ العظام، وعن روسيا كمعقل لطبّ العيون، وعن فرنسا كقِبلة لعلاج السرطان وأمراض الدم. ولكنك بالتأكيد لم تسمع بأسرع طبيب في العالم، والذي يستحقّ عن جدارة واستحقاق أن يُسجَّل اسمه بحرف بارز في موسوعة جينيس للأرقام القياسية عوضا عن خزعبلات أطول شنب وأضخم كرش وأكبر مؤخّرة!

فحسب المعدّلات القياسية العالمية؛ يجب أن يمكث المريض مع طبيبه أثناء الفحص ما متوسّطه سبع عشرة دقيقة، يستقصي خلالها تاريخه المرضي، ويفحصه إكلينيكيا، ثمّ يسجل الوصفة الدوائية، ويختم بالتثقيف الصحّي المناسب للمرض. أمّا العبد لله؛ فقد ناظر ثلاثة وعشرين مريضا في ساعة واحدة، وناظر مئة وأربعين مريضا في يوم عمل مدّته سبع ساعات ضمن إحدى المؤسّسات الصحيّة الحكوميّة!

والسؤال هنا، كيف تمّ ذلك؟ شطر من الإجابة تجدها لدىٰ عضلات رقبتي التي تشنّجت جرّاء التحديق المستمرّ في اتجاه شاشة الحاسوب، ولدىٰ يدي اليمني التي أصابها الخدر نتيجة النقر دون هوادة علىٰ لوحة المفاتيح! أمّا شطرها الثاني فيكمن في احتمالين كلاهما غير صحيح؛ إمّا أني لست طبيبا وأمارس الدّجل، أو أنّ المرضىٰ يمارسون السياحة البصرية وجاءوا فقط لإلقاء نظرة علىٰ هذا الكائن الطبّي الوافد من وراء بحر القلْزم.

والحقيقة أنّ بعض الأنظمة الصحيّة لا مانع لديها من سفك دم الطاقم الطبي في سبيل توفير موارد مالية، ومن أجل الظهور بمظهر الاستغلال الأمثل للموارد البشرية! مع أنّ النتيجة الحتمية هي كثرة الأخطاء الطبيّة وما يترتّب عليها من مضاعفات وإعاقات وأحيانا وفيات، وذلك كمحصّلة لاحتراق الطاقة الداخلية للطبيب أو الممرّضة، ومن ثمّ مواصلة العمل بنصف عقل وربع روح داخل جسد يئنّ من ضغط العمل ويحنّ إلىٰ الراحة ولو لساعة. بما يعني أنّ الوعي الصحي اللازم للمرضىٰ، هو أكثر لزومية في حقّ بعض المسئولين عن النظام الصحي، وبعض مديري المنظومات الطبيّة.

والطريف حدّ البكاء؛ أنّ نفرا غير ضئيل من المرضىٰ يفضّلون هذا النوع من الفحص السريع، تماما كما يفضّلون طريقا سريعا ينهب فيه

السائقُ الأرضَ نهبا ويجوز له من السرعة ما لا يجوز في غيرها من الطرق العادية، حتىٰ إنّ بعضهم اشتكىٰ لي ذات مرّة من طبيب يتأنّىٰ ويعطي المريض بعض حقّه من الوقت، فوسمه بقلّة الخبرة وعزا طول الوقت الذي يقضيه مع المريض إلىٰ بطء التفكير والعجز عن استنباط التشخيص لأوّل وهلة، عكس طبيب آخر يلتقط التشخيص في لمح البصر ولا يجلس معه المريض أكثر من دقيقة! إي والله، هكذا صار مفهوم البعض عن الطبيب السريع وزميله البطيء! وهو ما يذكّرك بإمامٍ للتراويح يتقاطر عليه المصلّون في رمضان؛ لا لشيء سوىٰ لسرعة فائقة لا يخجل فيها من توزيع أقصر سور القرآن وهي سورة الكوثر علىٰ ثلاث ركعات!

ورغم أنّ بعض الأمراض يكفي لتشخيصها نظرة خاطفة من عين الطبيب ريثما يُقْبل المريض عليه بوجهه وقبل الحديث معه أو القيام بأية فحوصات؛ إلّا أنّ المريض يظلّ في حاجة إلىٰ وقتٍ كاف للشكوىٰ والبوح والتنفيس، بل إنّ الكثير منهم لا يعوزه سوىٰ أذن تصغي وعقل يتعاطف وعاطفة تواسي، فما أكثر ما تطويه الصدور من هموم. ولا ننسىٰ أنّ الطبيب بحاجة إلىٰ الاستفسار عمّا لا يسبّب تعارُضا ويعيق مفعول الدواء الموصوف، وفي حاجة أكثر إلىٰ معرفة الرجل الذي أصابه المرض بنفس مقدار معرفة المرض الذي أصاب الرجل علىٰ قول الطبيب الكندي سِير وليم أوسلر، وهو ما لا يتسنّىٰ له إلّا بعد أخْذ وردّ يستغرق وقتا..

وفي هذا، أذكر مريضا ثار علىٰ زميلٍ لنا ثورة عارمة، لأنه ما إن دخل عليه وبثّه شكواه، حتىٰ كان الزميل قد دبّج الوصفة الدوائية، ولم يترك له الفرصة ليثني ركبتيْه ويستوي علىٰ الكرسي ويلتقط أنفاسه! بما يعني أنّ هذه العجَلة المَقِيتة قد يعتادها الأطباء أيضا من كثرة ما ابتذلوها علىٰ مدار الأيام والشهور، بما في ذلك من خطر داهم علىٰ المهنة بوجه عام. مع ملاحظة أنّ الطبيب العام عادة يحتاج إلىٰ وقت أطول من زميله الاختصاصي، والطبيب الباطني يلزمه وقتا أَمْدَد من صنوه الجرّاح.

(٨) قَرَنْقَشُوه!

هل تناهىٰ إلىٰ سمعك هذه المفرَدة من قبل؟ وهل بمقدورك تكرارها عشر مرّات سريعة دون تأتأة؟ قد تكون ثقيلة الوقْع علىٰ الأذن، وعسيرة اللفظ باللسان؛ ولكن يشفع لها كوْنها موروثا شعبيا عريقا يوافق ليلة النصف من رمضان كلّ عام، فينتظم خلاله الأطفال العمانيون في مجموعات تضمّ شتّىٰ شرائح المجتمع، ثمّ يطوفون بعد الإفطار من حارة إلىٰ حارة ومن بيت إلىٰ آخَر، وبصحبتهم أكياس يجمعون فيها الحلوىٰ والمكسّرات والنقود، وذلك ضمن أجواء احتفالية مبهِجة يشاركهم فيها البدر ليلة تمامه وينشدون سويّا: (قرنقشوه يا ناس، عطونا شويّت حلوىٰ. دوس دوس، طلّع غوازيك من المندوس. حارة حارة، طلّع غوازيك من السحّارة)، فمَن أهداهم وطيّب بالفرحة خاطرهم كما العادة، شكروا صنيعه قائلين: (جاكم الخِير متبادي، قدّام بيتكم وادي)، وإن صادفوا أحدا ضنّ عليهم -وهو في حكم النادر أو المعدوم- مازحوه قائلين: (قدّام بيتكم صينيّه، وراي بيتكم جِنّيّه).

وعلىٰ وقْع هذه الاحتفالية التي تعكس طابع الكرم وتقوّي أواصر المحبّة وتربط الماضي بالحاضر، كانت أوّل ليلة لي في سلطنة عمان عام ٢٠٠١م، إذ وطأَت قدماي مطار السيب الدّولي الذي تغيّر اسمه الآن إلىٰ مطار مسقط الدولي، ويومها أُسقط في يدي لغياب مندوب وزارة الصحة عن استقبالي كما هو متَّفق عقب إرسالي فاكسا بموعد الوصول! وعندها وقفتُ حائرا كصغير أفلت يدَه في الزحام من كفّ والديْه، ورحتُ أتلفّت يمْنة ويسْرة، أفكّر أين أذهب؟ وبمَن أتّصل؟ ولم يقطع حيرتي سوىٰ ابتسامة مهندس مصري شهم، أردفها بسؤاله: أتنتظر مندوب وزارة الصحة؟ ولم ينتظر إجابتي، بل واصل قائلا: أنت ضيفي الليلة وسأوصلك للوزارة غدا السبت.. هذا قبل أن تتغيّر الإجازة الأسبوعية حسب العوْلمة الكوْنية لتصبح الجمعة والسبت بدلًا من الخميس والجمعة. وبحميميّة، فتح باب الحديث بالرياضة والأهلي والزمالك الذي يُعدّ مدخلا طبيعيا لحوار المصريين، ومنه عرفْت أن له قدما راسخة في الغربة، ودائم الحضور إلىٰ المطار لاستقبال وفود المهندسين والفنّيين العاملين في شركته الهندسيّة.

وفي تلك الأثناء، قطع حوارَنا وصولُ المندوب الذي اعتذر بأدب عن التأخير، ثمّ قادني إلىٰ فندق هوليداي إن مسقط، الذي مثّل فرصة ذهبيّة لقرويّ مثلي ليتعلّم كيف يفتح باب الغرفة ببطاقة ذكيّة، وكيف يقطف

زهرة بوفيه مفتوح؛ فلا يغرق في ركن السلطات والمقبّلات، ويفوته ما لذّ وطاب من شهيّ البروتينات والحلويات. ولا أنسىٰ ذلك اللوح الخشبي النائم علىٰ الجدار كغلاف كتاب، ووقوفي أمامه كطلسم محشوّ بالألغاز، قبل أن أجتهد في استنطاق ما خبّأه في جعبته من مكواة حرارية مدفونة بإتقان داخل الجدار!

وكم كان صعبا موقف زميلي الذي وصل المطار في الليلة نفسها، ولم يجد مندوب الوزارة أيضا، فخرج من المطار كالتائه ووقع في قبضة سائق استغلّه أَسْوأ استغلال، بعدما أفصح له الزميل عن جهله بالعملة والأجرة، رغم أنّ طلبه لم يكن سوىٰ إيصاله إلىٰ فندق يجاور وزارة الصحة، يبيت فيه ليلته ثمّ يتوجّه صباحا للوزارة. وقد داوت الوزارة بكرمها شطرا من جرحه بعد تعويضه عن الإقامة الفندقيّة.. فالغريب أعمىٰ ولو كان بصيرا ويتيمٌ ولو كان أبوه حيًّا يُرزق، وما أشبه الجوْر في حقّه بالاجتراء علىٰ قفا الضعيف والاستيلاء علىٰ ميراث اليتيم!

يُذكر أنّ احتفالية (القَرَنْقَشُوه)، تنتشر في المحافظات الشمالية من السلطنة، وتحتفل بها بعض الولايات في ليلة النصف من شعبان لا رمضان، وقد يسمّونها ليلة العقبة أو الطوق. والواقع أنها ليست حكرا علىٰ سلطنة عمان الحبيبة، بل تمتدّ إلىٰ بعض دول الخليج الأخرىٰ ولكن تحت مُسمّىٰ (القرقيعان) أو (الكرنكعوه). ومع أن البحث عن جذورها

وعلّة تسميتها تضاربَت فيه الآراء واتّفقت علىٰ أن لا تتفق، إلّا أن ذلك لم يشكّل عائقا دون رسوخها في ذاكرة الزمن، وتَعاقُبها من جيل إلىٰ جيل، ومن ثمّ إضافة لبنة إلىٰ لبنات الأصالة والخصوصية التي يتمتّع بها تراث الشعوب عامّة.

(٩) كاميرا المراقبة

تَماشيًا مع التقنيات الحديثة الهائلة التي غزت خلايا الحياة كجيوش الحلفاء، ووفاءً بالاشتراطات العديدة المفروضة من قِبل المنظومة الصحية؛ لم يكن هنالك بدّ من تركيب بضع كاميرات في العيادة ترصد الداخل والخارج لبضع مترات هنا وهناك، ولتنضمّ بذلك إلىٰ ملايين إن لم يكن مليارات الكاميرات المعلَّقة في زوايا الكرة الأرضية، بدافع أمنيّ بحت، يسهّل اكتشاف جرائم بات بعضها لغزا معقَّدا يستعصي علىٰ الحلّ ويُقيَّد ضد مجهول. ويراهن البعض علىٰ أنّ وجودها ظاهرة للعيان، يمثّل رادعا كافيا، يكبح جماح نفوس ضعيفة تسوّل لصاحبها ارتكاب ما هو مجرَّم، إذْ لا عاقل يرضىٰ لنفسه أن تتعرّىٰ وسط شارع يرقبه المارّة وينيره قرص الشمس!

وذات يوم من أيّام الله، ظهر علىٰ الشاشة الموصولة بالكاميرا، وهي في الحقيقة شاشة التلفاز، سيارةٌ جاوزَت البوابة الرئيسية ببطء، ثمّ استقرّت

جهة اليسار داخل السور المحيط بمبنىٰ العيادة كالسّوار. وعلىٰ مدار الدقائق التالية خاب حدس الممرّضة، في نزول المريض من السيارة والتوجّه إلىٰ باب العيادة الداخلية طلبا للعلاج أو الاستفسار أو غيره من خدمات العيادة. وباعتبارها أنثىٰ عتيدة يسكنها فضول القطط، ذهبَت تستطلع الخبر، وهو تصرُّف حكيم ولا ريب. وما إن وقع بصرُها علىٰ السائق داخل السيارة السوداء ذات الدفع الرباعي، حتىٰ هرْولت تناديني وعلىٰ وجهها أمارات الذُّعر!

كان مكيّف السيارة يوزّع هواءه البارد بلا هوادة، وصوت المذياع يثرثر بأخبار مضغتْها الأحداث، والفوضىٰ تعيث فسادا في الكراسي الأماميّة والخلفيّة، بينما السائق منكفئ علىٰ المقْود بلا حراك، هل حان أجله ففاضت الروح بأمر الواحد الديّان؟ أم غشيتْه غيبوبة لا تحترم الزمان والمكان ككلّ الأمراض؟ أم غلبه نوم قاهر كقهر السلاطين وغالب كغلبة القُوّاد؟ بسرعة رحْت أجسّ نبضه، فألفيتُه واضحا جليّا لا شية فيه، بما يعني أنه حيّ يُرزق. ثمّ عمدتُ إلىٰ هزّه من كتفيه وتنبيهه بصوت عال، فبدا متثاقلا ذاهلا كمَن لعبَت الحمّىٰ برأسه. وأثناء ذلك اطمأنّت الممرّضة علىٰ سلامة نسبة السكّر وقياس الضغط وكذلك معدّل درجة الحرارة. وما إن بدأ يستفيق علىٰ إثر حركتنا وجلبتنا، حتىٰ رمقَنا بعينيْن حمراويْن محتقنتيْن، وتفوّه ببضع كلمات ثقيلة فاحت منها رائحة الخمر

وأَفشت سرّ علّته! ومنه علمْت بقدومه رأسا من فندق احتسىٰ فيه ما شاء له شيطانه من مصباح السرور ومفتاح الشرور، ثمّ قاد سيارته قافلا إلىٰ البيت، وألجأه صداع الرأس وحالة الارتباك والتشويش إلىٰ العروج علىٰ العيادة الواقعة علىٰ الشارع الرئيسي غير بعيد من بيته.

وبعدما أشرْت عليه بإطفاء محرّك السيارة، ومرافقتي إلىٰ داخل العيادة للمزيد من الاطمئنان عليه؛ إذ به يقود السيارة إلىٰ الخلف مغادرا، ويكاد يصطدم بالبوّابة نظرا لحالة عدم التركيز التي مازالت تأخذ بزمامه كخِطام الدوابّ، ممّا اضطرّني إلىٰ الاستعانة بأحد المارّين مصادفة، طالبا منه العون في الاستحواذ علىٰ مفتاح السيارة وإبلاغ الشرطة، خوفًا من خروج الرجل إلىٰ عرض الشارع علىٰ هذا النحو، مع إمكانية دهس برئ يمشي، أو الاصطدام بسيارة لا ناقة لها في الأمر ولا جمل. لا سيّما، أنّ احتمالية تعرُّض سائق تحت تأثير الكحول لحادث سير مميت، يبلغ سبع عشرة مّرة أعلىٰ من سائق ليس تحت تأثير هذا الكحول الذي يشوّش الوظائف الحركية والمعرفية والحسّية، ويعصف بمتطلّبات القيادة الآمنة: من حدّة البصر، والانتباه، وتقدير المسافات، وسرعة الاستجابة، والقدرة علىٰ اتخاذ القرار.

العجيب، أنه في اليوم التالي، وبعد أن بات ليلته في قسم الشرطة، حضر إلىٰ العيادة حانقا، وصار يهدّد ويتوعّد جرّاء ما قمنا به من إبلاغ الشرطة

وافتضاحه بين المارّة آنذاك. وكأن اجتراءه علىٰ الله، وانتهاك المحرّمات، واللعب بأرواح الناس، ليس ذا بال. أضِف إلىٰ ذلك، افتضاحه علىٰ رؤوس الأشهاد يوم القيامة، والذي يستحقّ أن يَحسب له الحساب؛ فيعضّ بنان الندم، ويثوب إلىٰ رشده، ويؤوب إلىٰ مولاه.

(١٠) عذاب الضمير

علىٰ سلّم مقياس الألم المدرَّج بشكل تصاعدي من صفر إلىٰ عشرة؛ تتربّع آلام الأزمات القلبية والحصوات الكُلوية والمخاض والشقيقة والتهاب الأسنان وكسور العظام، بينما يبقىٰ الألم النفسي الناجم عن تأنيب الضمير هو الأشْرس والأفْتك؛ إذ يقضّ المضجع فيُذيق الجفون مرّ السّهاد، ويُودي بالشّهيّة فينهش البدنُ نفسَه ويغدو كعود قصب ممصوص أو شمعةٍ احترق فتيلُها وتناثر فُتاتها حتىٰ آخر قطرة شمع! والحقّ أنّنا مهما حاولنا الاقتراب من الألم بقياسه، ستظلّ مقاييسنا تدور في فلك النسْبيّة، وسيبقىٰ الألم تجربة ذاتية خالصة لا يعرفه إلّا من يكابده، فليس مَن يَعُدّ العِصِيّ كمَن يتلقّاها.

والضمير شعور إنساني نبيل؛ فالوحوش لا تقرّه، وعتاة المجرمين لا يفسحون له الطريق. وتأنيبه دلالة علىٰ حياته، بحسبان الموتىٰ لا يتألّمون. وهو مطلوبٌ مقبولٌ طالما بقي في إطار جرس عاقل ينبّهنا إلىٰ الخلل،

ومُربٍّ أمين يعيدنا إلىٰ الجادّة. ولكنه يصبح طامّة كبرىٰ، حين يقذفنا إلىٰ أتون اليأس، ويطأ بنا جحيم الاكتئاب وسعير الانتحار.. فإزهاق الأنفس تَعَدٍّ سافر علىٰ حقّ أصيل من حقوق الألوهية، والركون إلىٰ اليأس موت بلا قبر. وفي هذا سجّلت الإحصائيات أن تأنيب الضمير يقف وراء ما نسبته ٧٪ من نسبة النساء المنتحِرات.

ومناسبة ذلك، أنّ شابا خليجيًّا ناعم الملامح ضئيل البنْية رقيق الحاشية، تردَّد عليّ لأكثر من مرّة للعلاج، تارة يشكو الإرهاق والتعب، وتارة يصطلي بجمر الأرق، وثالثة يطلب مشهّيا يفتح فوّهة معدةٍ عافت كلّ صنوف الطعام. وبعد جولة قصيرة من مدّ الجسور وكسب الثقة، أخبرني وهو يرنو إلىٰ الأرض كأسير وينكمش في مقعده كقنفذ؛ أنه شاب دَيِّن، لا يبرح المسجد، ومنخرط في حِلَق القرآن، ومعروف بين أقرانه بالصلاح وطهارة الذيل. أمّا الناحية الاجتماعية والمالية، فهو سليل عائلة مشهورة في عالَم التجارة، تنعم ببحبوحة العيش ورغد الحياة.

وفي أحد الأيام، سافر إلىٰ دولة مجاورة لإنجاز صفقة بيع أغنام تثغو، فانتابه ألم بالظهر أثناء إقامته بفندق من ذوي النجوم الخمسة، وهو ألم خفيف ما كان لينتبه إليه لولا أنّ المال أكداس في جيبه. وبدلا من أن ينساه وينسبه إلىٰ طول الرقاد وعضلة ذات مزاج عكِر، ساقتْه قدمه إلىٰ مركز للتدليك، أُشير عليه به. ويبدو أنه كان غَريرا فيما يخصّ طبيعة تلك

الأماكن الملتوية، إذ تَصوّرها عيادات للعلاج الطبيعي لا غير، بينما الذي حدث أنّ فتاة آسيوية استقبلتْه سافرة حاسرة، وقامت بما يلزم وما لا يلزم من التدليك، فكان أن دخل عفيفا نقيًّا، وخرج زانيا فاسقا! وهكذا تُعلّمنا الخطوب أنّ فقرَ الوعي أنكىٰ علىٰ المرء من فقر الدم وفقر المال، وأنّ أحدَنا قد يُؤتَىٰ من قِبَل سذاجته وغفْلته أكثر ممّا يُؤتىٰ من قِبَل سوء نيّته وفساد طويّته. كما تُذكّرنا بأنّ الإنسان ضعيف بفطرته؛ إنْ أمن الفتنة سقط فيها، وإنْ حام حول الحِمىٰ أوشك أن يقع فيه، فما بالك إذا كان هذا الحِمىٰ امرأة هي أشدّ الفتن وأضرّها علىٰ الرجال! "فاتقوا الدنيا واتقوا النّساء، فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[1].

وفي إثْر ذلك، استدارت حياة الشابّ دورة كاملة، عاش بموجبها صراعا عنيفا يجلد فيه روحَه بالسياط، ويعضّه ضميرُه بأنياب من فولاذ. وضاعف من محنته؛ أنه أغلق علىٰ سرّه الضلوع، وفرض حظر تجوّل حيال ما يعتريه، فلم يُطلع عليه أقرب المقرّبين الذين ندّخر أسماعهم لهكذا ظرف، ونستحثّ عوْنهم لهكذا سقْطة.

وبمرور الأيام، غارت عيونه وذبل عوده وانطفأت مصابيحه، بعدما ولج دوّامة الاكتئاب من أوْسع أبوابه، وبات في حاجة إلىٰ علاج دوائي قد يمتدّ لعام أو عاميْن، مصحوبا بعلاج معرفي روحي يذكّره بقصّة هذا الذي

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري

أسرف علىٰ نفسه بالموبقات حتىٰ قتل مائة نفس، ورغم أنّ قتْل النفس بغير حقّ لا ينافسه في الجُرم إلّا الشّرك؛ فقد فتح الله له باب التوبة وختم له بخاتمة السعادة.

وأذكر يومها –إن لم تخنّي الذاكرة– أنّه انتعش قليلا لقولي: إنّ المرْء قد ينتفع بخطئه وإخفاقه أكثر من انتفاعه بصوابه ونجاحه، وقد تُعلّمه نوبات الألم مالم تُسعفْه به سنوات العافية، وقد يُصبح بعد التوبة أنقىٰ ممّا كان قبل الذنب. كما طابت نفسُه شيئا ما عند تذكيره بقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزُّمَر:١٠] .

(١١) ليلة ليْلاء!

لا يستبْشر الأطباء كثيرا بالهدوء الشديد أثناء المناوبات الليليّة؛ إذ يعتبرونه هدوء ما قبل العاصفة. ولا يستبْشرون كذلك بمرضَىٰ السويعات الأخيرة قبيْل انتهاء المناوبات؛ فبعضها تكون الرياح التي لا تشتهيها السفن، وتصبح بمثابة الحالقة التي لا تحلق الشّعر ولكن تحلق الوقت المحدَّد لانتهاء المناوَبة والمنتظَر بفارغ الصبر.

ومريضتي هذي مثال علىٰ العاصفة التي تلت الهدوء، فجاءت في هزيع الليل الأخير تتأوّه من صداع وأرق وصفْتهما بالشدّة، وعصبت لهما رأسها بعصابة سوداء كثكلىٰ قبرت زوجَها قبل ساعات. وبمراجعة التاريخ المرضي والأدوية التي تتعاطاها، تبيّن أنها ترزح تحت وطأة اكتئاب تواظب له علىٰ خطّة علاجيّة بمعرفة طبيب مختصّ.

وفي مثل هذه الحالات قد نستعين ببعض الأدوية المضادّة للحساسية، ليس لمفعولها المضادّ للتحسُّس، ولكن للاستفادة من بعض آثارها

الجانبية الجالبة للنعاس، وهو ما قرّرْته وحَرّرْت له أمرا طبّيا تتولّىٰ تنفيذه الممرّضة المناوبة.

وبدلًا من رحيل الصداع والغطيط في النوم ولو بتأثير الإيحاء النفسي، إذ بها، وتَزامُنًا مع سحب الممرّضة للإبرة من الوريد، تصيح صيحة هادرة، معلنة أنّ قلبها يقفز من صدرها، وتستجدي النجدة من موت يكتم أنفاسها! وفي أقلّ من طرفة عين، كنت علىٰ يمين سريرها، فهالني وجهها الممتقِع كالمحتضَر، ونبضها المتسارِع كفرس جامح، ورجفة اعترت كيانها كمَن به مسّ كهربائي. بينما الممرّضة متسمِّرة مشدوهة كتمثال أبي الهول بجوار السرير، بعدما عقد الخوفُ لسانها وبسط كفَّها بأمبول فارغ من الأدرينالين يشرح الكارثة في صمت. إذ تمّ استبدال الأمبول المضاد للحساسية بأمبول من الأدرينالين حُقِن لتوّه في الوريد، وما أدراك ما الأدرينالين في الوريد!

فقبل وقت ليس ببعيد، كتبَت طبيبة باكستانية نهايةً مأساوية لقصة حبّ فاشلة مرّت بها، بعدما جلست في هدوء يحسدها عليه السكون، ثم حقنت نفسها بأمبول من الأدرينالين، انساب سريعا في أوردتها وشراييها، ولم يحتمل قلبُها المنهَك هذه السرعة الرهيبة التي راح يدقّ بها كعصا طبّال إفريقي، فلفظَت أنفاسها في دقائق، مسجِّلةً بذلك طريقة انتحار فريدة تليق بطبيبة ولا تليق بمؤمنة موحِّدة! ولولا أنّ مريضتي كانت ثلاثينية فتيّة، لم

تعرف الأمراض القلبية والوعائية طريقا إلىٰ صفحتها البيضاء؛ لَربّما واجهَت المصير نفسه، وبالتالي كان القتل الخطأ اتهاما جاهزا في حقّ الممرّضة، لا سيّما أنّ الأمر الطبي بالحقْن وتفاصيله كان مكتوبا وواضحا لا لبس فيه.

والأدرينالين –لمَن لا يعلم– هرمون تفرزه الغدة الكظريّة أو فوق الكُلويّة، فيسعفنا في عمليات الكرّ والفرّ، ويغيثنا عند التعرّض للضغوط السّلبيّة كالخوف والتوتّر والغضب والإجهاد. وهو لازم لصحّة القلب وسلامة الأوعية الدموية، فيُستخدم طبّيا لتوسيع الشعب الهوائية والأوعية الدموية وعلاج الحساسية المفرطة، إضافة إلىٰ تحفيز القلب وإنعاشه عند حدوث السكتات القلبية، لِما له من تأثير إيجابي علىٰ معدّل النبض وضغط الدم وانقباض العضلة القلبية. وهو التأثير الذي ينقلب إلىٰ الضدّ عند تجاوزه الحدّ، ونجده في الحيوانات التي تركض هربا من حيوان مفترس، فتفرز أجسامها كميات هائلة من هرمون التوتّر المعروف بالأدرينالين، تُسمّم الدم وتتلف القلب والشرايين، وتُسرع بالفريسة إلىٰ حتفها.

وبعد نقل المريضة في عجالة إلىٰ أقرب مستشفىٰ، وإسعافها وتعافيها دون مضاعفات تُذكر؛ تعرّضَت الممرّضة لتحقيق داخلي نالت فيه من التأنيب الكثير، ومُنِعت بموجبه من المناوبات الليلية حتىٰ تخضع

لإشراف مباشر من زميلاتها أثناء العمل الصباحي، خاصة بعدما تعذّرَت بكوْنها من ضعيفات البصر وذوات العدسات السميكة، وألقت باللائمة علىٰ بصرها الذي عشي ليلا حين راحت تجلب الأمبول من بين إخوته القابعات في دولاب خاص للأدوية يُغلق ويُفتح حسب الطلب.

جدير بالذّكر أنّ لهذا الخطأ سوابق نشرتْها الدوريّات الطبّية وإن كان علىٰ نطاق محدود جدّا، وفي سبيل تلافيه؛ تُعزل مثل هذه الأمبولات الخطرة في درج خاص بها مثلها مثل الحقن المخدِّرة، مع تمييزها بشريط لاصق يبرز ماهيتها، والتدقيق فيها ثلاث مرّات متعاقبة، مرّة قبل الحقن لتوثيق صحّتها، ومرّة أثناء الحقن حتىٰ يتسنّىٰ التوقّف الفوري عند اكتشاف خطأ الخلط، ومرّة ثالثة بفحص الأمبول الفارغ بعد الحقْن ليتسنّىٰ البدء الحثيث في الإسعاف حال الانتباه إلىٰ خطأ الاستبدال. ورغم كل هذه الإجراءات الاحترازية، أحيانا تزلّ الأفهام؛ فيفترق الوجوب عن الوجود، ويحدث ما لا يُحمد عقباه، ويستوي في ذلك الطبّ وغيره من المجالات.

وعلىٰ ذكر الخلط في الأدوية، قد يجري الخلط في العمليات الجراحية أيضا! مِن قَبيل إزالة الكلْية السليمة بدل المعطوبة، أو ثَقب الجماجم في الاتجاه الخاطئ من قِبَل جرّاحي المخ والأعصاب، ويستوي في ذلك الدول المتقدّمة والمتخلّفة، لا سيّما في المستشفيات المكتظّة وغرف

العمليات المزدحمة. وهو ما يتمّ دوما التحذير منه، واتخاذ التدابير اللازمة لاجتنابه؛ مثل وضع أسهم بارزة بقلم السبورة علىٰ مكان إجراء العمليات. ولا أدري ما التدابير المطلوبة إذا ما تَقدّم الخلط خطوتيْن للخلف، فحدث بين مريض ومريض، أو بين مريض ومرافق! طبعا أمزح، فالأمور تحت السيطرة، وأرواح الناس في أيد أمينة تُدعىٰ أطباء وتمريض، والله من ورائهم خير حافظ.

(١٢) قبضة الموت

يوشك أحدُهم علىٰ الغرق فينتشله سبّاحٌ مغوار وسط لجّة البحر، ويطرحه علىٰ الشاطئ سليما معافًىٰ، ليشير إليه المارّة قائلين: نجا من الموت! ويقع ثانٍ ضحيّة سطو مسلّح، فتنشقّ الأرض عن بطل جَسور يخلّصه من سكاكينهم، ليشهق عندها شهقة فرحٍ غامر، ويخبط أهلُه كفّا بكفّ قائلين: نجا من الموت. وتهوي طائرة من شاهق، فتنعدم فرص الخلاص بين الركّاب، وتدور أرقام الضحايا علىٰ الشاشات، بينما يعثر فريق الإنقاذ علىٰ ناجٍ وحيد، يتمْتم من أجله الحضور وعيونهم بالفرح تمور: نجا من الموت. ومِن قصص هؤلاء الناجين هنا وهناك، تشكّلت مادّة وفيرة لأفلام وثائقية عجّت بالإثارة وزخرت بالعبرة.

والواقع أنّ الموت لا ينجو منه أحدٌ إنْ حلّ، فكلّ الأشياء خلا الموت يمكن إرجاؤها والإفلات من قبضتها. أمّا هؤلاء فقد نجوا، ولكن من فكرة الموت التي حامت حول الرؤوس أثناء محنتهم القاسية في البحر والبرّ والجوّ، لا سيّما بعدما انقطعت بهم السبل وباتوا قاب قوسين أو أدنىٰ من غيابٍ لا رجعة بعده، واقرأ في ذلك قول الحبيب المصطَفىٰ في

وصيّته لابن عباس: "واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك".

وضمن هذا السياق، دُعيت لحضور مؤتمر طبّي في مدينة تبعد نحو ثلاثين كيلومترا، تقطعها السيارة عبر طريق ممهّد كالحرير في نحو خمس وعشرين دقيقة. ومع إشراقة الشمس وميعة النهار وإعمار الكون؛ اصطحبني السائق مشكورا، ووصلْنا قبل موعد افتتاح الجلسات بفترة، ثمّ تَواعدْنا في المكان والزمان، لنلتقي بعد انتهاء المهمة، ومن ثمّ العودة إلىٰ الدّيار بسلام.

وعقب انقضاء فعاليات المؤتمر، بما فيه من محاضرات قيّمة، ولقاء زملاء أعزّاء لبّوا النداء رجالًا ورُكبانا، وغداء فاخر جاد به الرّعاة وحمدتْه الكفوف والعيون والبطون؛ أشار عليّ أحد الزملاء بمرافقته لدقائق في زيارة زميل بدين خانتْه قدمُه أثناء نزول الدَّرج، وأُصيب بكسر ألزمه السرير بالمستشفىٰ الذي يعلو قاعة المؤتمر. وعلىٰ عجَل أنهينا الزيارة، واستويتُ واقفا أنتظر السائق حسبما اتفقْنا اتفاق أهل الشّجَرة وتواعدْنا وعْد اسماعيل. ولمّا أسفر الانتظار عن صفير الهواء، اتصلْت بالسائق الذي فاجأني بردٍّ حازم جازم: انتظرتك في الموعد والمكان ولكنّك تأخّرْت فانصرفْت قافِلا!

وبعد مداولات، تلقّىٰ السائق أمرًا من المدير المسؤول بالعودة لإحضاري، وبدأْتُ جولة جديدة من انتظار طويل، اتصلْت به خلالها، وأَعلمني أنه في الدرب ينهب الطريق نهبا، ولكن الجوع قرصه وعضّه وسيمرّ علىٰ مطعم يقتات فيه ما تيسّر. وهو ما أثار استياء صديقٍ صادفني واقفا وأحاط علْما بما يدور، فشمّر عن شهامة وأصالة عهدتُها فيه، وأصرّ علىٰ توصيلي بسيارته، علىٰ أن أتّصل بالسائق عند وصولي البيت وأُطلعه علىٰ ما استجدّ.

وما إن وطأْتُ عتبة بابي وهممْت بمهاتفة السائق، بعد أن قدّرتُ انتهاءه من غدائه وبدء تحرّكه؛ حتىٰ صرخ الهاتف بصوت المدير: أين أنت؟ قلت: توّا وصلتُ البيت! فسأل بصوت مضطرب: أأنت بخير؟ قلت: لله الحمد! ثم تابَع: كيف وصلْت؟ فأجبته. ولمّا أبديتُ دهشة ممزوجة بالارتياب والقلق المبهَم، ساق إليّ الخبر دفعة واحدة دون مقدّمات طويلة اعتادها في أحاديثه كالسياسيين: لقد نجوتَ من موت محقَّق؛ إذ تعرّض السائق بعد خروجه من المطعم وأثناء توجّهه لإحضارك، إلي حادث مريع، تهشّمت السيارة بموجبه وتعرّضت لتلف كُلّي لم يعد بالمقدور إصلاحه، بينما نُقل السائق إلىٰ المستشفىٰ جريحا يتأوّه ومكلوما ينوح!

وساعتها، خيّم عليّ الصمت، ووضعْت سماعة الهاتف، ثمّ هويت بجبهتي على الأرض، أشكر ربًّا كريما رحيما حفظني بحفظه وأمهلني إلىٰ أجل يعلم سبحانه مداه.

والمُلاحَظ أنّ الذين وقفوا علىٰ شفا الموت وناظَروه من وراء غلالة رقيقة؛ بعضهم نظر إلىٰ نصف الكوب المليء، واتكأ علىٰ إيمانٍ هو للخير مِلاك وللطمأنينة ينبوع؛ فاستحالت الحياة في عينيه إلىٰ قصيدة بديعة تكتبها زهور الروض وزقزقة العصافير وتسبيحات المصلّين وأهازيج الكادحين، وبات أكثر شغفا وأشدّ حرصا علىٰ اقتناص فرصة وحيدة للعيش كادت أن تضيع. وبعضهم لم ير سوىٰ نصف الكوب الفارغ، فآب مهزوما فاترا، يتراءىٰ له شبح الموت كأسدٍ ضارٍ ينغّص عليه يومه ويكدّر ليله، وتلوح له لحظة اقترابه من الموت كثقبٍ أسود في سمائه لا سبيل لرتقه، وظلٍّ لصيق لروحه لا وسيلة لفراقه. وليته هنا راهن علىٰ النسيان الذي أَعُدّه من أعظم نعم الله علىٰ العباد، وأحسبه أمهر طبيب لعلاج ذاكرة مُثقَلة بالهموم ونفس مُتخَمة بالأحزان؛ فلولاه لظلّ المرءُ طول الدهر ينزف الدمع علىٰ حبيب فقده، ويدير ظهره لمَن بكلمةٍ انتقصه، ويشهر السيف في وجه مَن يومًا خاصمه أو جفاه.. وكما قِيل: النسيان أحسن خادم للقلب.

(١٣) جنون

من حكمة الله في علْيائه، أن جعل النار دركات يَسفُل بعضُها بعضا، وكلما دنَت من القاع زاد حرّها واشتدّ أوارها، وما ذلك التقسيم الفريد العادل إلّا لأنّ بعض الشرّ أهْون من بعض، وبعض الظلم أهْول من بعض؛ فسرقة عشرة جنيهات من خزينة ثريّ مترَعة بأصفر الذهب وأخضر الدولار، ليست كسرقة مثيلاتها من فقير هي تحويشة عمره وكامل ثروته. وصفعةٌ علىٰ قفا شيخ هرِم ينهج في الظلّ، ليست كأختها علىٰ قفا لعريض المنكبين مفتول الذراعين لا يكاد يحسّ وقعًا لهكذا ضربة. ولسانٌ بذئ في حقّ امرئ رقيق المشاعر مرهف الحسّ، ليس كمثله في حقّ امرئ جَلْمَد ردئ التوصيل للمشاعر والأحاسيس.

وفي هذا، أذكر خادمة أوغنديّة عضّها الفقر والبؤس في بلد يلقّبونها بلؤلؤة إفريقيا! فغادرَت أطفالها، وخلّفَت وراءها زوجا وأبا وأمّا، ونزحَت للعمل في إحدىٰ الدول الخليجيّة، إذْ كثيرا ما يدوس المرء علىٰ

قلبه قربانًا لبعض دراهم يقيم بها صلْبه ويداوي عوَزه. وقد ساعدها القدَر الرحيم بأن قيّض لها أسرة فاضلة أكرمَت وفادتها؛ فرعتْها كفرد من أفرادها، وحفظَت لها حقوقها المادية، بعدما وفّرت لها الطعام والسكن والملبس والعلاج والاتصال، وصار بإمكانها الحفاظ علىٰ الراتب كما هو دون خدْش. ومع كرّ الأيام وفرّها، ولفح الليالي ونفْحها، راحت تعدّ الشهر تلْو الشهر، وتضمّ الراتب إلىٰ الراتب، حتىٰ تجمّع لديها حصاد وفير يكفي لسداد الدَّين وشراء البيت وتأمين ضروريّات العيش، وقامت بتحويله إلىٰ أبيها في وطنها، استعدادًا للعودة ومن ثمّ الاحتفال بقطف الثمار وجنْي الحصاد.

وقد خشي الأب من كنْز ثروة كهذه في بيت متواضع لا يحجز بابُه كلبا ولا تردّ نافذتُه لصّا، فقرّر إيداعه في البنك حتىٰ تعود ابنته ويتدبّروا أمرهم. ومن فرط فرحته أو رهْبته، نسي البطاقة الشخصية اللازمة لإتمام عملية الإيداع؛ فأشار عليه الموظّف بترك المبلغ والعودة لإحضار البطاقة، وهو اقتراح صادف هواه ورآه سديدا من ناحية عدم المغامرة بحمل المبلغ مرّة ثانية في الذهاب والعودة وسط مجتمع أمْنه ألْين من ماء وأهشّ من زجاج. ولأنّ الزمن خارج حساب الفقراء، فقد وجد البنكَ مغلَقا لدىٰ عودته.

وفي اليوم التالي، بكّر بالذهاب إلىٰ الموظّف الأمين، وما إن ناوله البطاقة وساق له طرفا من حديثهما بالأمس؛ حتىٰ طالعه بوجه أجرد بارد،

وحدّق فيه بنظرة إبليسيّة، ثمّ أنكر المال بلسان أكْذب من سجاح! ورغم ثورة الأب العارمة، وقسَمه بالأيْمان المغلَّظة، وتوسُّلاته المغلّفة بعبَرات مخنوقة ودمعات سخينة؛ إلّا أنه لم يستطع إثبات حقّه واسترجاع ماله، إذ لا شاهِد يعضّد ولا كاميرا تسجّل ولا قانون يحمي المغفّلين من بطش ظلَمةٍ أمنوا العقاب فأساؤوا الأدب!

الطامة الكبرىٰ حدثَت حين هاتف الأبُ ابنتَه وسكب في أذنها الخبر علقما كصبّار؛ إذ نزل عليها نزول الصاعقة، وعصف بعقلها عصفا أوْدىٰ بها إلىٰ الجنون المُطبِق؛ فباتت تضحك وتقهقه تارة وتبكي وتنتحب تارة أخرىٰ، وانطلق لسانها يهذي بكلمات وأشخاص وأحداث لا رابط بينها، بل اندفعَت ترقص بدون طبْل وتعدو كمَن يهرب من وحْش، ثمّ صارت عدوانيّةً شرسة تحطّم ما حولها وتضرب بالجدار رأسها! ولولا أنّ مخدومها أحكم السيطرة علىٰ مداخل البيت ومخارجه، لانطلقت كالسهم إلىٰ الشارع حافية القدم منفوشة الشّعر لا تلوِي علىٰ شيء. وفي غضون الأيام التالية، نالت قسطا من العناية الطبيّة وبعضا من العقاقير المهدّئة، هيّأتها لركوب الطائرة والعودة إلىٰ الوطن دامية القلب ذاهلة العقل.

وهكذا تُثبت الأحداث أنه لا أَظلَمَ مِن سارقي الأحلام وذابحي الأمنيات والآمال؛ إذ ماذا بقي لشخص قضىٰ ليله ونهاره يصنع حلمه علىٰ

عينه، فأعدّ له الخطط والوسائل، وسعىٰ وكدّ في سبيل تجسيده علىٰ أرض الواقع، وما إن بات علىٰ أبوابه ومثُل بين يديه ومدّ يده ليصافحه؛ حتىٰ حالت بينهما يدُ ظالمٍ عاتٍ استغْفل قانون الأرض المليء بالثغرات، وسوّل له شيطانُه أنّ قانون السماء –حاشاه– ليس بنجْوة من الغفلة والنوم! ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود:١٨].

(١٤) صديقي موسىٰ

علىٰ مشارف خمسين طوت من عمري نصف قرن مضىٰ كأسرع قطار؛ منّ الله عليّ بطلاقٍ بائن للوظيفة وانقطاع تام للعمل بعيادتي الخاصة. وتأتي هذه المنّة من جهة اعتقادي بأنّ الوظيفة –أيّة وظيفة– رقٌّ يرتدي قفّازا من حرير، ونخاسةٌ لطيفة اقتضتْها مدنيّة ترىٰ أنّ استغلال الإنسان للإنسان إحدىٰ سمات التحضّر. ولا أبالغ إن قلتُ أنّ في الوظائف مِن السجن والأسْر والعبودية وجه شبه ليس ببعيد؛ فبموجبها يفقد المرء جزءًا غير قليل من حرّيته واستقلاليّته، حين يأْتمر بأمر غيره، ويرهن شطرا كبيرا من وقته لخطط ليس له كبير يد في إدارتها، ويقترب من العقار في تعرُّضه للبيع والكِراء، ويصبح بمقتضاها ترسا في آلة ليس عليه سوىٰ الإذعان بالدوران شاء أم أبىٰ، والويل لمَن أبىٰ.

والواقع أنه لا أقسىٰ علىٰ البشر من حُكم البشر، لا سيّما الصنف الوضيع الذي تيبّس فؤادُه وما رُزئت أُمّه بمثله؛ فاستغلّ سلطة خُوّلت إليه

في غفلة من الزمن، وقبض بها علىٰ الرّقاب، ثمّ قاء ما في جوفه مِن عقد نقص امتلأ بها إلىٰ الحافّة، ولم يجد بأسا في الإجهاز علىٰ جريح والهجوم علىٰ أعزل واستضعاف ذا الحاجة المسكين!

وعلىٰ مدار سنوات، استقدمْتُ للعمل في العيادة أكثر من عامل نظافة، يتلو بعضهم بعضا كالأيام والليالي، منهم مَن انقطع لعمله فأقام بموجبه داخل العيادة، ومنهم مَن يعمل جزئيا لساعات محدّدة ثمّ ينصرف. وكنت علىٰ الرأي السائد بأنّ هذه المهنة مهنة مَن لا مهنة له، إذ لا تعدو دلو ماء يُراق وخرقة قماش تجفِّف وبعض مطهّرات ذات ألوان. ولهذا لم أمانع في أن يكون أوّلهم مزارعا يبذر ويحصد، ثمّ هجرتْه الأرض فبات عاملا للنظافة. ولم أجد غضاضة في كوْن الثاني ممّن يصلحون إطارات السيارات ولحقَت به العطالة فكان عامل نظافة.. وهكذا سارت القافلة شهورا وأعواما.

حتىٰ جاء ثالثهم، شاب بنغالي سمْح دون الثلاثين بقليل، تمرّس لسنين طوال في العمل بشركة نظافة تقوم علىٰ خدمة المستشفيات والمدارس والوزارات والشركات عبر مناقصات سنويّة، وأثبت بما لا يدع مجالا للشكّ أنّ مهنته ذات قواعد وأصول لا ينهض بها إلّا خبير؛ فاجتهد في خلق بيئة عمل مثالية تروق له، عبر توفير أدوات لم يَسمع بها سلفه المزارع أو مصلح الإطارات، ثمّ تخصيص مكان منفصل يصونها

ويسهّل الوصول إليها، قبل أن يشرع في ممارسة مهامّه بحرفيّة وأريحيّة يُغبَط عليها، وبلمسة جماليّة تضيف إلىٰ النظافة بعدا ثانيا وثالثا. ومِن حين إلىٰ حين، كان يحلو لي مراقبته وهو يعمل بنظام وإخلاص وشغف، يُخيّل إليّ فيه أنه فنان يعزف لا عامل ينظّف، وكان بذلك أيقونة بارزة علىٰ مقولة: الرجل المناسب في المكان المناسب.

وبالإضافة إلىٰ إتقانه لعمله، كان من ذوي الصلاح، إلىٰ حدّ التطرّف في بعض الجوانب؛ فكنت مثلا أصلّي وأدع السجّادة مبسوطة علىٰ حالها لصلاة تالية، وترتاح نفسي لتركها مفروشة علىٰ الدوام، فيأبىٰ ذلك صديقي موسىٰ، وسريعًا يطويها ويرفعها مِن علىٰ الأرض؛ اعتقادًا منه بحرمة ذلك أو كراهته، وعلىٰ زعم أنّ الشيطان سيحتلّها ويعبث بقدسيّتها، وهو زعم غير صحيح بالمرّة، ويقع تحت بند جهل العوامّ وتخليطهم وتواليفهم!

وكنت أفتح مصحفي لأطلّ عليه بين الفينة والفينة، ثمّ ألتمسه ثانية فأجده مغلقا! وكان هو مَن يرهقني بفعل ذلك، رغم أنه لا حرج في تركه مفتوحا ولا يوجد في الشّرع الحنيف ما يمنعه ويجرّمه! وأضع المصحف معزَّزًا مكرَّمًا علىٰ الكرسي المجاور لمقعد القيادة في السيارة، ثمّ أفتقده وأفتّش عنه، لأجد السيّد موسىٰ قد ضجر من مكانه المنخفض، ورفعه إلىٰ أعلىٰ مكان في السيارة أمام السائق! وبالطبع لم أكن لأعنّفه علىٰ أيّ

من تصرّفاته هذه، لعلمي أن وراءها نيّة بيضاء وقلبا أخضر، وباعثها غيْرة وحماسة محمودة للدِّين، وإن كان ينقصها علمٌ يضبط وفقهٌ يهذّب..

رحمة الله عليك يا موسىٰ، لقد أتعبْت مَن بعدك، واشتقْنا لقربك، بعدما تركت في نفسي أثرا يصعب محوه، تماما كأثر جدّي الرابع موسىٰ الذي طواه الزمن البعيد ولا أدري عنه سوىٰ اسمه.

(١٥) كورونا الخوف

بعدما ظنّ العالَم أنه بمأمن من أمراض مُعْدية أذاقتْه الويلات ألوانا، كالكوليرا والطاعون والدّرن، وبات مشغولا بما يُعرف بأمراض الحداثة كارتفاع ضغط الدم والسكّري والسرطان والأزمات القلبية والسكتات الدماغية؛ إذْ بجائحة تُغافله مغافلة الموت للبشَر، وتعصف به عصْف الخريف بالشجر؛ فانطلقَت كالمارد من قمقم صغير في الصين يُسمّىٰ (ووهان)، ثمّ انتشرَت كالنار في الهشيم، وفتكَت بجهات العالَم الأربع وقاراته الستّ ودوله المائة والخمسة والتسعين، مخلِّفةً في ذيلها كوارث ما زالت الإحصاءات تلهث وراء حصرها.

والكوارث هنا لم تقتصر علىٰ أعداد مليونيّة من المرضىٰ والموتىٰ، بل شملت اقتصادا خسر التريليونات بعدما تباطأت عجلتُه وأفلسَت كثيرٌ من قطاعاته، وتضمّنَت علاقاتٍ اجتماعية قاست التباعد القسْري إلىٰ درجة أضْحىٰ عندها عناق الأبناء وتقبيلهم كبيرة، وباتت المكاوَعة أي

المصافحة بالكوع وأحيانا بالقدم أو قبضة اليد، بديلا عن المصافَحة التقليدية في حقّ الزملاء والأصدقاء والأقرباء، ولا أدرىٰ كيف يتصرّف الأزواج! علاوة علىٰ أمْزجةٍ تراجَع منسوب السيروتونين لديها إلىٰ مستويات دنيا، بفعل حظْر صارم سجَن ما يقرب من مليارَي نسمة بين جدران صلدة وسقوف إسمنتيّة فظّة، تارة بصفة جزئية وتارة بصورة كلّيّة.

أمّا ثالثة الأثافي، فأرواح مضت تئنّ كالمحتضَر وتتلوّىٰ كالجائع؛ بعدما غُلّقت في وجهها أبواب المسجد، جمعة وجماعات، وصار ارتياده جريمة تستحقّ المساءلة القانونية والغرامة الماليّة!

علىٰ أنّ ذؤابة هذه الكارثة، كانت حالة رعب وهلع عارم نجحت الآلة الإعلامية الجهنّمية في بثّها بين جوانح الناس كافّة، حتىٰ صارت الأرض تتكلّم كورونا والسماء تمطر كورونا والهواتف تثرثر كورونا، وبدت وجوه الناس باسرة تظنّ أن يُفعل بها فاقرة، ويكأنّ الشمس طلعت من مغربها ونفخ إسرافيلُ نفختَه الثانية! وكما أنّ انتظار العذاب أشدّ وطأة من العذاب ذاته، فإنّ الخوف من الإصابة أصبح أنكىٰ وقْعا وأكبر أثرا من إصابة لم تتخطّىٰ أعراضُها عند جلّ المصابين بها بعضَ حمّىٰ وسعال وألم في الحلق، وربّما شيئا من الفقدان المؤقّت لحاسّتَي الشمّ أو التذوّق.

وعلىٰ سبيل المثال، أذكر ذات صباح اصطفاف عمّال شركة للمقاولات أمام العيادة، وكأنهم في وقفة احتجاجية أمام وزارة القوىٰ

العاملة، بينما كبيرهم في وجلٍ يعلن أنّ لعنة كورونا قد حلّت بهم ليلا وطافت بهم كالكابوس في المنام. وبعد فحصهم في مكان منعزل من العيادة، تبيّن أنهم أصحّاء أشدّاء لا يشكون ضرّاء قطّ، اللهمّ إلّا اثنيْن منهم متوعّكَيْن بمرض لا صلة له بما يرتجفون منه ارتجاف سجناء جوانتانامو في زيّهم البرتقالي بين يدي زبانية النازيين الجدد من الأمريكان!

وفي عصر يوم ثان، تلعْثمَت الممرّضة الهنديّة الوحيدة بالعيادة، قبل أن تبوح بتوجّسها من الإصابة بكورونا، وتُبلغني اعتذارها عن الاستمرار في العمل بالعيادة؛ معلّلة ذلك بأنها مريضة بالرّبو ومناعتها علىٰ شفا جرف هار، وبالتالي هي عرْضة للمرض ومضاعفاته أكثر من غيرها. ثمْ تطرّقَت إلىٰ زوجها، فذكرَت أنه أمرها بالمكْث في البيت؛ حرصًا عليها وعلىٰ أطفالها المعرّضين من جهتها لخطر العدوىٰ! وهكذا أَغلقَت العيادةُ بابها لنحو شهر؛ إذ لم يكن مِن سبيلٍ لإجبارها علىٰ العمل، أو إقناعها بأنّ هروبها في تلك الساعة الطبيّة العصيبة أشبه بهروب الجندي من ميدان احتدمَت فيه المعركة والتمعَت السيوف وأذّن مؤذّن الجهاد!

وفي صبيحة يوم ثالث؛ توجّعَت الممرّضة نفسها من آلام بالرأس والمفاصل مع ارتفاع طفيف بدرجة الحرارة، وتَشكّكَت من إصابة ألمّت بها علىٰ حين غفلة، رغم إجراءات احترازية تبالغ في اتّباعها، حتىٰ لتكاد تستحم بالمعقِّم المعتمَد والذي لا تقلّ نسبة الكحول به عن ٧٠٪. وبهذا

تحتَّم إرسالها لإجراء الفحص، ثمّ التحسُّب والحيْطة بإغلاق العيادة انتظارا لنتيجة تستغرق أربعة أو خمسة أيام. وقد جاءت النتيجة سلبيّة من ناحية المرض، وإيجابية جدًّا من منظور خوفٍ عشّش في النفوس وصار قاسما مشتركا بين الكبير والصغير والغنيّ والفقير والمتعلّم والأمّي، حتىٰ إنّ بعضهم أصبح يفضّل تحمُّل وعثاء مرضٍ ما، علىٰ الذهاب إلىٰ عيادةٍ أو مستشفىٰ أضْحت في نظرهم مصدرا للوباء، وبعضهم جعل من الهاتف وسيلته للشكوىٰ وسبيله إلىٰ العلاج عن بُعد. أمّا الشّجاع منهم فيقصد العيادة ولكن يبقىٰ في السيارة ويطلب العلاج داخلها، أو يدلف إلىٰ العيادة ولكن يفتح الباب بكوعه ويظلّ واقفا كجندي الحراسة منعا للجلوس وملامسة الكرسي والتقاط العدوىٰ حسب اعتقاده! أكثر من ذلك، بعض مَن أُصيبوا بالفعل وتعافوا نهائيا، لا زالوا محطّ ريبة، ويجتنبُهم النّاس كالأجْرب والمجذوم، مع أنّ الثابت في حقّهم مناعةٌ اختُلف في مدّتها، وبالتالي صفحتهم بيضاء وبرّهم أَأْمن من الأصحّاء.

وقد استثمرَت بعض القوىٰ حالة الرعب هذه، فلعبَت علىٰ وترها وحقّقت من ورائها خلطة مشبوهة من المكاسب الاقتصادية والسياسيّة والتّجاريّة؛ فتبادلَت أمريكا والصين الاتهامات بافتعال الفيروس والمرض، في صراع خفيّ علىٰ زعامة العالم انبرىٰ يكشّر عن أنيابه ويلوح في العلَن. وأَثْرت شركات الأدوية العملاقة المُنتِجة للفيتامينات ومقويّات

المناعة، والمصنِّعة لمضادّات الفيروسات واللقاحات. وانتعشَت أسواق المستحضَرات الطبيّة الخاصّة بأقنعةٍ وقفّازاتٍ ومطهّراتٍ باتت طقسا حياتيا لسكّان العالم الملثَّم. إضافة إلىٰ رابحين آخرين لا زالوا في الطيّ، وتتكفّل الأيّام القادمة بكشف أستارهم وفضح مخطّطاتهم.

ومن تصاريف القدر، أنّ كلمة (كورونا) التي باتت ممقوتة اليوم اسما ورسما وموضوعا؛ كانت قبل مائة عام مصدرا للسعادة وعنوانا للّذة، إذ كانت ماركة مسجَّلة لأوّل شيكولاتة عرفها الشرق الأوسط في مصنع رويال للحلويات بمدينة الإسكندرية.. وسبحان مغيّر الأحوال!

(١٦) الأستاذ

بعدما جارت عليها عوامل التعرية من حرّ وقرّ وعرق وغبار، فقدَت ساعةُ يدي بريقها الذهبي الأخّاذ، وصارت كلوح خشبي نخره السّوس أو وجه مليح رقّشه الجدري. ولأنها جدّ عزيزة علىٰ قلبي، باعتبارها هديّة من والدي رحمة الله عليه وبركاته؛ فقد تحتّم البحث عن ساعاتي حاذق يعيد إليها بهاءها ورونقها، وهو ما لم يكن سهلا في مدينة ساحليّة نائية شاءت الأقدار أن أعمل بها لبضعة شهور.

وذات عصر، وفي طريقي إلىٰ العيادة، لاح محلّ صغير يسند ظهره إلىٰ شاطئ البحر، وتُزيّن واجهتَه لافتةٌ أنيقة تعجّ بصور أشهر ماركات الساعات، فهتفْتُ قائلا: ها هنا المُبتغَىٰ.

وبينما استويتُ قبالته، وشرع يُصلح في الساعة ما فسَد من قشرتها؛ رحْنا نتجاذب أطراف الحديث عبر كوّة مستديرة في لوح زجاجي سميك يفصل بيننا، علىٰ طريقة البنوك وشركات الصرافة، ومنه وقفْت علىٰ قصّة

ملهِمة، لولا أنّي سمعتُها بشحمة أذني وطالعتُ بطلَها بسواد عيني لقلْتُ أنها فيلم من بنات خيالات الكتّاب الحالمة وتصوّرات المخرجين الجامحة. إذ روىٰ الساعاتيّ الذي يقف علىٰ أعتاب الكهولة، وبنبرة هادئة نضيدة كمَن يقرأ في كتاب؛ أنه كان في دراسته الثانوية من المتفوّقين النوابغ، وبدلا من الانقياد لحلم والديْه وتوقّعات معلِّميه في الالتحاق بكليّةٍ للطبّ يسيل لها اللعاب، اختار دراسة اللغة الفرنسية التي شغف بها حدّ التولُّه، ليصبح معلّما لها، غير عابئ بمَن وصفه بمجنون فضّل الخيار علىٰ الكافيار!

وإمعانًا في الجنون المزعوم؛ نأىٰ بنفسه عن الوظيفة الحكومية التي تغذّي في صاحبها الشعور بالأمان من العوز، وأعدّ مركزا خاصا للتدريس، زوّده بآلات عرض حديثة ومطبوعات احترافيّة وإدارة واعية ذكيّة؛ فذاع صيته في مادّته وأصبح ملكا متوَّجا علىٰ عرشها، حتىٰ تقاطر عليه الطلّاب كالجراد، بحسبانه أيقونةَ مَن يروم النجاح من الطلّاب، وسبيل الباحثين عن التفوّق لأولادهم وفلذة أكبادهم من أولياء الأمور، وهو ما أثار حنق الحانقين وحسد الحاسدين، بحسبان كلّ ذي نعمة محسود.

ولِشهرته هذه؛ قصده جزّار المنطقة الثريّ الوجيه، وطلب إليه إقالة عثرة ابنه اللّغوية، وانتشاله من رسوب متكرّر نغّص عليه عيْشَه ونكّس بين الناس رأسَه، علىٰ أن يُفرد له حصّة خاصة، وفي مقابل ذلك يجزل له

العطاء ويقرّر هو بنفسه ما يطلب من مال، إذ لا ثروة أنفس من ولد موفَّق، ولا تركة أبقىٰ من نجل صالح.

وبعدما أدّىٰ الأستاذ مهمّته في التدريس خير قيام، تحقّق الرسوب أيضا، إذ ماذا تفعل الماشطة في رأسٍ صلعاء؟! وبهذه الذريعة، امتنع الجزّار عن دفع ما اتّفقا عليه! وفي يوم مشئوم، التقيا علىٰ غير موعد، وتلاسَنا علىٰ طريقة خُذ وهات، هذا يثبت حقّه غير المشروط بالنتائج، وذاك يجزم بفشل المعلّم لا الطالب! وفي غمرة انتفاخ الأوداج واحمرار العيون وتطايُر شرر الكلمات، ثمّ تحفيز إبليس وأعوانه؛ فوجئ الأستاذ بسقوط الجزّار علىٰ الأرض صريعا بلا حراك، فبُهت من هول الموقف وولّىٰ ذاهلا كمركب بلا شراع وسط بحر لجّيّ! وما هي إلّا أيام حتىٰ صار رهن الاعتقال بتهمة قتلٍ أَحكم صياغتها المحامون ودبّجوا لها ما يلزم من شهود. وقد ساندهم في زعمهم، ملابساتُ الواقعة، وطبيعةُ البشر التي تنحاز للضحيّة مع أوّل وهلة وتصطف إلىٰ جوار الضعيف دون رويّة.

وفي أروقة المحاكم بدأت المداولات وطال الحبس وكثر اللغط، كما تناثرت الشائعات المثيرة حول أستاذ دفعه جشعُه لمصّ دماء الطلّاب وقتل أولياء الأمور وتخريب سُمْعة المعلّمين! ورغم ما ثبت لاحقا بأنّ الغضب هو مَن قتل الرجل الستّينيّ الشحيم، بعدما احتدّ طبعُه وغلت

الدماء في عروقه وحلّت به سكْتة قلبية؛ إلّا أنّ ذلك لم يغيّر من الأمر شيئا، علىٰ غرار المثل العربي: عنزة ولو طارت! فبات الأستاذ منبوذا، تطارده النظرات والجدران والأبواب بتهمة القتل أينما حلّ! وكأنّ الغفران قد تبخّر من النفوس، وحلت محله روح التشفّي والحقد الدفين.

وهكذا سُدّت في وجهه المنافذ وضاقت أمام ناظريه السُّبل، وأصبح خياره الوحيد هو ما اقترحه عليه قريبُه باللحاق به في إحدىٰ الدول الأوروبية، ولو لوقت يسير يمحو الزمن فيه ما علق بأذهان النّاس من ترّهات، ثمّ يعود إلىٰ سيرته الأولىٰ كاللبن الصافي. فمكث هناك ما تيسّر له، وأتقن فنّ إصلاح الساعات، ثمّ آب مستبشِرا بنسيان القوم وإصلاح ذات البيْن ومواصلة مشوار التدريس، وهو ما لم تؤيّده ذاكرةٌ تحجّرَت وتهمةٌ في الأعماق ترسّخَت! فاضطُر آسفا إلىٰ حزم حقائبه مرّة ثانية، ولكن هذه المرّة إلىٰ تلك المدينة القَصيّة التي يجهله فيها الحجر والشجر والبشر، مستأنفا مشواره في الحياة تحت عنوان الساعاتي لا الأستاذ! ولله في ذلك حِكَم وأحكام..وهكذا غادرتُه وأنا علىٰ ثقة بأنه عبر هذا البوح قد ألقىٰ مِن فوق كتفيْه بضعة أطنان، ولولا الزجاج الفاصل بيني وبينه، لطوّقتُه بذراعي وضممتُه إلىٰ صدري وقبّلتُ جبينه، قبل أن أمدّ إليه كفّي بمصافحة حارّة.

(١٧) دَوْرِي ؟!

من وحي التجربة، اسمحوا لي بالقول: البشَر صناديق بالأقفال مغلقة وخزائن بالأسرار عامرة، لا يمكن الجزم بما فيها إلّا إذا انداحت أبوابُها وبانت أحشاؤها، أمّا ما نراه طافيا طافحا علىٰ السطح، فليس سوىٰ قشرة كالغلالة ورغوة كالزَّبَد، قد تُوافق ما وراءها حدّ التطابق، وقد تُخالفه حدّ التضادّ، وكما قيل: ليس كلّ ما يلمع ذهبا ولا ما يبرق رعدا. ومِن هنا وجب التروِّي في إطلاق الأحكام دون اطّلاع، وحتىٰ بعض الاطّلاع، يَلزم ترْك مسافة بيننا وبين الجزْم والتأكيد؛ فلكلّ امرئ خباياه العميقة التي يحتفظ بها لنفسه، ويُحرّم عليها التبرّج والسفور أمام أعين الأباعد وعقول الغرباء.

ومناسبة ذلك، أني عملْتُ مع ممرّضة هندية تقاتل في الحياة بشراسة النمرة، وتبدو الآمرة الناهية في محيطها الأسري، لا سيّما فيما يتعلّق بولد وبنت ، هما كلّ ما لديها من ذرّية علىٰ عادة الهنود في شحّ الإنجاب،

ولسان حالهم يقول: يكفينا مليار ونيّف يكاد يملأ الأفق و يسدّ عين الشمس..ويا له من وعيد، هذا الذي أطلقتْه أنديرا غاندي ذات يوم، وهدّدت فيه الرجال بالخصي إذا لم ينصاعوا لتحديد النسل! جبّارة يا أنديرا!

وقد لاحظْتُ أنّ طفلتَها الضئيلة البنْية، المزركشةَ الثياب، والمخضَّبةَ اليديْن والقدميْن؛ مُثقلةٌ بالذهب يدًا ورِجلًا وجِيدًا وأذنًا وخصرا، وكأنها محلّ مجوهرات متنقّل! وما مِن شهر يمرّ إلّا وشدّت أُمّها الرحال إلىٰ محلّات الذهب لشراء المزيد! وفي ثنايا حديث عارض، علمتُ أنّ في حوزة الأمّ (المسكينة) نحو كيلوجرام من الذهب! نعم، ألف جرام كاملة لا يملكها أَثْرىٰ الأثرياء في مصر. ولكن: مَهْ، لا تَعْجَل، فللحديث بقيّة وفي الجراب ثمّة هديّة؟

ضمن نظام عتيق موروث يُعرف باسم (دَوْرِي)، تقضي تقاليد الزواج في الهند بأن تدفع المرأةُ المَهر؛ فتلبّي مطالب العريس من روبيّات تتفاوت أعدادها، ومال متحرِّك علىٰ هيئة ماشية أو درّاجة أو سيّارة ونحو ذلك. ثمّ تغدق علىٰ أهل الزوج بما يكفيهم من هدايا نقديّة وعينية، علاوة علىٰ تكفُّلها بكافّة نفقات حفل العرس. وبين طيّات هذا المهر القسري، لابدّ من كومة ذهب أدناها نصف كيلوجرام، وأوسطها نحو الكيلوجرام، ولا حدّ لأقصاها، وإلّا فالعنوسة هي الحلّ، وما أدراك ما العنوسة؟!

وبهذا صارت الأنثىٰ الهنديّة عبئا ثقيلا علىٰ أبويْها، وبات تدبير مهرها همًّا بالليل وذلًّا بالنّهار، بدءا من لحظة إنجابها وحتىٰ بلوغها عتبة الزواج. خاصة أنّ مكانة البنت وسعادتها بعد الزواج تتحدّد بناء علىٰ قيمة ذلك المهر الذي يجلب لها الاحترام والمعاملة اللائقة إن ملأ عينَ العريس وأهلَه، بينما يُحقِّر شأنها ويُزري بمنزلتها إن كان دون المأمول والمطلوب. ولا مانع من الاعتداء عليها وإلحاق الأذىٰ بها، ثمّ إعادتها مهزومة مقهورة إلىٰ أهلها، إذا ماطلوا ولم يوفّوا بدفع ما تبقّىٰ من المهر الذي بالإمكان تقسيطه وتأخير بعضه إلىٰ أمد محدَّد تُسفر عنه مفاوضات ومساومات شاقّة قبل الزواج. بل إنّ بعض هذه الاعتداءات، قد أَفْضت حرفيًّا إلىٰ قتل بعض الزوجات وحرْقهنّ، ضمن سجلّات حافلة بجرائم بشعة لا زالت تطحنها رحىٰ المحاكم وأقبية السجون.

وبهذا التفنيد، كانت الممرّضة حارس قصر لا يملك منه ملعقة، وأمين خزانة ليس له من ملايينها سوىٰ النظر واللمس وعضّ البنان. وكم من ضائقة مالية اجتاحتْها وبَلْبلتها، ولكنها لم تجرؤ علىٰ بيع شيء من هذا الذهب المكدّس بيْن يديها، وأقصىٰ ما كانت تحتال له، هو رهْنه لدىٰ البنك، والحصول علىٰ قرض ربوي بضمانه، ثمّ استعادته بعد السّداد. ولا أخفيكم سرًّا أنني دار بخلدي إغراءها بإحضار هذا الذهب في إحدىٰ المرّات، والتقاط صورة لي إلىٰ جواره؛ فكم من صورة في هذا العالَم

الافتراضي زَيّفت علىٰ الحمقىٰ واقعا، وصنعَت من الصعلوك ملِكا، وما بالك إذا كانت الصورة بجوار تلّ من هذا الأصفر اللامع الذي خلعت عليه الأساطير القديمة قدسية خاصة وسط المعادن، بعدما ادّعت أن لونه الذهبي وبريقه الخلّاب مستمَدّ من الشمس، بل هو سائل الشمس المضيء، ثمّ عدّوه مصدرا للحبّ والخصب والنّماء!

ورغم أنّ القانون الهندي لا يجيز، بل يجرّم، مثل هذا الأعراف. ومع أنّ الهنود ناقمون علىٰ هكذا تقليد يجافي المنطق، ويصفونه بالشرّ الاجتماعي.. إلّا إنهم ماضون قُدما في تنفيذه علىٰ أوسع نطاق، في دلالة واضحة علىٰ أنّ التقاليد الراسخة في عقل المجتمع وقلبه، أقوىٰ بآلاف المرّات من حبر القوانين وحرارة الرغبات..

وأختم هنا بعجيبة أخرىٰ من بلد العجائب والغرائب، إذ أخبرني صيدلاني هندي هندوسي عمل معي لسنوات، أنه متزوّج من ابنة أخته، ضمن عادة جنوبيّة تقوم علىٰ مبدأ وجوب احتفاظ الفتاة بلقب عائلتها الذي وُلدت به، وسبيلها في ذلك، الزواج من ألصق أقربائها، عمًّا كان أو خالا!

(١٨) حوار مع زميلي الملحد

ضمن رحلة الحياة الوعرة؛ تطأ أقدامُنا أماكن لا ننساها، وتمرّ عقاربُ ساعاتنا بأزمان يصعب شطْبها وطمْر أثرها. كما نقابل ونصافح أشخاصا، فيراودنا طيفهم بين الفينة والأخرىٰ، حتىٰ وإن فرّقتْنا الأيام وانقطع بيننا حبل الوصال.. ومِن هؤلاء الأشخاص، طبيب هندي جاوز السبعين، عملتُ معه لبضع سنوات في إحدىٰ دول الخليج، وجرىٰ بيننا سجال فكري وجودي يغلّفه التقدير والاحترام.

عمل هذا الطبيب لعشر سنوات في إيران الشّاه، وما أدراك ما الشّاه؟! فكم من مرّة انتدبَتْه عناصر جهاز السافاك ضمن حملات تصفية جسدية أشبه برحلات الصيد والقنص، وكانت مهمّته هي التأكّد من مقتل المتمرّدين علىٰ النظام بعد أن تنقضّ عليهم عساكر الموت بالرصاص الحيّ! ومع اندلاع ثورة الخميني عام ١٩٧٩م، غادر إيران مُضطرا إلىٰ الضفّة الأخرىٰ من الخليج العربي، واستقرّ لخمسة وثلاثين عاما في

إحدىٰ دول الخليج الساحليّة، أَثْرىٰ خلالها وأصاب مَلاءة؛ فعاش عيشة المهراجا، وارتحل سائحا إلىٰ دول العالم شرقا وغربا، وأتاح لولديْه تعليما عاليا مميَّزا في الطبّ والهندسة، واللهمّ لا حسد. ومع أنّ الشّاه والسافاك كانا صنيعة أمريكا؛ فقد مثَّلَت فترة عمله داخل إيران نقطة سوداء في جواز سفره، وحالت بينه وبين إلحاق ابنه بإحدىٰ الجامعات الأمريكية علىٰ مدار عام كامل، خاصة بعدما صنّفت أمريكا إيران الخميني بأنها منْبت الشرّ وبيت الشيطان.

ورغم أنه ينحدر من عائلة هندوسية وكذلك زوجته وأولاده، إلّا أنه – كما باح لي – ظلّ غير معنيّ بالدّين، بعدما ارتأىٰ الحياة حلقة مغلَقة لا قَبل لها ولا بعْد، وفصلا منتهيا من تراب نبت وإلىٰ تراب يؤول. وبهذا يمكن تصنيفه لا أدريًّا يرقص علىٰ السلّم ويعجز حتىٰ عن تفسير الماء بالماء، أو ملحدا قفز علىٰ الفطرة وأدار ظهره للإله الخالق المدبِّر بالكُليّة، وكلاهما في الضلال سواء، علىٰ اعتبار أنّ الفرق بينهما في الدرجة لا في النوع. وهذا ما طواه في قرارة نفسه ولم يصرّح به، تاركًا لزوجته وأولاده الحرية في اعتناق ما يرون.

هذا لا يعني أنه كان إباحيّا عربيدا منفلتا، بل كان والحقّ يُقال منضبطا إلىٰ حدّ كبير في سلوكه وتعاملاته، علىٰ الأقلّ في السنوات التي لزمْته فيها وألْفيته قد بلغ من الكِبر عتيّا، حتىٰ صارت رأسه أملس من البطّيخة

وأجرد من كفّ اليد، بينما ظلّت صحّته العامة جيّدة؛ ربّما بسبب مواظبته علىٰ رياضة المشي يوميا، وطعامه الصحّي المتّزن، وإعراضه التامّ عن ضجيج العالَم الإلكتروني، وعمله الخاص الخالي من رقّ الوظيفة، لا سيّما بعد إصابته بمرض السكّري وخضوعه لعمليّة قلب مفتوح. وأشهد أنه دأب علىٰ التبرّع بمبلغ سنوي إلىٰ إحدىٰ مستشفيات العيون في الهند، نظير قيامها بإجراء عمليات جراحية مجانية للمرضىٰ الفقراء في مسقط رأسه. بما يعني وجود ملاحدة علىٰ خلق، رغم كوْن الإلحاد لا أخلاقيّا بالمرّة.

وعلاوة علىٰ لغة هندية وُلد ونشأ وشبّ عليها، ولغة إنجليزية درس بها وأجادها؛ فقد ألمّ بالفارسية إبّان عشْريّة قضاها في إيران، وبالعربية علىٰ خلفيّة خمس وثلاثين سنة قضاها في جزيرة العرب. وهذا ما مكّنني من إجراء حوار مطوّل معه حول معتقده الذي اتكأ علىٰ أسئلة الشرّ كما سمّاها الفلاسفة قديما، وتوالت عليها ردود شافية تُحيلنا إلىٰ محدودية العقل البشري في إدراك المآلات، وحكمة الأقدار التي قد تضرّ لتنفع وتمنع لتعطي وتخفض لترفع، وإلىٰ كوْن الدنيا دار تَدافُع وابتلاء لا محطّة قرار وانتهاء، وإلىٰ اختيارات الإنسان الذي ينتصر للخير تارة فيذيعه أو يجور عليه تارة أخرىٰ فيتيح للشرّ الولوج والبروز، بمعنىٰ أنّ الشرّ ليس في فعل الله بل في مفعولاته، أي: مخلوقاته.

فكان يسأل: إذا كان الله غنيّا فلِم لا يسدّ حاجة المعدَمين من الفقراء والمساكين؟ وإذا كان قادرا فلِم لا يقتصّ من متجبّرين يفتكون بأبنائه الضعفاء؟ وإذا كان رحيما لماذا خلق مرضا يكدّر الصفو وألما يقضّ المضجع؟ وإذا كان عادلا لماذا ميّز بين البشر فجعل منهم الأمير والغفير والوجيه والوضيع؟ وهكذا راح يزايد علىٰ رحمة الله بعياله وبقيّة مخلوقاته، ويبالغ في تعداد الشرور مارًّا بالزلازل والبراكين والفيضانات والحرائق والحروب وما شابه، متناسيا أنّ الشرّ قديم قِدَم البشريّة، والخير هو قاعدة الوجود، وما الشرّ إلّا استثناء يشذّ ليؤكّد هذه القاعدة. وغافلا عن أنّ الشرّ ليس سوىٰ سواد لوحة بديعة يؤطّرها ويبرز بهاء ألوانها. ولعلّه لم يسمع بقول القائل أن الشرّ ليس له وجود، بل هو خير ولكن في حدّه الأدنىٰ، علىٰ اعتبار أنّ الخير هو خير أعلىٰ.

وقد تَبيّن لي أنّ لديه خللا في رؤية الحياة الدنيا ومفهومها؛ فهو يريد خيرها دائم وشرّها منبتّ، ويرومها عدلا مطلقا وظلما معدوما، وهذا هدْم لحكمة الخلق والامتحان والآخرة والحساب والجنّة والنار، ومتساوِق مع اعتقاده الذي يقف به عند الموت كنقطة في نهاية سطر لا ثاني له!

والحقّ أنه كان منفتِحا لسماع الردود بل ومنصِتا لها، حتىٰ أنه تقبّل بامتنان هديّتي من النسخة الإنجليزية المترجَمة لمعاني القرآن، والتي رجوْتُه أن يقرأها بقلبه، وذكّرْتُه بأنه قارب علىٰ مغادرة المسرح وإسدال

الستار، وعليه أن يراجع معتقده قبل إغضاء الجفن علىٰ الجفن، وذلك ضمن حفل أُقيم علىٰ شرف وداعه، بعدما اكتفىٰ واختار الخلود إلىٰ الراحة بعد نصَب والهدوء بعد صخَب.

وبالنظر إلىٰ ما أُشيع عن إسلامه؛ فإنّني علىٰ قناعة بأنّ تغيير المعتقَد في سنّ متأخّرة كهذه من الصعوبة بمكان، بعدما تحوّل المعتقَد من مجرّد خواطر عارضة إلىٰ قناعات راسخة بعضها فوق بعض طبقات، وبعدما افتقر إلىٰ قلق وجودي يثير الشكّ ويحثّ علىٰ التفكير والبحث عن شاطئ اليقين، ولم يعُد يجديه نفعا سوىٰ هزّات عنيفة يتخوّل بها الرحمن مَن شاء له الهداية وكتب في حقّه الرّشاد، فالهداية بنت الله قبل أن تكون بنتًا للعقل والقلب.

(١٩) جَبْرُ الخواطر[١]

أَفقرُ الفقْر ما جاء بعد غِنىً، وأَذلُّ الذلّ ما حلّ عقب عِزّ؛ إذ تجتمع علىٰ هذا الغنيّ مصيبة ذهاب الغِنىٰ ونكبة حلول الفقر، وتتكالب علىٰ ذاك العزيز فجيعة أفول شمس العزّ ونازلة هبوب ريح الذلّ، فكانا كمرتحِلٍ من القصْر إلىٰ الأَسْر، أو مِن الدار إلىٰ النار وبالله العياذ! ولهذا كانت الرحمة بعزيزٍ ذَلّ وغنيٍّ افتقر؛ مِن شيم النبلاء، وخصال أصحاب المروءات، ووصيّة خير مَن عرفَت البَرِيّات.

ومِن هؤلاء القوم -وهم بالمناسبة أخفياء يحتجبون عن الأنظار- زارتْني في العيادة خادمة تشادية، رشيقة القوام كسيْف، وسمراء البشرة كليْل، بعدما نزحَت من شمال تقطنه أغلبيّة عربية مسلمة، وتهيمن عليه تضاريس صحراوية قاحلة. ومن خلال سَمْتها وإيماءاتها وطريقة عرضها لشكايتها، شعرْت أنها ابنة عزّ وسليلة حسَب وكريمة نسَب، ولولا أنّ

(١) نُشرت بالعدد ٦٦٩ من مجلة الوعي الإسلامي الصادر في يناير ٢٠٢١م

مخدومها الذي صحبها أخبرني سلفا أنها خادمته، لاعتقدتُها زوجته أو شقيقته، خاصّة أنها بدت متستّرة غير سافرة، وترتدي العباءة السوداء السابغة ككلّ نساء الخليج الفضْليات حال خروجهنّ من خدورهنّ، علاوة علىٰ لغة عربية طليقة تلفظها غرَضًا لا عرَضا وطبيعةً لا تكلُّفا، وذلك علىٰ طريقة العرب الأقحاح الماهرين بها، لا علىٰ طريقة الإخوة العجم الذين يمضغون الحرف قبل لفظه، فيأتي مهشَّما مشوَّها لا تدري له كنْهًا ولا تُحدّد له مخرَجا! وما لا يعلمه الكثيرون، ومنهم كفيلها، أن تشاد دولة عربية إسلامية، لسانها عربي ودينها الإسلام، وتنتظر بطاقة العضوية في جامعة الدول العربية منذ نحو سبعة أعوام، وإن كان النفوذ الفرنسي لازال يتغلغل في أحشائها سياسيا وعسكريا وثقافيا كأغلب دول الغرب الإفريقي.

وللتأكّد من شعوري، وإشباعًا لغريزة الفضول التي تلحّ عليها هواية الكتابة، استدعيتُ ما في جعبتي من أدوات الاستفهام اللائقة، وعلمتُ أنها الصغرىٰ لأسرة ثرية مات عائلها، فتولّىٰ الأخ الأكبر إدارة أموالها وتصريف ممتلكاتها، ولأنه كان منفلِتا مِتلافا، ولم ير بأسا من المقامرة في أموال يتامىٰ قصَّر؛ فقد تركهم لحما علىٰ وضَم بعدما تبدّدَت الثروة عن بكرة أبيها، بين تجارة خاسرة ومغامرات طائشة، وأصبح لسان حال الأُسرة: ألَا عِزًّا يُباع فنشتريه، فهذا عيْشٌ لا خير فيه!

وقد كانت أسوأ نتائج هذا التحوُّل الدرامي الذي طرأ علىٰ الأسرة، أنّ تلك الصغيرة لم تُكمل تعليمها المرجو والمأمول، وبار سوق زواجها وسط مجتمع بائس يحسب حساب الثراء في الزواج وغير الزواج، فوقعَت في حِجر زوج معدم بالكاد يعيل نفسه، وبات عليها السعي إلىٰ العمل كخادمة في هذه الدولة الخليجية لتطعم أطفالًا تركتْهم يصيحون علىٰ البُعد وسط لهيب القارة السمراء المحرومة.

هذا في الوقت الذي لا تجد التشاديين بوجه عام منتشرين في الخليج كبقية الجنسيات الأفريقية الناطقة بالعربية، حتىٰ أنها كانت الخادمة التشادية الأولىٰ التي أصادفها رغم مسيرتي الطويلة نسبيا في الغربة. ولعلّ في ضعف صلة الدولة التشادية بالعالم العربي دور، واكتشاف البترول بها عام ٢٠٠٣م والبدء بتصديره عام ٢٠٠٤م دوْر آخر.

والواقع أنّ المرارة كانت طافحة علىٰ محيّاها، ولولا أنّ مخدومها أسعفني بهذه المعلومات، لَما ارتكبتُ حماقة التنقيب عن قصّتها، ولآثرْتُ الجهل علىٰ العلم؛ إذ ليس من الطبّ في شيء أن تنكأ جرحًا في طريقه للاندمال، وليس من المروءة أن تقلّب المواجع علىٰ نفسٍ مثقلَة بالكلوم والأوجاع، لا سيّما إنْ كان صاحبها من النوع الرهيف الشفيف كفتاةٍ تُبكيها كلمة وتُحزنها إشارة.

وقد أكبرْتُ في كفيلها إلمامه بقصّتها، ووضعها في حسبانه من حيث المعاملة الكريمة اللائقة؛ فأحرىٰ بالمرء أن يكون لأخيه رِدءًا لا عِبئا وسنَدًا لا سيْفا، إذ الأيّام دول والأحداث قروض ولعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمرا، فنجد عندها مِن أصحاب القلوب البيضاء مَن يَجبر خاطرَنا ويهوّن مصائبَنا ويردّ لنا بعضًا ممّا بذلناه من شهامة وأصالة تجاه الآخَرين؛ فما ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن:٦٠] (١)، و"مَن سار بين الناس جابرا للخواطر، أدركه الله في جوف المخاطر".

وليتني شددتُ همّته؛ فذكّرْته بأنّ جبر الخواطر ليس سوىٰ ترجمة عمليّة لجينات المشاعر النبيلة وكروموسومات الأخلاق السامية، ثمّ رويتُ له كيف أنّ طبيب الأمراض الباطنية الشهير حسام موافي سأل فضيلة الإمام الشعراوي عن أفضل عمل يتقرّب به إلىٰ الله؟ فأجابه: جبْر الخواطر. ثمّ تلا عليه قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣﴾ (٢).

ويكأنّ كسر خاطر اليتيم والمسكين لا يضاهيه إلّا التكذيب بالدّين، وهو جرْم ما أبشعه! خاصة إذا علمنا أنّ جبر خاطر هؤلاء وغيرهم يمكن تأديته

(١) الرحمن ٦٠.

(٢) الماعون ١-٣.

بكلمة حانية وبسمة صافية، أو بقليل من المال وهديّة يسيرة وعون زهيد، أو حتىٰ ببعض اهتمام يُشعرهم بكينونتهم وأهميتهم..

ولله درّ بعض العلماء الذين ذهبوا إلىٰ أنّ اسم الله (الجبّار) مشتقّ من الفعل جبر، ويعود إلىٰ وافر عطائه سبحانه في جبر النفوس الجريحة وترميم القلوب الكسيرة، خلافا لِما قرّ في الأذهان من معنىٰ وحيد يشير إلىٰ القوّة القاهرة والعظمة الباهرة، إضافة إلىٰ معنىٰ ثالث ضمّنه الإمام ابن القيّم أبياتا في نونيّته تشرح هذا الاسم الجليل بقوله:

وكذلك الجبّار من أوصافه ... والجبْر في أوصافه قسمان

جبْر الضعيف وكلّ قلب قد غدا ... ذا كسرة فالجبْر منه دان

والثانِ جبْر القهْر بالعزّ الذي ... لا ينبغي لسواه من إنسان

وله مسمّىٰ ثالث وهو العلو ... فليس يدنو منه إنسان

(٢٠) دعاء السَّحَر

مِن حسَنات عيادتي الخاصّة، وهي كثيرة ولله الحمد والمنّة، أنها صارت ملتقىٰ لأحبّة اعتدتُ رؤيتَهم خمس مرات في اليوم والليلة، بعد أن باعد بيني وبينهم إغلاق مسجدنا لشهور عدّة أثناء جائحة كورونا العاتية كريح عاد والعاصفة كصاعقة ثمود. ومِن هؤلاء الأحبّة، صديقي (عبد الله)، ذلك الطيّب الشهم الذي يكفيه الخروج من باب بيته ومجاوزة عتبته ليجد نفسه علىٰ باب المسجد وعتباته، وهي نعمة من الله وفضل، يستحقّ أن يُغبط عليها.

وأثناء زيارة له قصيرة، جاءت في إطار علاج أحد أرحامه؛ تَذاكرْنا أحوال المسجد وأهله، وكيف صاروا وقت إغلاقه كسمكٍ أُخرج من مائه وعصفورٍ قُصّ جناحاه! ثمّ أبىٰ إلّا أن ينعش روحي ويشنّف أذني بحكاية ملهِمة عاشها فجر يومٍ غير بعيد، وذلك حين أيقظته زوجتُه لصلاة الفجر، فنهض وتوضّأ وتهيّأ كعادته، ثمّ خطا بضع خطوات كانت كفيلة بوضع يده

علىٰ مقبض باب المسجد، وما إن شرعه حتىٰ دُهش مرّتيْن: مرّة حين طالع ساعة الحائط الضخمة المعلَّقة علىٰ يمين المحراب، ولمح عقاربها اللامعة تشير إلىٰ الثالثة والنصف، أي ما قبل صلاة الفجر بنحو ساعة ونصف! ومرّة حين وقعَت عينُه علىٰ أخ بنجالي يجثو علىٰ ركبتيْه تلقاء القبلة، ويجأر إلىٰ الله بالدّعاء عبْر كفّين مبسوطيْن وصوت متهدّج ورأسٍ مُطرِقة، في دلالة واضحة علىٰ تجرّده من حوْله وقوّته، وقطْعه للعلائق عمّا دون مولاه. وعندها أغلق صديقي عبد الله البابَ بخفّة وتؤدة، وانصرف قافلا إلىٰ بيته وزوجه.

وإلىٰ أن يحين موعد الأذان، راح يتنفّل ويتلو القرآن ويردّد الأذكار، وفي الوقت ذاته لم يغِب عن باله حال هذا المتهجِّد الذي تنبئ هيئته عن نازلةٍ ألمّت به وشدّةٍ اجتاحتْه، وتشير من طرف خفيّ إلىٰ تمثُّله لقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (١). كما لم يغب عنه كون هذا الرجل غريبا عن الحيّ، وليس من معتادي الصلاة في ذاك المسجد الذي يحفظ مرتاديه عن ظهر قلب.

وبعد انقضاء صلاة الفجر، وانصراف كلّ ذي شأن إلىٰ شأنه؛ وجد البنجاليّ نفسَه بين يدَي عبد الله، والذي بدوره سأله برفق ورقّة: في أيّ

(١) النمل ٦٢.

ساعة دخلتَ المسجد؟ فأجاب: زهاء الثالثة. ولمّا اقترب من أذنيْه واستفْسر منه عن السرّ وراء ضراعته اللافتة وقت السّحَر؟ تنهّد تنهيدة حارّة ولم يُحِر جوابا. ولكنّه أمام الإلحاح واللُّطف الذي تسرَّب إلىٰ نفسه وسرَىٰ في كيانه، أجاب: أنا أعول ثلاث أُسَر: أسرتي، وأسرة أخي المتوفَّىٰ، وأسرة أختي المطلَّقة، وبالأمس أبلغني صاحبُ العمل بعدم حاجته لخدماتي والتجهّز للعودة من حيث أتيت! فكان ما رأيتَه، إذ كيف لي أن أتدبّر أمر هؤلاء الأيامي الضعفاء بعد انقطاع موْرد رزقي وجفاف ماء بئري!

وبعدما تحصّل منه علىٰ رقم الهاتف، انصرف عبد الله إلىٰ بيته، وقد قرّ في خلده أنّ الله العليم الخبير، ما صرف نظرَ زوجته عن الساعة، وألهمها إيقاظه في هذا الوقت؛ إلّا ليرسله إلىٰ المسجد في تلك اللحظة، ويُطلعه علىٰ حال هذا المُضطر، علّه يكون سببا في إجابة دعائه وفكّ كربته..فكَم مِن مؤمن يُثاب رغم أنفه! وكم من خيِّرٍ يُرزق علىٰ قدر نيّته لا عمله!

وبعد أيّام، وضمن اجتماع أسبوعي ترفيهي له مع أقرانه من أصحاب الأعمال والتجّار، حكىٰ عبد الله عن المشهد المثير لهذا العامل البنجالي، وكان غاية مبتغاه أن يستدرّ عطفهم فيجمع له شيئا من الريالات يزوّده بها عند سفره ويعينه في أداء مهمّة أثقلَت كاهلَه وأَعيت حيلتَه. وكم كانت سعادته حين أبدىٰ أحد الحضور حاجته الماسّة إلىٰ عامل يكفله في يومه

قبل غده، وطلبه رقم هاتف العامل ليتواصل معه، فأعطاه إيّاه ومضىٰ إلىٰ حال سبيله. وعقب أسبوعيْن، التقاه العاملُ متهلّل الوجه منشرح الصدر يكاد من الفرح يطير بلا جناحين، وأخبره بحصوله علىٰ عمل مريح وراتب مجْز! ثمّ سأل: هل تحدَّثتَ مع أحد بخصوصي؟ فأجابه عبد الله بذكاء ونُبْل: ربّما، لا أذكر؟!

(٢١) جراحة تجميل

لا أَغرَب من الخيال سوىٰ الواقع، بل إنّ كلّ خيال مهما علا كعبه وطال باعه وجمح جموح الخيل في البرّيّة، لا بدّ له من مفردات واقعية يتّكئ عليها وينسج حولها، علىٰ اعتبار أنّ التخيّل لا ينشط من فراغ. وإنّي لَأَعجَب في هذا الصّدَد مِن ساردٍ يؤمن بأنّ الأدب ابن الخيال فحسب لا مجرّد معدن في سبيكة وعنصر في معادلة، ثمّ يجهد قريحته في تزييف قصص وروايات وهميّة لا تمتّ للواقع بصلة؛ إذ لو تمعّن فيما حوله من واقعٍ مُعاش، لَرأىٰ العجب العجاب، ولَعثر في الجراب علىٰ ما يخلب اللبّ ويملأ العُبّ، ومِن ثمّ جاء سرده مفعَما بالحياة مشحونا بالصدق، وبدت قصصه ورواياته أقوم قِيلا وأشدّ تأثيرا.

خُذ مثلا هذه السيّدة الأربعينيّة التي وهبها الله جمالا طبيعيا لا شِيَةَ فيه؛ إذ لم تكن عرْجاء ولا حوْلاء، ولا جدْعاء أو كتْعاء أو صلْعاء، ولا مولودة بشفة مشقوقة كشفة الأرنب أو بأنف معقوف كعرف الدّيك؛ بل سوّىٰ

سبحانه خلْقتها وأَتمّ بنْيتها، ثمّ كساها ببشرةٍ ملساء كالحرير وشعرٍ فاحم غربيب.. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (١). ورغم هذا الجمال الفطري الذي سُرّ به الناظرون، وأهّلها لزواج ميسور ترفل بمقتضاه في ثوب النعيم، ولا ينقصها فيه البنات والبنون؛ فقد راحت تفتّش عمّا زيّنه لها شيطانها من عيوب؛ ترهُّلٌ هنا وضمورٌ هناك، وانبعاجٌ هنا وانحناءٌ هناك، والمِرآة علىٰ قولها: لا تكذب. والواقع أنّ المِرآة لا تكذب فعلا، ولكن العين التي تحدّق في المِرآة قد تكذب، فترىٰ ما لا تبديه المِرآة، وتطالع ما لا يبصره سواها من عيون الآخَرين.

وهكذا بدأَت مشوارها الحثيث مع المستحضرات الطّبية المحلّية والمستورَدة، الطبيعية منها والاصطناعية، وذلك عبر الحجّ إلىٰ صالونات التجميل المنتشرة كالجراد طولا وعرضا، بالتوازي مع الطّواف بمواقع الزينة المتناثرة كالنمل علىٰ الشبكة العنكبوتية، وكأنّ الجمال سلعة تُشترىٰ من السوق وتُلتمس عند العطّار والخيّاط والحلّاق. ولَمّا لم يُجْدِها ذلك نفعا، ولم يتحقّق لها ما تصبو إليه من أنف كليوباترا وبسمة الجيوكندا وسحر نفرتيتي؛ التمعَت في ذهنها فكرة عمليّات التجميل التي باتت بين الأثرياء والوجهاء ميدانا يلهثون فيه، وصيحة محمومة لم تسلَم من مبضعها سُرّة البطن وغَمّازة الخدّ، ولم تَنْجُ من مشرطها استدارة

(١) النمل ٨٨

الكعبيْن والحاجبيْن والردفيْن، لا سيّما في عصر تربّعت الصورة على عرشه وحلّت بالكثيرين لعنة الفوتومانيا.

ولأنّ هذه العمليات كالمنحدَر ما إن تلج بابا حتىٰ يُسْلمك إلىٰ باب، وما إن تنزل درجة حتىٰ تغريك ما تحتها بالنزول إليها، تماما كسيجارة أُولىٰ تستدرجك لأختها، وذنب صغير يهوّن عليك الكبير؛ فقد مضت تنتقل من عمليّة لأخرىٰ، فتُصلح بالثانية ما أفسدتْه الأُولىٰ، وترمّم بالرابعة ما هدّمتْه الثالثة، وذلك في سباق مسعور إلىٰ نتيجة لا وجود لها سوىٰ في خيالٍ مريض ومنطق معوجّ.

ومع الوصول إلىٰ الرقم (١٣) في عداد عملياتها التجميلية، وهو رقم مشؤوم في ذاكرة الغرب الأسطورية، دبّرَت لإجراء عملية شدّ للثدي، وجعلت الأمر خفْية، إذ لا يتيه المرء بشَعره المستعار أمام مَن يعرف الحقيقة، بل وجعلَت هذا السرّ ينسحب أيضا علىٰ زوجٍ تُشاركها فيه نساء أخريات، ربّما من باب مفاجأته علىٰ غرار هدايا عيد الميلاد، وربّما من باب أنّ الأمر أضحىٰ عاديا من كثرة تكراره ولا داعي لإعلامه بهكذا خبر صار طقوسيا كشروق الشمس ومغيبها. وبعد أن استكملَت الفحوصات وتقرّرت ساعة العملية ومكان إجرائها، حضرت دون رفقة أحد، ووضعَت نهديْها تحت تصرّف غرفة العمليات وطبيب التخدير وجرّاح التجميل وطاقم التمريض.

و بناء علىٰ خبرته العميقة وكفاءته المشهودة، أنهىٰ جرّاح التجميل مهمّته بنجاح، فحشا الثدي بمقدار محدّد من مادة السيلكون عبر فتحات دقيقة، وأعاد إليه صلابته وكرويّته وشموخه، حتىٰ بدا كصدر فتاة كاعب في عمر العشرين. وبدوره راح طبيب التخدير يمارس مهارته في الإفاقة وإعادة الوعي، تمهيدا لهرولة المريضة إلىٰ زوجها بـ(النيولوك) المُثير. ولأنّ الغيب أكثر من المعلوم داخل غرفٍ للعمليات لا يستطيع أحدٌ التنبّؤ بما سيحدث فيها، وعلىٰ عادة الأعاصير والزلازل والبراكين التي تضرب علىٰ غير توقّع من عقولنا القاصرة؛ فقد فشلت عمليّة الإفاقة، وسافرت روح المرأة إلىٰ بارئها، وانقلبَت المستشفىٰ رأسا علىٰ عقب بعدما عمّ أرجاءها خبرُ الوفاة الفجائية.

وكما كان الخبر صاعقا علىٰ الطاقم الطبي، وخاصة طبيب التخدير الذي استوفىٰ مع بقية الفريق كلّ الشروط الواجب مراعاتها في مثل هذه العمليات دون إخلال؛ فقد باغت نبأُ الوفاة الزوج، وركض إلىٰ المستشفىٰ مبهوتا غير مصدِّق، ظانًّا أن هنالك لبْسا وخلْطا سرعان ما ينكشف! وفي الوقت الذي مثُلت فيه المريضة بجرحها البضّ بين يدَي علّام الغيوب، راح أهلها يطوون الصفحة بعقليّة قَبَليّة فضّلت تجرُّع مرارة الفقد علىٰ الجلْد بسوط شماتة وعار يلحق بهم حال ذيوع القصة وتَداول تفاصيلها المُربِكة بين ألسن حِداد هنا وهناك..وهو ما كان حبل نجاة

للجرّاح والمستشفىٰ، ولطبيب التخدير علىٰ وجه الخصوص الذي ربّما ناله الحبس علىٰ أقلّ تقدير، أسوة بزميل له قام بتخدير الممثّلة الشهيرة سعاد نصر أثناء إجرائها عملية لشفط الدهون، وقدّر الله أن يتوقّف قلبُها وتدخل في غيبوبة لمدّة عام قبل أن توافيها المنيّة أوائل عام ٢٠٠٧م، وكان ذنب طبيب التخدير أنه لم يُجر لها التحاليل الروتينية ورسم القلب للتأكّد من سلامة حالتها الصحية قبل التخدير.

(٢٢) يوم الشّاي العالمي

حرصًا علىٰ سلامة المزاج العالمي المعتلّ؛ حدّدَت الأمم المتحدة يوما عالميا للمياه في الثاني والعشرين من مارس كل عام، ويوما عالميا للقهوة في الأوّل من أكتوبر كلّ عام، ويوما عالميا للعصير في الثلاثين من مايو كلّ عام! ثمّ واصلَت هداياها السخيّة؛ فحدّدَت يوما عالميا للشاي؛ وافق الواحد والعشرين من مايو كلّ عام، وبدأ الاحتفال به عام ٢٠٠٥م في مدينة نيودلهي الهندية، ونشطت في الترويج له الدول المنتجة مثل بنجلاديش وسريلانكا وإندونيسيا وكينيا وتنزانيا وماليزيا، من بين خمسة وثلاثين دولة تزرعه وتصنّعه، وذلك بعدما وفد إليها من المنبع الصيني قبل خمسة آلاف سنة، أي قبل اكتشاف القهوة بآلاف السنين، وصار الآن أكثر المشروبات استهلاكا بعد الماء، وانتقل من الاستعمال الطبّي المحض في بداياته إلىٰ الاستخدام اليومي كوسيط اجتماعي وثقافي وترفيهي، وألّف فيه الألماني كريستوف بيترز كتابه (الشاي ..ثقافات، طقوس، حكايات). ولا فرق هنا بين شاي أحمر وأخضر وأزرق وأبيض

وأسود، ولا بين شاي ساخن يشوي اللسان وشاي بارد تمّ خلطه مؤخَّرا بمواد غازيّة كالبيبسي كولا ومشتقّاتها، ولا بين شاي خالص وآخَر بنكهة النعنع والزنجبيل والليمون والميرمية والقرنفل والقرفة والهال والحليب وغيره.

وحديثي هنا عن الشاي ليس من باب العشق والغرام، فالعبد لله من أقلّ الناس في العالم هياما بجَناب برّاده وأكوابه وقعداته وسُمّاره؛ ولكنه حديث ذكريات يجرّني إلىٰ يومٍ سحيق، افتقدتُ فيه صديقا وزميلًا يسكن معي بالمدينة الجامعية أثناء دراسة الطبّ، إذ غادر في إجازة نهاية الأسبوع إلىٰ قريته النائية بمحافظة البحيرة، ومرّ اليوم والأسبوع، ثمّ أوشك الشهر علىٰ الانقضاء ومازال خبره قيْد المجهول! ولمّا كان امتلاك هاتف أرضي بقرص دوّار، ترفًا لا تملكه القرىٰ آنذاك؛ فقد انقطعَت أخباره كأهل الكهف، وراح الشيطان يرسل لي وساوسَه بالبريد السريع؛ أيكون قد مرض بداء عضال؟ أو جُنّ وطلّق دراسة الطبّ إلىٰ غير رجعة؟ أو مات أبوه وغرق في بحر الحزن؟ أو دهمتْه سيارة شاردة في طريق العودة فنفض يديْه من دنيا ملغومة بعناء المذاكرة وكبَد الامتحانات؟

ولِقطْع الطريق علىٰ تلك الهواجس، ركبتُ قطار الدرجة الثالثة المتّجه من مدينة المنصورة بوسط الدلتا إلىٰ مدينة دمنهور في غربها، وهو قطار رخيص يناسب بضع جنيهات يتيمة تسكن جيبي بالتمليك لا الإيجار،

وديمقراطي يجمع بين جنباته شتّىٰ فئات المجتمع من العمّال والموظفين والطّلبة والباعة، ولا ينقصه منها سوىٰ فئة الحكّام والوزراء الذين لا يؤمنون بالديمقراطية أصلا. وبعدما غصّت الكراسي الخشبية القاسية بجُلّاسها ونُوَّمها، لم أجد بدًّا من الوقوف مصلوبا وسط جَوْقة غير متجانسة شكلا وموضوعا؛ هذا ينفخ نفَسَه الحارّ في قفاي النحيل، وذاك يدعس بقدمه الثقيلة مقدّمة حذائي المهترئ، وذلك ينعشني بإبطٍ معروق تفوح منه روائح تزكم الأنوف وتُلهب الجفون وتنادي حيّ علىٰ الفرار! ولكن كيف الفرار؟ وإلىٰ أين؟ وهم يحيطون بي كالسّوار، ويزاحمونني مزاحمة السّردين في علبها المغلَقة والرّنجة في براميلها الموصَدة.

وعلىٰ غير توقّع؛ لمحْت كرسيًّا في مقدّمة العربة إلىٰ اليسار، يجلس عليه الفراغ ويتمطّىٰ في جنباته الأثير، ولا يحرّك أحدٌ من الركّاب ساكنًا تجاهه! فمرقْت إليه مروق السهم من القوس، وسكنْتُه بارتياح كغريب التقىٰ أهلَه عقب طول اغتراب! وبعدما أطلقْتُ سراح أنفاسٍ محبوسة بين الضلوع؛ مددتُ ساقاي إلىٰ أقصاهما، وأرحتُ ظهري إلىٰ الوراء، ثمّ أسندتُ خدّي إلىٰ قبضتي ومرفقي إلىٰ حافة الشبّاك، ورحتُ أطالع من النافذة طريقًا ينهبه القطار نهبا، وأتأمّل أشجارا وأُناسا ومبانٍ تتهاوىٰ خلفنا بانتظام وتراتبيّة كقطع الدومينو في تهاويها، لتحكي في رمزية بالغة مرور الأيام تلو الأيام والأجيال عقب الأجيال. ولم يقطع تأمُّلي سوىٰ شابّ

ثلاثيني بدا علىٰ وفاق تام مع شعره المنكوش، ووجهه الأجرد، وأسنانه الثَّعلاء، وقميصه الشاحب، وبنطاله المكفوت إلىٰ أسفل الركبتين؛ فهمزني في كتفي برفق، وهمس في أذني بأدب جمّ: تِشرَبْ إيه يا باشا؟ ولأنّ الباشا حديث عهد بقطارات المسافات الطويلة، فقد رددتُ علىٰ الفور: لا شيء شكرا. وبعد هنيْهة أعاد طلبه، ولكن بصوت أجشّ ووجه كالح لا يَبَشّ: بَقُول لك تِشْرَب إيه؟ وبالسذاجة المفرطة واللهجة الواثقة ذاتها أجبتُه: لا شيء شكرا. فما كان منه إلّا أن نخر (شخر) نخرة بذيئة برزَت معها تفاحة آدم، ووجّه إليّ أمرًا فوريا بمغادرة الكرسي! وهو طلب عجيب عجز دماغي الهلامي عن تبريره؛ إذ لديّ تذكرة مدفوعة تخوّلني الجلوس، ولا أصدّق أنّ هذا المنكوش أعلاه والمكفوت أدناه قد اشترىٰ القطار من الحكومة، وصار بمقدوره إصدار الأوامر الجازمة بالنهوض والقعود والذهاب والإياب! وبهذا اعتبرتُ قوْلته ونخْرته مجرّد زوبعة في فنجان فارغ ودوّامة في ماء ضحل، ثمّ عقدْتُ ذراعيّ علىٰ صدري وواصلت الجلوس والتأمّل؛ فالمسافة بين المدينتيْن تبلغ نحو مائة كيلومتر، وتستغرق قرابة الساعتين، وتشقّ قلب ثلاث محافظات، فتقصم ظهر الجالس قبل الواقف وتدير رأس الشابّ كما الشيخ. ثمّ إنّ التأمّل، مثله مثل الركض والقراءة واليوجا والتنفّس العميق، أداة ناجعة لتخفيف التوتّر الذي لا شكّ يجرّ وراءه عرَبة مثقَلة بالأمراض والشيخوخة المبكّرة.

ولمّا قرأ الشابُّ علىٰ وجهي أمارات عدم الاكتراث، ووجدني علىٰ حالي مستويًا فوق الكرسي بكلّ برود وأريحيّة؛ أدرك أنه يطرق حديدًا باردا ويَرعَد دون أن يمطر وينشب نارا في حطب مبتلّ، وبناء عليه: قطّب جبينه وذمّ شفتيه، ثمّ توعّدني بسبّابته وحدّقَني بعينيْن حمراوين جاحظتين، قبل أن يقسم بالله أو بالطلاق لا أذكر، إن لم أغادر الكرسي علىٰ عجل فسيكفأ فوق رأسي جردلا أشار إليه بكلّ حزم! وما بالجردل سوىٰ ماء أسود قميء يملأ ثلثيْه. وبينما انحنىٰ نصف انحناءة، وقبض بيديْه علىٰ حافتَي الجردل لتنفيذ وعده والبرّ بقسَمه كرجل (شريف) لا يخلّ بوعد ولا يحنث في قسَم! إذ بقبضة فولاذيّة تسحبني من الخلف بعيدًا عن الكرسي. ووسط ذهولي ممّا يجري، ودموع تحجّرت في عيني، كفتًىٰ مرهَف لم تغبّر تجاربُ الحياة قدميْه، ولتوّه يطالع الحياة من خلف نظّارتيْن؛ أَفهمني صاحب تلك القبضة الحكيمة الرحيمة، أنّ الشاب الهائج كثور والنّاطح ككبْش والأرعن كلطْخ[1]، يستأجر هذا الكرسي، ويستخدمه كمقهىٰ متنقّل يُغري به زبائنه الراغبين في مداواة الصداع واستعادة النشاط، عبر شايٍ سيلانيّ أسود يتكسّب من ورائه ويعتاش علىٰ فُتاته، وما هذا السائل المتّسخ في الجردل إلّا حصاد نفاية شاي ترقد علىٰ مضض في قاعه، وعشرات أكواب استحمّت بمائه، إذ لم تكن الأكواب

(١) اللطخ: الأحمق، البليد.. كما جاء في المعجم الوجيز

الورقية ذات الاستعمال الواحد قد وُلدت بعد.. جرىٰ كلّ هذا اللّغط والغلط، وانتهت فصول مسرحية عبثيّة في هجاء الأخلاق ومدح الفظاظة والفجاجة، بينما القطار ماضٍ يتلوّىٰ في دربه المديد كثعبان، ولاهٍ عمّا يدور في أحشائه من أحوال؛ فمّا ضَرّ البطنَ بعضُ غازات تقرقر وأمعاء تمغَص! وما القطارات سوىٰ ردهة من ردهات الحياة، تنقل صورة مقطَّرة لِما يدور في أرجائها بشكل يوميّ.

وما إن تنفّسْتُ الصعداء، ووصلتُ بسلامٍ إلىٰ بيت زميلي في قرية (الوفائية) التي ضجّ أهلها من اسمها القديم (اليهودية) وطالبوا بتعديله عام ١٩٣٤م؛ حتىٰ واصل والده العزيز مشواري مع اليوم العالمي للشاي؛ فشرع بوجهٍ متغضّن بشوش وحماسةٍ تنطق بها عيناه الضيّقتان اللامعتان، يحيّيني بأقداح من الشاي يتلو بعضُها بعضا ويأخذ بعضُها برقاب بعض، فمنعني الحياء أن أردّ يده المعروقة، وألجمْتُ لساني عن قول: (لا أشرب الشاي). وزاد الطين بلّة، أنني لم أكن علىٰ علم بلغة الشاي الإشارية السائدة هناك، والتي تقتضي هزّ القدح في حركة راقصة كعلامة علىٰ الارتواء والاكتفاء.

وخيرا فعل الزميل النجيب الذي نُودي علىٰ جناح السرعة، حين أزاح عن كاهلي طقس الشاي، وافتتح طقسا جديدا قوامه الفاكهة والعصير والبطّ والحمام والمَبيت، ثمّ اختتمه بالإياب معي إلىٰ المدينة الجامعية

ومقاعد للدراسة شُغل عنها بأرضٍ يفلحها مع أبيه، وبموسم حصاد لا غنىٰ له عن الضرب بسهمٍ وافر فيه، مؤكّدًا بذلك علىٰ أنه رجل أصيل لا يشبهه سوىٰ طعم العسل ورائحة العنبر.

(٢٣) شهامة

سعيًا في مناكب الأرض، وبحثًا عن عيْشٍ كريم يليق؛ حطّت بي الرحال قبل أكثر من ربع قرن في إحدىٰ دول الخليج؛ لأباشر العمل طبيبا بإحدىٰ مؤسّساتها الصحيّة الخاصة. وقد شقّ علىٰ نفسي اجتماع السكن مع العمل في المبنىٰ ذاته، وبدا لي الأمر وكأني في شغل دائب ليل نهار؛ الوجوه لا تتغيّر، والجدران هي الجدران، والهواء هو الهواء! فعزمتُ علىٰ التضحية بهذا السكن المجاني، والبحث عن آخَر خارج دائرة العمل الرتيبة الخانقة، مع ما في ذلك من كُلْفة إضافية ترهق جيبي المرهَق أصلا. والواقع أنّ هذا السكن المجاني كان واديا غير ذي ذرع، ولبنا مسكوبا لا تُذرَف عليه الدموع؛ مجرّد غرفة علويّة من خشب أنيق مسقوف، لا يصدّ برد الشتاء ولا يعكس حرّ الصيف، ويشاركك فيها الزميل والزميلَيْن، ولا فسحة فيها سوىٰ طرقة ضيّقة بين سريريْن واطئيْن!

ولحسْن الحظّ، لم تمض أيام قلائل علىٰ البحث، حتىٰ أثمر عن توفُّر مكان في شقّة مفروشة مع زميليْن من الكادر الطبي غادر ثالثُهم إلىٰ موطنه فجأة، وهو طبيب الأسنان الذي سأحلّ مكانه.

لاحقا، علمتُ أنّ هذا الطبيب قدم من موطنه البعيد، وعمل لفترة قصيرة، ثمّ أُنهيت خدماته بصورة مباغتة علىٰ وقع حادثة فريدة وقفْتُ علىٰ تفاصيلها بعد انقشاع غبارها وانحسار موْجها. فقد لاحظ بأمّ عينه، ولأكثر من مرّة، اختلاء صاحب المؤسّسة المُتصابي ببنت وطنه الممرّضة المُحْصَنة، تارة في قيلولة النهار، وتارة بعد انتصاف الليل وهجوع القوم! وذلك في مكتبه الوثير الكائن أعلىٰ مبنىٰ ضخم يضمّ المستوصف وسكن الأطباء والتمريض والموظّفين. وهو ما أثار حفيظته واستثار نخْوته؛ إذ كيف لامرأة ذات زوج وولد تصبح ثاني اثنين في زيارات حمراء لا ثالث فيها إلّا الشيطان، سواء عن رغبةٍ أو اضطرار؛ فالحرّة تجوع ولا تأكل بثدييها، والشريفة تأكل التراب ولا تمتهن البغاء.

ورغم أنّ أبواب الكفيل والممرّضة كانت مغلّقة كأبواب امرأة العزيز، وما دار خلفها من تفاصيل لا يعلمه ملِك ولا وزير، إلّا أنّ الشكوك لدىٰ طبيب الأسنان كانت كافية ليُقْدم علىٰ خطوة خطرة خطّط وأَعدّ لها. إذ تمكّن من الحصول علىٰ عنوان الممرّضة البريدي، وكتب لزوجها رسالة مسهبة، يوقظه فيها من غفلتِه، ويستحثّ بين سطورها رجولتَه، ويدعوه

من فوره لإنقاذ شرفٍ له يُنتهَك وعرضٍ له يُدنَّس. وعلىٰ سبيل الحذر والاحتياط، بالغ في تمويه الخطّ المكتوب وعنوان المرسِل، واكتفىٰ بتذييل الرسالة بعبارة: فاعل خير.

وحسنًا فعل الزوج حين هبّ من رقْدته؛ فغلىٰ الدم في عروقه واشتعلت النار في صدره؛ ثمّ كتب لزوجته الممرّضة رسالة أحدّ من نصل السيف، خيّرها فيها بين النزول الفوري أو الطلاق البائن، وأَرفق رسالته بذلك المكتوب الذي زفّ إليه خبر تهتُّكها ومجونها.

وما إن وصلتْها الرسالتان، حتىٰ سقط قلبُها في ساقيْها وهرعت إلىٰ كفيلها حافية القدميْن باكية العينيْن؛ لينقذها من ورطتها ويستر ما انكشف من سوْأتها؛ فالتقف سمّاعة الهاتف من فوره، وراح يحدّث زوجها بلسان إخوة يوسف عن كيديّة الرسالة وافتراء صاحبها، وأغراه بالقدوم ليرىٰ بأمّ عينيْه ويتثبَّت، مع استعداده لتحمل كافّة تكاليف السفر والإقامة. ثمّ لبس جبّة شيخ الإسلام، وعمامة مفتي الدّيار، وتلا بصوت خاشع قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ (١).

وبعدها، ناول الهاتفَ للممرّضة التي راحت تنوح لزوجها نوح الحمام، وتُقسم بأغلظ الأيْمان علىٰ براءتها وحسْن سيرتها، وتُذكّره

(١) الحجرات ٦

بظروفهم المادية العسيرة وحاجتهم الماسّة للاستمرار في العمل تحت مظلّة البترودولار. هذا قبل أن تستشهد بزميلاتها الممرّضات واحدة تلو الأخرىٰ، واللائي حرقْن البخور وحلفْن له علىٰ نقاء زوجه كالكريستال وطهارتها كمريم العذراء. وبهذا هدأت ثائرة الزوج المغفّل، ودخل في روعه براءة زوجته وتعرُّضها لحادث إفك باء به مرسِل الرسالة، بعدما صادق علىٰ تأويلهم للرسالة بأنها غيرة وحسد إزاء حظْوة ومكانة زوجته التي تشرف علىٰ شئون التمريض وتضع في جيبها مفاتيح إدارية وفنيّة مهمّة تتخطّىٰ وظيفتها كممرّضة.

وقد استشاط الكفيل غضبا حتىٰ نبت له قرنان في رأسه، وجنّد طاقته للإمساك برقبة هذا الذي جرؤ علىٰ العبث بذيله، وتَجاسر علىٰ فضْح كوامن أسراره وتعكير صفو مزاجه؛ فحصر شكوكَه في بضعة أشخاص كان من بينهم طبيب الأسنان، ومعه المحاسب باعتباره يحتفظ بجوازات سفر الموظّفين وعلىٰ علم تام ببياناتهم الشخصيّة وصادرِهم وواردِهم من صندوق بريد يحمل مفتاحه ويشرع بابه يوما بعد يوم. ولأنّ الدائرة ضيّقة، والعصا والجزرة ملك يمينه؛ فقد أقرّ المحاسب تحت وقع الترغيب والترهيب، واعترف أمامه بأنّه وهب طبيب الأسنان العنوان البريدي دون أن يعلم نيّته من وراء ذلك، وهو ما كان كافيا لإدانة طبيب الأسنان وتحميله الوزْر كاملا. وعلىٰ أثر ذلك، وعلىٰ طريقة رجال

المخابرات وجنود الأمن، تمّ استدعاؤه على عجل في جنح الليل، ووضْعه في سيارة لا يعلم وجْهتها سوىٰ السائق، ليجد نفسه علىٰ سلّم الطائرة مغادرًا إلىٰ موطنه بغير رجعة!

وقد قُدّر لي أن أرىٰ هذا الطبيب الشهم في تلك الليلة، فلمحتُه مرفوع الرأس رابط الجأش صلبا كطوْد، لا يندب حظّه ولا يؤنّب نفسه ولا يندم علىٰ فعلته؛ إيمانا منه بأنّ الشهامة ليست ثوبًا من حرير يلقاه المرء علىٰ قارعة الطريق؛ بل هي سلعة غالية لا بدّ من دفع ثمنها عن طيب خاطر وسداد مهرها حين يجدّ الجدّ ويشتدّ الخطْب، ولو عاد بي الزمن لصافحْتُه بعرفان وتوّجْتُ رأسه بإكليل غار.

(٢٤) مظاهرة!

كما يجتمع الإنسان مع أخيه الإنسان تحت رايات النّسَب والقبيلة والوطن والدّين، فإنه قد يصطف معه في صعيد واحد إذا ما أَظلّتهم راية مشاعر واحدة كالفرح والحزن والخوف والغضب وغيرها من المشاعر الإنسانية المشترَكة، والتي لا تعرف الفرق بين جنس ولون، علىٰ اعتبار أنّ "تشابه الآلام واتحاد الآمال يجعل من البعداء أقرباء، ويوثّق الصلات الحميمة بين الإنسان وأخيه الإنسان"[1].. وإن كان هذا الاصطفاف لا يدوم طويلا وتنفصم عراه بانفصام الباعث عليه، فما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

وفي هذا، اجتمعَت ثلاثُ خادمات أفريقيات انحدرْن من لاجوس النيجيرية وكمبالا الأوغندية، ربما علىٰ وقْع معاملة غير لائقة أو غيرها من الأسباب، فاتّفقْن علىٰ مغادرة منازل مخدومهنّ سرًّا، والعودة إلىٰ

(1) محمد رجب البيومي/رحلة في المكتبة العصرية/ص ٤٨١

مكتب الاستقدام الذي جلبهنّ من موطنهنّ قبل أكثر من عام، ملتمسين الإياب إلىٰ موطنهم. وبدلا من استقبالهنّ بكلّ ترحاب من قِبل المكتب كما توقّعْن، إذ بالمكتب يُوليهنّ ظهره وقفاه، ثمّ يصْفق في وجوههنّ باب العودة، اعتمادا علىٰ قانونٍ سارٍ يتيح له نفْض يده من أيّة خادمة مضىٰ علىٰ تسليمها لكفيلها ستّة أشهر. بينما قام مخدومهنّ بإخلاء مسؤوليته وإبلاغ الشرطة عن هروبهنّ كما تقضي الإجراءات المُتَّبعة، لا سيّما بعد مسلسل هروب الخادمات المتكرّر، بغية الانخراط غير القانوني في العمل بنظام للساعات يتيح لهنّ دخلا أكثر وحرّية أوسع وضغطا أقلّ، وهو نظام تقوم عليه شبكات منظّمة تروّج لنفسها عبر وسائل التواصل، وتجيد مراوغة الملاحقات القانونية الرسمية، ومتورّطة إلىٰ حدّ بعيد في فتح منافذ للعمالة السائبة، وخلق مناخ لسوء استغلال الخادمات كبائعات للهوىٰ واعتصارهنّ كمشروب في كؤوس الخنا.

ورغم مرور ثلاثة أسابيع متّصلة، استقبلَت فيها الحياة ضيوفا وفدوا من عالم الأرحام وودّعت آخَرين إلىٰ حيث القبر والبرزخ؛ إلّا أنّ كلّ طرَف ثبت علىٰ موقفه ولم يتزحزح قيد أنملة؛ المكتب يرفض استقبالهنّ ويرفع في وجوههن البطاقة الحمراء، والكفيل أبلغ عن هروبهنّ وأودع ثمن تذكرة السفر ورسوم التعميم وعدّهن آبقات جاحدات وبالنّعمة كافرات، بينما افترش ثلاثتهنّ الأرض والدَّرَج قبالة المكتب، وطويْن

أمتعتهنّ القليلة كوسائد، غير مبالين بقيظ يتصبّب منه الجالس في الظلّ عرقا، ولا آسفين لهتك سِتْر تذوب منه نساء الخليج خجلا. ثمّ رُحن يتسوّلن لقيْمات من المطاعم والأسواق المحيطة، ويقضين حاجتهنّ في أقرب حمّام عام.

وفي فجر يوم صائف هادئ، زاد في هدوئه جائحةُ كورونا التي خمدت بموجبها أنفاس الحياة أو كادت، وتباطأت وتيرة حركة البشر كسلحفاة؛ اقتحم نافذتي التي تعلو مكتب الاستقدام، ضجيجُ أصوات تغنّي علىٰ أنغام طبل حادّ المزاج؛ حسبتُه حالة من الفرح العابر يجلو به الغرباء صدأ النفس ووحشتها، أو فاصلا من اللهو البريء يذبح به العاطلون الملل وينشطون علىٰ أثره للعمل، أو بائسين علىٰ حافة الجنون وبالغناء والرقص يتداوون! ولمّا تواصَل المهرجان الغنائي الصاخب لنحو ثلاث ساعات، لاحت الأسئلة في رأسي، ورحتُ أستكشف الأمر بأمّ عيني؛ فليس كالعين دليل ولا كالرؤية يقين.

وبقليل من الاستيضاح، وإجالة الطّرْف الوسنان بين الأنحاء؛ تبيّن أنّ أبطال هذا المسرح الغنائي اللّجِب، ليس سوىٰ الخادمات الثلاث النحيفات بملابس نومهنّ السابغة الباهتة، وشعورهن القصيرة المجعّدة، وأقراطهنّ الكبيرة المتدلّية؛ وقد شرعْنَ في التصعيد ولفْت الانتباه إلىٰ قضيتهنّ التي طال أمدها والتوىٰ حبْلها؛ فمضت إحداهنّ ترفع عقيرتها

بغناء حماسيّ مزمجِر، وكأنها تستنجد قبيلتها علىٰ البُعد، وتستنهض عنترتها من خيمته. والأخرىٰ تدقّ بعصا علىٰ ورق كرتوني سميك، مستعينة بقوّة عضليّة دونها بعض أَذرُع الرجال. والثالثة تؤازرهما بقرْع أوعية بلاستيكية فارغة، وحركات جسديّة راقصة كثيرا ما يمارسها الأفارقة بغْية طرد الأرواح الشريرة والتحرّر من القيود النفسية والجسديّة. كلّ ذلك في توافق وانسجام كفرقة موسيقية محترفة، وفي احتجاج عاتٍ أشبه بالمظاهرات والانتفاضات التي باتت حِجرا محجورا في عُرف المستبدّين الجُدد.

وبقدر ما أَزعجني لغطهنّ الذي أطار السُّبات من عيني وأَربك طقوس صحْوي ونوْمي؛ فقد ثمّنْتُ إصرارهنّ علىٰ ما اعتبرْنه حقًّا وجب تنفيذه وهو العودة إلىٰ بلادهنّ. وتلقيّتُ بامتنان درسهنّ البليغ بعدم الاستكانة والرضوخ مهما كانت التحدّيات، ونداءهنّ الواضح بأنّ صاحب الحقّ في هذا الزمن الرديء لا بدّ له من رفع عقيرته والتلويح بقبضته والدبّ علىٰ الأرض بكلتا قدميه، بعدما مضىٰ قطار زمنٍ جميل كان الحقّ يسعىٰ حثيثًا لأصحابه، ويطرق علىٰ كلّ ذي حقٍّ بابه.

والواقع أنّ مظاهرتهنّ الغنائية الراقصة رجحت كِفّتها وآتت أُكلها سريعا، خاصة بعدما انتبه السكّان في الجوار، وأنا أحدهم، وقمنا بإبلاغ المَعنيين من جهات رسمية، دبّرت أمر سفرهنّ علىٰ متن رحلات جوية

استثنائية في ظلّ جائحة كورونا وإغلاق المطارات. وهو تَجاوُب حكيم ولا شكّ، منع استفحال الشَّرر بانضمام خادمات أخريات واندلاع انتفاضة منظّمة قد تصبح نواة لتمرّد يعيد إلىٰ الأذهان ثورة الزنج زمن الخلافة العباسية، أو ثورة العبيد أيام الجمهورية الرومانية، أو ثورة الفلاحين في إنجلترا العصور الوسطىٰ.

(٢٥) الخديعة الكبرى [1]

في أصيل يوم هادئ من أيام العيادة، والتي لا تنعم بهكذا هدوء سوىٰ في فترة صباحية ينشغل الناس خلالها بالعمل عن المرض وبالخبز عن الدواء؛ مرّ بي صديقي خلفان، ولم يكن ساعتها بخلفان البشوش المنشرح الذي أعرفه؛ إذْ بات مكفهرّ الوجه شارد الذهن مبعثر القسمات، وبدا وكأنّ في فمه ماء وبحلقه غصّة! وما إن سألْتُه: ما بك يا خَلْف ، مفرد خَلْفان، علىٰ سبيل المزاح؟ حتىٰ فتح فمه المطبَق كخزينة بنك، وروىٰ لي بحرْقة ما أَسماها الخديعة الكبرىٰ.

وخديعته جاءت من خادمة التحقَت ببيته قبل شهور، فحلّت حلقة ضمن سلسلة طويلة من خادمات كُثر مرّت بمنزله الفاره، فلبينية وهندية وبنجالية وسريلانكية ونيبالية وإندونيسية وإفريقية. ومنذ اليوم الأوّل قدّمَت له خالَها الشابّ الثلاثيني الذي يجيد الحديث بالعربية بعدما سبقها

(١) نُشرت ضمن العدد الرابع عشر لجريدة الديوان الجديد، والصادر في فبراير ٢٠٢١م

إلىٰ السّفر ببضع سنوات، وهو ما وجد فيه خلفان ضالّته للتفاهم معها من خلاله، إذ كانت كالكثير من الخادمات لا تجيد سوىٰ لسانها الأعجمي، وبالتالي عرضة لحدوث سوء الفهم وارتكاب أغلاط يوميّة تخصّ أعمال المنزل وشئونها الشخصيّة كذلك. وهكذا غدا الخال ضيفا مرحَّبا به، ووسيطا مجّانيّا جاهزا للتواصل، حتىٰ صار وجوده في أيّة ساعة من ليل أو نهار مألوفا كوليّ أمرها، ومقبولا كشقيقٍ ولدتْه أمُّها.

وذات صباح، افتقد خلفان وزوجتُه الخادمة، بعدما غاب عن البيت رونقه المعهود، وبدا كتُبّان بلا مطّاط وحذاء بلا رباط. وعقب بحث حثيث في المطبخ والحمّامات وغرف الأطفال والفِناء، التمسوها في غرفتها الكائنة بطرف المنزل القَصيّ، وبينما ظنّوها متكاسلة كنَؤوم الضّحىٰ أو متمارِضة كموظّف لئيم، هالهم منظرها طريحة الفراش كخرْقة قماش، وغارقة في دمائها كذبيحة العيد، ولا تقوىٰ علىٰ مجرّد الشكوىٰ والأنين! علىٰ عجَل حملوها، ومدّدوها كلوح من الخشب فوق سرير الكشف أمام طبيبة النساء، بغْية الوقوف علىٰ سبب النزيف المهبلي الذي جنْدلها وكوّرها علىٰ نفْسها كجنين في طور النضوج. وهو ما لم يكن لغزا، خاصة عقب فحص البطن بالموجات الصوتية المسمّاة سونار، وعقب اختبار بسيط للحمل يُعَدّ إجراء طبيًّا روتينيا لكلّ حالات النزيف المهبلي في سنّ الإخصاب.

حامل! إجهاض! كان لهذا الخبر وقع الصاعقة علىٰ خلفان، إذ مِن أين لها بهذا الحمل وهي كما تقول الأوراق الرسميّة غير متزوّجة؟! ولا تخرج من البيت إلّا إلىٰ السوق كلّ جمعة وبصحبته هو وزوجته؟! ولا رائحة للذكورة في المنزل إلّا هو، وطفليْه الصغيريْن، ودمْية لرجل ببزّة عسكرية، وآخَرون بلا شوارب ولا لحىٰ يثرثرون علىٰ شاشة التلفاز؟! وببعض الوعد والوعيد، وبمعاونة الزوجة والطبيبة، تبيّن أنّ الخال هو العشيق! واتضح لكلّ ذي لبّ انتفاء الجريمة الكاملة علىٰ مرّ الأزمان.

وبينما خضعَت العشيقة لعملية جراحية تُسمَّىٰ تفريغ وكحت، تُجرَىٰ لمثل هذه الحالات من إجهاضٍ ناقص يُلفَظ فيه جزءٌ من الجنين خارج الرحم بينما يبقىٰ جزءٌ آخَر حبيسه ولصيقه؛ غالَب خلفان غيظًا يثور كالبركان بين جوانحه، وطعنةً نجلاء غائرة تخطّت العظم إلىٰ النخاع، ثمّ هاتَف خالَها بهدوء إنجليزي يُحسَد عليه، ورجاه القدوم سريعا للمستشفىٰ كاتمًا عنه الخبر، وفي الوقت ذاته كانت الشرطة علىٰ تماسّ قريب وعِلم بما يدور. ليجد الخال نفسه وجها لوجه مع ما اقترفتْه يده النّجسة وجنَت عليه شهوته الآثمة، فيعترف كفأر مذعور أمام البوليس، ويقرّ أنه ليس بخالها ولا عمّها ولا ينتمي لقرابتها بصلة، إنّما هي حيلة إبليسيّة ابتكرها هو والخادمة ليكونا علىٰ مقربة دون شبهة أو معوّقات، وليتمّ لهما ما أرادا من فُجْر وسفاح.

وبقدر ما في الجرْم من بشاعة، وما قاساه خلفان من تكلفة مادية وكابده من صداع التحقيقات والركض هنا وهناك؛ فقد كانت الخديعة التي وقع ضحيّتها هي أشدّ ما آلمه، بحسبانها أشدّ ضراوة من صريح العداوة، خاصة بعدما ما أَلمَح البعضُ إلىٰ ذلك، فألقوا باللائمة علىٰ سلامة نيّته التي أوقعتْه في المصيدة كفأر وفي الشَّرَك كحمَل، وانتقدوا عدم احترازه وارتخاء قبضته حين فتح الباب علىٰ مصراعيه للخال المُدّعِي دون أن يتحقّق من ذلك ويتثبّت، علىٰ اعتبار أنّ للقمر -رغم براءته وجمال محيّاه- جانبيْن أحدهما مظلم كنفق والآخَر متلألئ كدُرّ، والنّاس منهم الصالحون ومنهم الطالحون ومنهم بين ذلك طرائق قددا. هذا في الوقت الذي عقّب البعضُ الآخَر علىٰ الواقعة فنحا باللائمة علىٰ الخادمة في تعميم مُخِلّ بقوله: الخادمات خرّابات بيوت. وهو ما أمّن عليه ثان بقوله: النساء حبائل الشيطان. بينما استطرف ثالث حين هرش قريحته ثمّ استشهد بمثل ألماني يقول: امرأتان طيّبتان في الدنيا، إحداهما ماتت والثانية مفقودة!

وبينما تنهّد خلفان، وأحسّ ببصيص من الراحة عقب انتهائه من سرد روايته المثيرة؛ كانت مقولة الرئيس الأمريكي المثقَّف أبراهام لنكولن ترنّ في أذني: تستطيع أن تخدع كلّ الناس بعض الوقت، وبعض الناس كلّ الوقت، ولكنك لا تستطيع خداع كلّ الناس كلّ الوقت.

(٢٦) بيت القطط

كنتُ صبيًّا يتهيّب القطط ولا يرىٰ بأسا في مغادرة مائدة الطعام إن اقتربَت منّي إحداها ونوْنوَت طلبًا للغذاء، بينما تنبسط أسارير البقيّة حين تتمسّح بهم، فينادونها: (بِس بِس)، ويهْدونها بعض طعامهم لا سيّما اللحم والسمك الذي تعشقه القطط ويجدون ريحه من وراء حجاب. وهأنذا بعد الاكتهال، وسبحان مبدّل الأحوال، أسكن بيتا تقطنه القطط ولا تبرحه صباح مساء، صحيح أني لم آلفها لدرجة تربية إحداها أو حتىٰ لمْسها، ولكنّي –ويا لَلعجب– يمكنني المرور بجوارها دون أدنىٰ خلْجة، بل والتحديق إلىٰ ألوان عيونها البديعة كقوس السماء والمشعّة كالفوسفور، وملاحظة حركة آذانها الراقصة للأمام والخلف كرقْص الأفارقة.

والحقّ أنّني وقتما سكنتُ هذا البيت لم يكن فيه أثرًا لسِنّوْر، ولكنها هلّت مع قدوم امرأة باكستانيّة تعيش بمفردها في الشقّة الأرضيّة، فاقْتنت إحداها وفتحَت لها باب شقّتها علىٰ مصراعيها تدخل وتخرج وقتما

تشاء، وتبيت على الدرَج أو بالداخل حسبما يتراءى لها، إذ الطعام والشراب في كلتا الحالتيْن مضمون، بل وخاطت لها ما يشبه الفستان تلبسه وقتما يحلّ برد الشتاء! ولم يبق إلّا أن تُجلسها في حجرها لتحكي لها حكايات ما قبل النوم، بعد أن تمشّد لها شعرها، وتطيّبها بعطر فرنسي يزخر به محلّ الهدايا والعطور والزهور الذي تديره!

وكجزء أصيل من صيرورة الحياة، لعبت الغريزةُ برأس القطّة وتعطّشَت لمَن تألفه ويألفها ويقضي وطره معها، وهو ما قام به قطٌّ شاردٌ خير قيام. فحملَت وولدَت ستّ قطيْطات، طالما تأمّلتُهم يصطفّون حولها اصطفاف الجنود حول الجنرال، ثلاثتهم عن اليمين ومثلهم على الشمال، ولكلٍّ منهم ثدي يكفيه مؤونة العيش، من بين الحلمات الثمان المرصوفة على جانبي بطن كلّ إناث القطط. بينما القطّ الذكَر يشرب اللبن ويمسح شاربيه، ثم يتمطّى قبل أن يرفع ذنَبه ويركض إلى الشارع بحثًا عن نزواته.

ولادة بعد أخرى، تكاثرَت السنانير وافترشَت الدرَج الرخامي في تناسق عجيب، فصرتُ بصعوبة أجد موضعا لقدمي أثناء الصعود إلى شقّتي في الدور الثاني. كلّ هذا والمرأة الباكستانيّة مخلصة لرعايتهم إخلاص الأب لأبنائه والقَطا لأفراخه، بعدما صاروا لديها أغلى من مُلك الرشيد وأعزّ من سلطان معاوية، حتى إنها هيّأت من علب الكرتون الفارغة أَسِرّة أنيقة يرقدون فيها. والحقّ أنّهم بادلوها حُبًّا بحُبّ وكانوا

علىٰ الودّ والإخلاص باقون، إذ ما إن تناديهم بأسماء رقيقة اختارتها لهم حتىٰ يجيبونها ويحومون حولها جيئة وذهابا، مع أنّ القطط، وبخلاف الحيوانات الأخرىٰ الأليفة، أكثر ميْلا للانفراد بنفسها.

ولمّا بدا الأمر مزعجا من ناحية كثْرةٍ كاثرة كادت تستعْمر البيت، ومواء يأتيك من خلف الأبواب والنوافذ والجدران، وفتات طعام متناثر علىٰ الدّرَج بعد ولائم جماعية تقيمها لهم سيّدة القطط بسخاء. رجوتُ صاحب البيت إيجاد حلّ يخفّف به غلْواء المشكلة، ولكن دون تكدير صفو امرأة وحيدة ترىٰ فيهم أُنْس وحْشتها ومصدر سعادتها، ويبدو أنها تستعين بهم علىٰ وعثاء ترمُّل أو طلاق، وتضمّد بهم جرحا غائرا من عقم أو عنوسة، لا أدري. وعندما زمْجرَت المرأة وأبت بشدّة مطْلبه في طرْد القطط والتخلُّص منها، احتال لذلك بالاتفاق مع عامل يتسلّل في جنح الظلام ثم يلتقط كلّ ليلة اثنتيْن من علىٰ الدّرَج وينقلهما إلىٰ مزرعة بعيدة، وهو ما أحسّت به المرأة التي تحصيهم يوميّا كالدّراهم، فراحت تُدخلهم جميعا شقّتها إذا حلّ المساء ولا تطلق سراحهم سوىٰ فترة النهار.

وهكذا صار عليّ القبول بالأمر الواقع، ومضيتُ أعزّي نفسي بأمور ثلاثة: الأمر الأوّل: أنّ وجود هذا الجيش العرمْرم من القطط وتجوّله كخفر السواحل داخل البيت وخارجه، كفيل بمنع أيّ فأر من الاقتراب، وتطبيق حيّ لمثَل يقول: حطّ كلب يحمي دارك، وقطّ ياكل فارك، ولا

تعطي شخص أسرارك. والفئران لِمَن لا يعلم كنتُ ولا زلتُ أخشاها خشية المسعور للماء، ووجود فأر بحجم عقلة الإصبع في البيت يصيبني بالهلع وأفضّل معه المَبيت في الشارع. مع شكّي تجاه احتفاظ هذه القطط المدلَّلة بقدرتها علىٰ مطاردة الفئران، بعدما انتفىٰ عنها الجوع الذي من أجله يتفقّد الهِرُّ الجرذَ ويلاحقه شرّ ملاحقة. ولكي لا يلاعب أحدُهم حاجبيْه ويخرج لسانَه من بين شدقيْه معيِّرًا إيّاي بهذا الخوف الفطري من الفئران، أذكّر بأنّ هذا المخلوق الضئيل هو الناقِب لسدّ مأرب العظيم، والمتسبِّب بأمر الله في سيْلِ عَرِم خرّب البلاد وشرّد العباد.

والأمر الثاني الذي ذهبتُ أعزّي به نفسي: هو حكاياتٌ لطيفة لأدباء كثُر مع القطط، التقطتُها أثناء قراءة لي لا تهدأ، واللهمّ لا حسد. فالكاتب المتصوّف – وإن ادّعىٰ غير ذلك- أحمد بهجت، اقتنىٰ قطّة سمّاها ليلىٰ تيمُّنا بليلىٰ العامرية أميرة الحُبّ العذري، ولم يقصّر في رعايتها هي وزوجها وأولادها الستّة، وذلك تسديدًا لديْن قديم وتكفيرًا عمّا اعتبره جُرما شنيعا حين أغلق الباب يومًا دون قصد علىٰ ذيل قطّ، وراح القطّ يتألّم كمَن به مغص كلوي ويصرخ كمَن انتابتْه ذبحة قلبيّة. وفي السياق ذاته افتُتن بورخيس بالقطط، واعتقد أنها الأكثر استقلالية بين الحيوانات، وكتب في حبّها قصائد عدّة. ولا ننسىٰ مرثيّات سطّرها ابن العلّاف وابن العميد وصاحب الظلال في قطط لهم قضت نحبها وأورثتْهم حزنا سال

علىٰ أثره المداد. ولعلّكم تذكرون (مشية القطة) التي يتوجّب علىٰ عارضات الأزياء تعلّمها وإتقانها كالصلاة.

أمّا الأمر الثالث: فهو الأمل في اقتفاء أثر ابن المقفّع، حين أَقرّ بأنه أخذ من كلّ شيء أحسن ما فيه، ولم يستثْن من ذلك الهرّة التي أخذ منها لُطْفَ نغمتها، وحُسْنَ مسْألتها، وانتهازَها الفرصة في صيدها.

أرجو أن لا يَفهم أحدٌ أنّني معادٍ للقطط وبعيد عن الرفق بالحيوان؛ إذْ ما أعلمه عن نفسي –وعساي صادق– أنني رفيق بالحيوان والنبات بل والجماد، وكنت ولا زلت علىٰ اعتقاد راسخ بأنّ قلبا لا ينبض بالرحمة هو كالحجارة أو أشدّ قسوة، وقلبا لا ينقبض علىٰ خير وينبسط علىٰ طاعة هو أرض جرداء جدباء لا زرع فيها ولا ماء..

ولكنّي في الوقت نفسه أقرّ بأنّي لست عاشقا للقطط؛ كالروائي الأمريكي همنجواي الذي شاركه بيتَه نحو ثلاثين قطة، أو الروائي الفرنسي سارتر الذي اعتاد الكتابة بيمناه بينما يسراه تربت علىٰ ظهر قطّته، أو الكاتب جون كوكتو الذي بالغ في حبّ القطط فأنشأ ناديا لمُحبّيها، أو الشاعر الفرنسي بودلير الذي أحبّها كحبّه للعطر وعدّها ملهمته ووصفها بأنها كبرياء البيت! ونسي هؤلاء أنّ القط أشبه شيء بالأسد كما الخنزير أشبه شيء بالفيل، وأنه لصّ محترف، يألف الأماكن أكثر من إلْفه للأشخاص، وعلىٰ عكس الكلب الوفيّ، فإنّه يُضرب به المثل في نكران

الجميل، وإن امتاز عن الكلب بكوْن بوْله ولعابه لا ينجّسان الثوب. علاوة علىٰ كوْن القطّ الأسود بالذات مدعاةً للفأل السيء ورمزًا للشرّ والشيطان.

رضي الله عن سيدنا أبا هريرة الذي ما برح يحمل قطّته في كمّه أينما ولّىٰ وجهه، حتىٰ اندثر اسمه (عبد الرحمن بن صخر الدّوسي) أمام لقبٍ له ارتبط بالقطط. ولله درّ جحا الذي اشترىٰ ذات يوم ثلاثة كيلوجرامات من اللحم، فطهتْها زوجته المفجوعة وأَفْنتْها عن بَكْرة أبيها، ثم اتّهمَت القطّةَ بسرقتها وأكْلها. فقام جحا بوضع القطّة علىٰ الميزان ليزنها، ولمّا وجدها تزن ثلاثة كيلوجرامات، قال لزوجته: لو أن هذه هي القطة فأين اللحم؟ ولو أنّ هذا هو اللحم فأين القطّة؟!

(٢٧) فحص كورونا

لم تكد المطارات تفتح أبوابها وتستأنف أسراب الطائرات تحليقها، معلِنة عودة العالقين في الشتات إلىٰ حضن الوطن، بعد انقطاع السبل وتوقُّف السفر لشهور عدّة بناء علىٰ تعليمات السيّد كورونا؛ حتىٰ وقعْنا نحن الغرباء في مَطبّ فحصٍ أَقرّته الدّول شرطا لدخول أراضيها. هذا الفحص المزعج اللازم لتأكيد خلوّ المسافر من الفيروس اللعين، والقاضي بإدخال أنبوب طويل مرن ورفيع لمسافة أربعة سنتيمترات في عمق الأنف وصولا إلىٰ الحلق حيث يبيت الفيروس التاجي ويترعرع، ثمّ عمل مزرعة لهذه المسْحة الطّبيّة تظهر نتيجتها في غضون ساعات تطول وتقصر حسبما يدفع المسافر من مال ليس بقليل، وهي بالمناسبة نتيجة ناقصة لأنها لا تجيب عن منسوب الفيروس أو مقدار شحنته في جسم الإنسان.

ونظرا لتضارُب المعلومات بين شركات الطيران الناقلة وجهات الفحص، فقد كان نصيب زوجتي الطيّبة أن عادت من المطار، بعدما حِيل بينها وبين إتمام رحلتها المبرمَجة إلىٰ القاهرة، بذريعة أنّ الفحص مضىٰ علىٰ إجرائه أكثر من اثنتين وسبعين ساعة، دون النظر إلىٰ ما في ذلك من مشقّة طريق ينوف علىٰ الخمسمائة كيلومتر ذهابا وإيابا، إضافة إلىٰ تكلفة إعادة الحجز والفحص، وخيبة أمل تخصّ المنتظِرين علىٰ الجانب الآخَر في القاهرة، وألم معنوي وإرباك لا يدركه إلّا مَن قاساه واكتوىٰ بلظاه.

وأمام مكتب الطيران انتظارًا لإنهاء إجراءات السفر المعتادة للمرّة الثانية، وكعادة الغرباء في تناوش أطراف الحديث بغْية إزالة الوحشة وقتْل الوقت؛ سردتُ علىٰ مسامع أحد المسافرين ما كان مِن عودتنا مكسوري الجناح قبل أسبوع، فالمرء قد يبوح للأغراب بما لا يبوح به للأحباب. وبدلًا من مشاركتي الألم ولو بمصْمصة الشفاه وتقطيب الجبين وبعض كلمات المواساة المأثورة؛ إذ به يبادلني سردا بسرد ويروي قصّةً له موجِعة تؤكّد علىٰ المثل القائل: مَن نظر إلىٰ مصائب الناس هانت عليه مصيبتُه. وتذكّرني بقول القائل: لو تجمّعَت مصائب الناس أكواما، وقيل لكلّ مصاب تخيَّر ما تشاء، لاستردّ كلُّ واحد مصيبته واختارها راضيا دون غيرها.

ذلك أنه عزم قبل شهرين علىٰ السفر لرؤية أهله ووطنه بعد غياب دام لأكثر من عام، فحجز تذكرته وأجرىٰ الاختبار كما تقضي التعليمات. ورغم أنه لم يكن يعاني سوىٰ بعض الآلام الجسدية والإرهاق الذي لا يخلو منه بدنٌ يكدح وسمك في غير مائه يسبح؛ إلّا أنّ الفحص أتىٰ إيجابيا علىٰ غير توقُّع منه، وأكّد انضمامه إلىٰ قائمة المصابين بالجائحة. فاستسلم لقضاء ربّه، وأناخ راحلته وأجّل سفره، ثمّ دخل الحجر الصحي لأسبوعين كانا كعامَيْن، وانتظر أسبوعا ثالثا للمزيد من الحيطة، وأعاد الفحص الذي أتىٰ إيجابيا للمرّة الثانية، وأخبره الأطباء أن الفيروس قد يستمرّ وجوده في الجسم لعدة أسابيع وربّما شهور. وبهذا حمل حزن العالَم علىٰ كتفيْه، وابتلع غصّة بين شدقيه، ثمّ انتظر ثلاثة أسابيع أخرىٰ، قبل أن يجيء الفحص سلبيا، ويرقص فؤادُه طربا ويتجهّز علىٰ عجل لسفر يشتاقه اشتياق الليل للفجر.

وبعدما سابق الرّيح وقطع إلىٰ المطار مسافة تتجاوز ثلاثمائة كيلومتر، قادما من مقرّ عمله كمهندس للبترول في غوْر الصحراء؛ إذ بشركة الطيران تعبس في وجهه كزوجة أبيه، وترفض استقباله ضمن رحلتها بحجّة أنّ الفحص مضىٰ عليه أربعة أيام، بينما التعليمات تقضي بألّا تتجاوز الفترة بين الفحص والسّفر ثلاثة أيام. وهكذا عاد مجدَّدا وأجرىٰ الفحص للمرّة الرابعة، في لعبة أشبه ما تكون بالكراسي الموسيقية والمسلسلات

التليفزيونية. ولكي تكتمل بنود اللعبة وحبكة المسلسل، فقد جاء الفحص إيجابيا! يا إلهي..كيف هذا وهو لا يشكو شيئا البتّة؛ لا حُمّىٰ لا سعال لا ألم بالحلق لا ضيق في التنفّس، كما أنّه يشمّ الثوم والبصل ويميّز الخلّ من العسل، والفحص كان سلبيًّا قبل أربعة أيام! ثمّ أين المناعة التي يتحدّث عنها الطبّ فيقول بأنّ المصاب بعد وقوعه في براثن المرض يصبح مَنيعًا ضدّ الإصابة وعَصيًّا علىٰ الفيروس؟!

وبعدما خبط كفًّا بكفّ، وعبّر عن دهشته وحيرته بكلّ ما في جعبته من لفظ؛ هداه تفكيره إلىٰ الذهاب في اليوم ذاته لمختبر آخَر، وإجراء الفحص للمرّة الخامسة علىٰ التوالي، وذلك بناء علىٰ أبحاث طبيّة تقدّر دقّة الفحص بنسبة لا تتجاوز ٧٠٪، وعلىٰ اعتبار أن الخطأ البشري ممكن وخلط العيّنات المزدحمة وارد. وبينما حبس أنفاسه وأغمض عينيه وتمْتم بشفتيه انتظارا لنتيجة تاريخية حَفِيَ في سبيلها وهَرِم مِن أجلها؛ إذ بالقدر الرحيم يضع نهاية لمأساته، فأشرقت الشمس بنور ربها وجاء الفحص سلبيا وطار بالنتيجة إلىٰ المطار، وها هو أمامي جاء من أقصىٰ المدينة يسعىٰ ليُنهي إجراءات سفره ويقترب من تحقيق حلمه في ركوب الطائرة!

والحقّ أنّي بعد سماعه خجلْتُ من نفسي، واستصغرتُ ما حلّ بي؛ فاستحالت مصيبتي كالحصاة بعدما كانت في نظري كالجبال، وصارت

كالماء البارد بعدما كانت نارا مشبوبة، ثـمّ ردّدتُ: الحمد لله الذي عافانا ممّا ابتلىٰ به الناس.. فمَن اشترىٰ الحمد لم يُغبَن، ومَن ابتاعه ربح البيْع لا ريْب.

(٢٨) فيزياء الحُبّ

قد لا يصدّق الكثيرون أنّني وحتىٰ دخولي الجامعة في ثمانينيات القرن الماضي، كنت علىٰ قناعة تامّة بأنّ اللقطات الحارّة الآثمة التي تطلّ علينا من شاشة تلفاز، أو سينما لم أطأ عتبتها حتىٰ اللحظة؛ كانت بفعل كاميرا عابثة ومصوّر ماجن يقوم بتقريب الصور والتلاعُب بالمَشاهد حتىٰ تبدو لَعوبة وشهوانية. إذ لم يَدُر بخلدي وأنا الريفي القادم من قعر قرية خجولة كعذراء وبريئة كرضيع؛ أنّ بإمكان رجل ما، مهما وصل قبح أخلاقه وفساد أفعاله، الاقتراب من امرأة غريبة عنه ثمّ مجالستها ومداعبتها علىٰ هذا النحو المكشوف!

وقد ظلّت تلك القناعة رابضة داخلي مطمئنّا بها وإليها، ولم أَبُح بكُنهها لبشر، إذ كان النقاش في هكذا أمور من رابع المستحيلات. حتىٰ فُوجئتُ يوما أثناء تجوالي داخل الجامعة في سنتي الأولىٰ، بطالب يحتوي طالبة عاطفيًّا وجسديّا، ظنًّا منهما أنّ الكون في سبات، والعيون عنهما

بكماء صمّاء عمياء! وساعتها احمرّ وجهي كجمرة، وعرق جبيني كمحموم، ثمّ سال الدمع من عيني سخينا! إي والله، جلسْت في مكاني بلا حراك وبكيت، علىٰ قاعدة أنّ العين ترىٰ والقلب يحسّ والعقل يحلّل والجسد ينفعل. وحتىٰ الآن لا زلتُ أسأل نفسي: لماذا بكيت؟ ربّما لأني طُعنت في قناعات هَوَت وتحوّلَت من صرح إلىٰ ركام، وربّما لأني خشيت من خسف يحلّ بالمكان فينالني ما ينالهم، وربّما حزنا وكمدا علىٰ فضيلة رأيتُها بأمّ عيني تُذبح جهارا نهارا في بقعة عِلم لا يليق أن تُدنَّس هكذا. المهمّ أني مكثْت فترة أنتحب من جسامة الصدمة، ثمّ قلت لنفسي: وما يفيد البكاء يا صاح؟ أليس تغيير المنكر واجب الوقت؟ وبينما استعدتُ بعضا من رباطة جأشي، واستدعيتُ شيئا من شجاعتي، ورحت أستعْدي حرس الجامعة عليهما، وجدتهما قد ارتويا ومضَيا إلىٰ حال سبيلهما مأزورَيْن.

ثمّ كانت اللطمة الثانية؛ عندما تأبّطتُ كتابي عصر يوم ثان، وقصدتُ الجامعة للمذاكرة وسط طرقاتها المزيّنة بالأشجار، العامرة بالأزهار، والخالية من الطلّاب، وذلك جريًا علىٰ عادة قديمة لي بالمذاكرة الجهرية أثناء التجوال بين حقول قريتي وجداولها وسواقيها التي خلّفْتُها ورائي علىٰ بعد عشرات الكيلومترات..

ففي ركن مهجور خلف أحد المباني داخل الحرم الجامعي، لمحتُ طالبا وطالبة تجاوزا مرحلة الكيمياء وطفقا يدرسان فيزياء الحُبّ ويبحثان تفاصيله بعمق! ولأنّنا كنّا في رمضان، وشياطين الجنّ مصفَّدة، وأبواب الطاعات علىٰ مصراعيها مُشرَعة؛ فقد جُنّ جنوني وغلىٰ دم عروقي، ثمّ وجدتُني لا إراديا أرفع عقيرتي قائلا: اتّقوا الله يا مجرمين! يا فسقة! ورحت أشير بيدي وأصيح علىٰ هذا النهج، محتفظا بمسافة بيني وبينهم تبلغ عشرات الخطوات. وبدلًا من أن ينصرف مجنون ليلىٰ ويذوب خجلا، ثمّ يؤوب إلىٰ الله ويتوب مرّة من المعصية ومرّة أخرىٰ من الجهر بها ومرّة ثالثة لارتكابها في الشهر الفضيل؛ إذ بالشّرر يتطاير من عينيه، ويركض ورائي كثور إسباني هائج نبت له قرنا شيطان، محاولًا الفتْك بي!

ومع أني أقرب إلىٰ وزن الريشة (٥٤-٥٧كجم) بلغة الملاكمة، وعن عدْوي السريع لا تسأل؛ إلّا أنه كان يعدو كفهد جريح ومستنفَر كثور إسباني هائج، وكاد يلحق بي، ولم يُنجِّني من بطشه سوىٰ الله القادر، ثمّ اقترابنا من بوّابة الجامعة وخشْيته من لجوئي للحرَس واستعانتي بهم.

أما في الصفعة الثالثة -مع الاحتفاظ بكامل حقّي في الاستعاذة والاستغفار- والتي وقعَت عيني فيها علىٰ معيد ومعيدة داخل حجرة المكتب في وضع مريب؛ فقد ذهبَت براءتي وجاء ردّ الفعل باردا، وكأنّ الاعتياد يقتل الدهشة، والقبح قد ينتقل بالتكرار إلىٰ دائرة المقبوليّة؛ فلم

أبكِ كما فعلْت في المرّة الأولىٰ، ولم أزمجر كما عملْت في المرّة الثانية؛ بل أغلقْتُ الباب عليهما حثيثا، وطويتُ سؤالي مع حسرتي بين جوانحي، ثمّ ركضت إلىٰ المعمل لاستكمال تجربة كيميائيّة كلّفانا بتنفيذها، قبل أن يدلفا إلىٰ حجرة المكتب المجاورة وينهمكان في اكتشاف خبايا العالَم الداخلي وإجراء تجارب فيزيائية من نوع آخَر!

(٢٩) أثبت مكانك!

في الوقت الذي يزهو فيه العسكريّون ببِزّاتهم كالطواويس، ويتحيّنون الفرصة لارتدائها والمفاخرة بها في كلّ مناسبة، لا سيّما ما اتّشح منها بالنياشين وتلألأت في صدرها الأنواط والأوسمة واقترن بالبيريه والكاب دون الطاقية؛ فإننا كمدنيّون أقحاح نؤدّي خدمة عسكرية إلزامية لفترة محدودة، لا نجد في أنفسنا ميْلا لهذا الزيّ، بل نحسّ معه بالغربة ويراه أكثرُنا قيدا لا ضيْر من سلوك كلّ دربٍ مشروعٍ أو غير مشروع للفكاك منه، والناس في ذلك مذاهب لا قوالب، ولولا اختلاف الأذواق لبارت الأزياء.

والواقع أنّ حقائب سفر أغلبنا، كانت لا تخلو من زيّ مدني نخبّئه في قاعها، بعيدا عن أعين حملاتٍ تفتيشيّة مفاجئة تشنّ غاراتها من حين لآخر بحثًا عنه كجريمة نكراء، ولا مفرّ من حرقه بكلّ برود –إن عُثر عليه– أمام أحداقٍ متحسِّرةٍ دامعة وأَلسنٍ بالدعاء عليهم متمْتِمة ومحوْقِلة. ولله درّ

دورات المياه في محطات الحافلات، يوم كانت دهليزنا الآمِن للتخلّص من ربقة هذا الزيّ العسكري ومغادرته إلىٰ أرْيحيّة الزيّ المدني، وذلك أثناء رحلتَي الذهاب والإياب من الإجازات.

وبعد فترة ليست بالقصيرة، استوىٰ فيها عودُنا وابتلعْنا خلالها بضع جرعات من كبسولات الجرأة؛ تفتّق الذهن عن حيلة خطرة، فصرتُ وزملائي عند حلول الإجازة نرتدي الزيّ المدني في وحدتنا العسكرية، ثمّ نسلك طريقا خلفيّا غير معهود ولا مطروق يُسلمنا إلىٰ الرصيف، وعلىٰ أديمه المشحون بالحفر والمطبّات تبدأ سلسلة من الصعود والهبوط في الحافلات والسيارات وصولا إلىٰ البيت، والعودة علىٰ المنوال نفسه. ومبالَغةً في التخفِّي، كان علينا اجتياز هذا الطريق السرّي عند آخر ضوء لقرص الشمس وقبل انطلاق صافرة الليل وحلول شبح الظلام، وهو وقت رمادي يمكّننا من تحسُّس طريقنا الضيّق المتعرّج بين الكثبان الرملية والوحدات العسكرية والأسلاك الشائكة، ومن ثمّ الوصول بأمان إلىٰ بغْيتنا.

وفي أحد أيّام عودتي، اختلّت حسابات الوقت بعدما سهوْت عن النزول في مدينة الاسماعيلية لأجد نفسي في مدينة القنطرة غرب التي تليها بعدّة كيلومترات، وكان هذا الخلل سببا في وصولي إلىٰ قارعة طريقي السرّي متأخّرا نحو الساعة، إذ حلّ الظلام واندرسَت المعالم التي لم

تكن سوىٰ حجر ضخم هنا وإطار سيارة هناك، ولكن لا بد ممّا ليس منه بدّ، ولا حيلة لزمّار في إخفاء ذقنه! فلدىٰ نزولي محطّة اتفق العسكريّون والسائقون ضمنًا علىٰ تسميتها بالبرميل، نسبة إلىٰ برميل متهالِك مغروز في الرمل كالوتد علىٰ رأس الطريق، كان عليّ أن أغذّ السير في خط مستقيم لمدّة ٢٠ دقيقة باتجاه ضوء خافت تحمله سارية علىٰ البُعد، وما إن آتيه حتىٰ أُعطيه قفاي وأسلك مدقًّا آخَر يتلوّىٰ كثعبان، مسترشِدا بضوء سريّتي الطبيّة القابعة علىٰ مسافة عشرين دقيقة أخرىٰ من المشي بخطىٰ نشيطة.

ويشاء القدر الحكيم في هذه الليلة أن يكفهرّ الجوّ وتتلبّد الغيوم وتهطل السماء، ومع أن الصحراء القاحلة والرمال الظامئة قد ابتلعَت المطر في التوّ، إلّا أنّ الأضواء خفتت، وضاعت الاتجاهات، وصار الاعتماد علىٰ ضوء قمر يحبو في أسبوعه الأوّل، مع الاتّكاء علىٰ الحدس، هو السبيل الوحيد للنجاة وسط غياب تامّ لجنس البشر عن دربي المغمور الذي عبّدته البيادات علىٰ مرّ العقود.

وبعد أكثر من نصف ساعة من السيْرِ الحثيث المُضطرِب؛ وجدتُني وحيدا وسط حفنة كلاب شاردة هائمة في كلّ واد، وها هي علىٰ شرفي تجتمع وتتنادىٰ بنباح عدواني، فأيقنتُ أنّني ضللتُ طريقي، وأنّ هذه الكلاب الجائعة بصدد تأهيلي كغنيمة باردة تُجْهز عليها بلا هوادة! وبدلًا من الاستغراق في وساوس اليأس، والاستسلام لهواجس الرعب؛ إذْ بي

أتذكّر مقولة ساحر الصحراء باولو كويلهو: "ما دام التقهقر مستحيلا، فلا يجب الانشغال بشيء سوىٰ أفضل طريقة للتقدّم، بما في ذلك الخطر، والباقي بيد الله". وعلىٰ ضوء حروف هذه المقولة الملهِمة، تقمّصتُ هدوء حكيمٍ يطعن بالتجاهل ويبارز بالحذر، واستحضرتُ بسالة مقاتل يستصغر الجليل ويهزأ بالصعاب، ثمّ قرّرتُ تغيير مساري نحو أقرب وحدة عسكرية، أحتمي بحضنها إلىٰ فلق الصباح، مع ما في ذلك من تأخير يعرّضني للمساءلة: ماذا؟ ولماذا؟ وكيف؟، وربما يثير غضبة زميلٍ لي، أعلم أنه عقد يديه وراء ظهره وراح يذرع الأرض جيئة وذهاباً استعدادًا لبدء إجازته فور وصولي..فالمعلوم -حتىٰ لو كان غير مريح ولا مستساغ- أفضل من المجهول علىٰ أيّة حال، وقاعدة أخفّ الضررين تصلح للتطبيق في كلّ آن.

وعقب مشْيٍ أقرب إلىٰ الركض؛ تسارعَت فيه الأنفاس، واتّسعَت الحدقتان، وجفّ الحلق علىٰ وقْع ارتفاع مستوىٰ أدرينالين القلق والتوتّر إلىٰ أقصاه؛ اقتربتُ من سلك شائك يطوّق إحدىٰ الكتائب العسكرية، ومعه انطلق صوت جهوري شقّ كبد الصمت وبقر جوفَ الظلام: اثبت مكانك! كلمة السرّ؟ وإلّا سأضرب في الملْيان! ولأنّي آخِر مَن يعلم كلمة السرّ هذه التي قد تكون رقما أو اسما أو كليْهما مثل (فهد ٤٤) أو (جميز ١٧٧) أو (عرفات ٢٠)؛ فقد رفعتُ عقيرتي معرِّفًا بنفسي كطبيب السريّة

الطبيّة التائه ليلًا وسط الصحراء، وهو ما وجد صداه عند الجنديّ النابه، فتعرَّف عليّ فورا بوصفه أحد مرضاي ذات يومٍ مضىٰ إلىٰ غير رجعة. وكم كان جوادًا حين أحسن العلاج بعدما أجاد التشخيص، ونبيلًا حين رقّ قلبه علىٰ غير عادة العسكريِّين الجلاميد؛ فأيقظ جنديَّ الحراسة النائم بجواره ليتسلّم السلاح ويحلّ محلّه في الخدمة، ثمّ صحبني إلىٰ مشارف وحدتي العسكرية التي تَبيّن أنّي أوغلتُ في النأْي عنها، ولم يكن من سبيلٍ للوصول إليها عبر هذا الاتجاه الخاطئ الذي ذرعْته.

ومع سعادتي الغامرة بسلامة الوصول، وإطلاق سراح الزميل الواقف علىٰ صفيح ساخن والمنتظِر علىٰ أحرّ من جمْر؛ كانت سعادتي أكثر بكيس البرتقال الورقي الذي بلّله المطر وأطلّت حبات البرتقال من ثقوبه وكدتُ وسط التّيه أقذف به للكلاب المتربّصة؛ إذ كان من المَعيب أن أعود إلىٰ الزملاء بجبينٍ معروق وحكايةٍ عن الكلاب ويدٍ خالية الوفاض.

(٣٠) الأمانة

لم نكد نُجاوز عتبة العيادة ونستوي علىٰ مقعدَيْنا أنا وزميلي العزيز، حتىٰ رنّ جرس الباب معلنًا قدوم مريض. وتلك حادثة فريدة علىٰ غير العادة، إذ كان يمرّ اليومان والثلاثة دون أن يقرع بابَنا طارق أو يسمع بوجودنا بشَر! ولكنه الرزق الذي يطير إلىٰ صاحبه بلا جناحيْن ويسعىٰ دون قدميْن! والعيادة المَعنيّة هنا، كانت مأوانا في الفترة المسائية أثناء تلك الفترة القصيرة ضمن خدمتنا العسكرية، إذ كان مسموحا لنا بمغادرة المعسكر بعد انتهاء المحاضرات وتناول الغداء وقيلولة ليس فيها إجبار، علىٰ أن نعود في المساء للعشاء والمبيت داخل جدران معهد مُعَدّ للتدريب الطبّي العسكري، والويل والثبور لمَن يخالف التعليمات. وكان الاتفاق غير المكتوب، أن نتقاضىٰ نسبة أربعين بالمائة من الخمسة جنيهات ثمن الكشف، بينما تذهب النسبة الباقية إلىٰ صاحبٍ للعيادة تكفّل بتجهيزها بدءًا من الشاش والقطن إلىٰ السمّاعة وجهاز الضغط وانتهاء بالمكتب والكرسيّ، بما يعني أنها عيادة متواضعة تناسب إمكاناتنا

كأطبّاء حديثي التخرّج، وتلائم احتياجات منطقة سكنيّة أقرب إلىٰ الشعبية منها إلىٰ الأرستقراطية.

سريعًا ارتديتُ المعطف الأبيض وعلّقتُ السماعة في رقبتي وضبطتُ النظارة فوق منبت أنفي، ثمّ أخذتُ مكاني في غرفة الطبيب. بينما تقمّص زميلي دورَ الممرّض الهُمام الذي يفتح الباب باحترام ثمّ يسجّل البيانات ويتقاضىٰ الكشف ويتولّىٰ بقيّة الخدمات المعاوِنة، وهو الدور الذي نتبادله بأريحيّة من مريض لآخَر ولا يلزمه سوىٰ الدخول إلىٰ المعطف والخروج منه. ويشاء القدر أنّ السيدة البدينة التي دلفت من الباب لم تكن عليلة تشكو السكّري والنّقرس أو ارتفاع الضغط والدهون، بل فاعلة خير علىٰ حدّ قولها.. وكأنّ الدنيا فرغت من المرضىٰ وغصّت علىٰ نحو مفاجئ بفاعلي الخير! وفي حركة خاطفة، وضعَت حقيبةَ يد كانت تُخبّئها بين طيّات ثيابها فوق المكتب، وروت بإيجاز غابت عنه ثرثرة النساء، أنها عثرَت عليها مُلقاة في الشارع، ولمّا ألقت نظرة علىٰ ما بداخلها وتَبيّن لها أنها تخصّ طبيبا، دار بخلدها أنّنا لا بدّ نعرفه.. وكأنّ أطباء مصر يُعدُّون علىٰ أصابع اليد الواحدة، ويجتمعون في المقهىٰ كلّ مساء للعب الشطرنج وحلّ الكلمات المتقاطِعة!

دقائق معدودات وكنتُ مع زميلي وقوفا في الشارع، نلتمس سيارة أجرة تذهب بنا حثيثا إلىٰ العنوان، إذ لم يكن قلبنا الرحيم يسمح لنا بإطالة

أمد حسرة أستاذ الطبّ صاحب الحقيبة المكتظّة بأشياء قيّمة ومهمّة؛ سواء علىٰ صعيد الكارنيهات لعضوية جمعيات ونقابات وهيئات وأندية اجتماعية ورياضية كبرىٰ، أو علىٰ صعيد المفاتيح متنوّعة الأحجام والأشكال والأغراض، إضافة إلىٰ صور فوتوغرافيّة عائليّة. وقد قدّرْنا أنّ فقدان مثل تلك الأغراض، لا شكّ صدع رأسَ الرجل وأَدمىٰ قلبه وفتّ في عضده، وتخيّلناه يهيم علىٰ وجهه كسيفا باكيا ضارعا.

وفي طريقنا إلىٰ العنوان غير البعيد، كنّا فخورين بكوننا يد النجدة وقدم الغوث، ومستبشرين بالأجر والمثوبة من الله، وواثقين بأنّ الرجل ولا بدّ سيُوسعنا لثْما وعناقا بينما دموع الفرحة تترقرق في عينيه، قبل أن يقسم بأغلظ الأيمان علىٰ دعوتنا لعشاءٍ حان أوانه، ويُقدّمنا لأسرته مرفوع الرأس كنموذج للأمانة والخلق الرفيع بين أبنائه شباب الأطباء، ثمّ يحتضننا علميًّا علىٰ المدىٰ الطويل كأطبّاء صغار خضْر العود زغْب الحواصل، ولم نشكّ لحظة أنه سيغدق علينا ببعض المال، وعلىٰ التوازي تلح أسرته في تقديم بعض الهدايا العينية النفيسة، علىٰ اعتبار أنّ أداء الأمانة واجب الرعاية، وبحسبانه الأمان وسط زحام الحياة والضوء وسط عتمتها الداجية.

كان المسكن في حيّ راق من أحياء القاهرة، قوامه فيلّا أنيقة وسيارتان حديثتان وحارس حسن الهندام، وهو ما زاد من مستوىٰ هرمون السعادة

(السيروتونين) لدينا، ورفع مستوىٰ توقّعاتنا الخاصة بالمكافأة إلىٰ أعلىٰ منسوب. وبعدما وقف الحارس علىٰ الخبر السعيد، أنبأنا باقتضاب أنّ الطبيب في عيادته والزوجة في ضيافة ولد لها يدرس بأمريكا، ثمّ تفضّل علينا برقم الهاتف وأشار بسبّابته إلىٰ هاتف عمومي في الشارع المقابل للفيلّا. ومنه هاتفْنا أستاذَ الأشعة التشخيصية الموقَّر، الذي أجاب: يااااه، أخيرًا! ثمّ أخبرنا بأنّ الحقيبة مفقودة من شهور، وكان بها مال وفير إضافة إلىٰ ما ذكرْنا له من أغراض، وختم بأنه استعاض عمّا فيها بأوراق ثبوتية ومفاتيح جديدة، ولم ير بأسا من تسليم الحقيبة إلىٰ الحارس، خاصة بعدما أبلغناه بخلوّها التام من أيّة أوراق نقديّة. وكم كان كريما مضيافا حين قال: شكرا لكم، ثمّ أغلق الهاتف كمَن يضع قبلة وداعية فوق جبين ميت!

هكذا فقدْنا إيرادَ عيادتنا ليوم، وذهبَت أُمنياتنا الحالمة في مكافأة سخيّة تعوّضه، بل وتأخّرْنا عن موعد العشاء المقرَّر بالمعهد، ولم يعُد لنا من حيلة سوىٰ العودة بغمد فارغ وسيف مكسور، ثم النوم بأمعاء خاوية. وعلىٰ التراخي فضّلْنا العودة سيْرا علىٰ الأقدام لعلّنا نعثر علىٰ مطعم نبتاع منه ما يسدّ جوْعتنا ويطفئ حرّ أكبادنا، ثمّ مضينا نبثّ الليل شكوانا، ونتسكّع في شارع خاوٍ بارد يشاركنا خيبة أملٍ عارمة. وبينما نسير رويْدا، ونتمايل ذات اليمين وذات الشمال كمَن أَلمّ به دوار أو كالعالق بين اليقظة

والمنام؛ إذ بصندوق ورقي مُلقىٰ في عرض الطريق، فركلْته بقدمي غير آبه له، ثمّ انعطفنا نحوه والتقطْناه أنا وزميلي بعدما شعرْت بثقله واكتنازه! وكم كانت المفاجأة حين لقيناه طاقما فخما من ستّ قطع تُفرَش به الأَسِرّة الوثيرة، وعندها اعتقدْنا جازمين أنه سقط سهوا من سيارة مارّة لعروس تتجهّز، ولن يغمض لها جفن وتنفرج لها شفتان إلّا بعد حرث الطريق بحثًا عنه. انتظرْنا وطال انتظارُنا حتىٰ بدا أنّ ظنّنا طاش سهمُه ونبا سيفُه، وقدّرْنا أنه هدية السماء لنا علىٰ أداء أمانة وتفريج كربة. وبدلًا من اقتسامه علىٰ نحو يُذري بفائدته ويُذهب بقيمته كأحمقين اقتسما ورقة نقدية لا هذا انتفع بها ولا ذاك استفاد منها؛ اتفقْنا علىٰ الاحتفاظ به وتسليمه كهديّة لمَن يتزوّج منّا أوّلا، وهو ما تمّ بعد نحو عامَيْن حين استحوذ عليه بكل ودّ زميلي العزيز الذي سبقني إلىٰ زواجه الميمون بشهور قلائل.

(٣١) جزاءً وِفاقا

بوجهٍ منتفخ كمنطاد، وجلدٍ مبرقش كثوب، وعينين غائرتيْن كحفرتيْن؛ أطلّ عليّ في العيادة موظّفُ الماليات بالمستشفىٰ، ولولا نبرة صوته النحاسية المميّزة، وذاكرة لم تغرق في بحر النسيان بعد، لَما تعرّفتُ عليه. ما هذا يا رجل؟! ألم أنصحك بتغيير جنسيّتك الإسبانية والتوقّف عن مصارعة الثيران؟! هكذا فاتحْته مازحا باسما بعدما عاينْته واجمًا كثكْلىٰ، ومعتلًّا كخريطة العالَم السياسية: كدمات هنا وسحجات هناك وجروح هنالك، إضافة إلىٰ رضوض موزَّعة بالقسطاس علىٰ جانبي الظهر والكتفين والمؤخّرة والقفا! ومع أنه لم يتجاوب مع مزْحتي وضنّ عليها ولو بشبح ابتسامة حزينة ترتسم علىٰ شفتيه؛ إلّا أنه -مشكورا مأجورا- كفاني مؤونة سؤال قفز إلىٰ ذهني واحتلّ طرف لساني، فذكر أنّ قدمه خانتْه وانزلق البارحة في الحمّام. ورغم أنّ الأمر بدا أكثر من انزلاق، وأوسع من حمّام؛ إلّا أني همزتُ نظّارتي للخلف بالسبّابة، ووضعتُ شكّي دبر أذني، ثمّ انهمكْتُ مع الممرّضة في تضميد الجراح وتسكين الآلام

وتطهير السحجات، ثمّ التفتيش عن كسور في الضلوع أو العظام، والتأكُّد من غياب نزيف داخلي قد يكون الطامة الكبرىٰ بعدئذ.

ولأنّ السّتر لا يدوم، والأخبار تسير بسرعة (الكونكورد)؛ خاصة مع وسائل التواصل التي قبرَت الأسرار ومزّقت اللثام، وفي ظلّ بيئة عمل ثرثارة تزدري الصمت وتأبىٰ التكتّم وإلجام الأَلسن؛ فقد اتضح أنّ قدمه أمينة لا تخون، وحمّامه بريء براءة الذئب من دم يوسف، وانزلاقه حدث ولكن في اتجاهٍ آخر جدّ بعيد. إذ احتال هذا اللَّعوب وتَفنّن، بعدما فُتن بمرأىٰ إحدىٰ المريضات؛ فتحصّل علىٰ هاتفها بطريقة ملتوية من خلال ملفّها الطبّي الالكتروني، ثمّ بدأ مراسلات لحوحة مكشوفة أَحرق فيها مراحل الغزل الستّ التي قعّد لها أحمد شوقي بقوله: (نظرةٌ فابتسامةٌ فسلام/ فكلامٌ فموعدٌ فلقاء)، وطمح مباشرة إلىٰ اللقاء، خاصة بعد إلمامه بكونها ثلاثينيّة مطلّقة تعيش في شقّتها وحيدة، واعتقاده الراسخ بأنّ المطلَّقة الشابّة كسيرة تنتظر المواساة، ويتيمة لا تردّ يد حنان، وضعيفة ما أَسهلها من طريدة!

ولحسن حظّ شيطانه، لم يجد صدًّا طويلا ولا ردْعا عنيفا، بل آتت مراسلاته أُكلها، وضربت له المرأة موعدا ليليًّا يأتيها فيه علىٰ مركب الغرام. وهو ما فرك له يديْه، وتَجهّز من أجله، وشدّ الرحال إليه في الزمان والمكان، ممنّيًا نفسه بفريسة استثنائية تمتاز عمّن أَوقعهنّ مرارًا وتكرارًا

في شَرَكِ حبائله التي يفاخر بها بين أقرانه. وما إن وقف علىٰ الأعتاب، وأَعلمها بقدومه عبر رسالة من جوّاله دون أن يطرق الباب كما اتفقا؛ حتىٰ وجدها في انتظاره خلف باب ذي صرير، ولكن –ويا للغرابة- بعباءة سوداء محتشمة لا يظهر منها سوىٰ الوجه والكفّ، وبوجه جامد بارد ما زادت علىٰ قولها: (تَفضَّل، شرَّفْت)، ولولا أنه علىٰ ثقة تامة من العنوان؛ لخالجه الشكّ، وأَوْجس في نفسه خِيفة، وعاد من حيث جاء.

وبعدما أَشارت إليه بالجلوس في صالة فسيحة أنيقة ذات أضواء مبهرة؛ استأذَنَتْه لدقائق، وراغت عنه خلف ستارة سميكة تحجز الصالة عن بقيّة البيت، ولا يتسلّل منها صدىٰ صوت أو شعاع ضوء. وهو ما اعتبره إشارةً بليغة للتخفُّفِ من ملابسه، وفضِّ لفائفَ طعامٍ فاخر وشرابٍ معتَّق تكفَّل بإحضاره، ثمّ انتظار طلّتها البهيّة في ابتسامة عريضة ذات غمّازتين، وغِلالةٍ كالمِرآة تُبدي ما خفي ودقّ، وشَعرٍ متهدّل علىٰ كتفيْن ناعسيْن يسلب الليل طوله وسحره وسواده، وعطرٍ فوّاح يضمّخ الجيْب ويغزو العروق قبل الأنوف، أمّا الجائزة الكبرىٰ فغُنج يحيل اليابس الذابل إلىٰ غضّ بضّ ويستدعي كلّ ألوان الطيف مجتمعة دون مطر وقوْس وبرْق ورعْد.

وبينما هو منهمك في قدْح زناد مخيّلتَه، وإضرام نار شهوتِه، والتحديق بشبقٍ تجاه مدخل ضيّق يُودي إلىٰ الغرف؛ إذ –ويالها من صاعقة- بأربعة رجال ملثّمين يدلفون من هذا المدخل، ويتحلّقون حوله في لمح البصر؛

هذا بخيْزُرانة في يُمناه، وذاك بقفّاز للملاكمة في كلتا يديه، وثالث ينتعل حذاء رياضيا أشبه بحذاء التزلّج، بينما يقبض الرابع علىٰ سلك كهربائي مجدول، ولم يبق سوىٰ السيف والنطع علىٰ طريقة الحجّاج، أو السكّين والتنّور علىٰ صنيع بني العباس بابن المقفَّع، أو ديدن بعضهم في سمْل العيون وصلْم الآذان وجدْع الأنوف وجَبّ المذاكير!

وفي مشهد درامي يليق بأفلام هوليود وبوليود، ودون أن ينبس أحدُهم ببنت شفة؛ طالعوه بوجه صارم كأنّما قُدّ من حديد، ورمقوه بنظرة خاطفة تَقطر بالشرَر، ثمّ وثبوا عليه وثبة رجل واحد وانهالوا عليه ضَربا ولَكما وجَلْدا ورَكْلا، وكأنهم في حصّة تدريبية علىٰ شرف دمْية، أو في مهمّة قتالية محدّدة الغرض والزمان. بالطبع كان من الجنون أن يقاوم ويعارك، فهو – والحال كذلك- ليس سوىٰ "برغشة ضد الفيل" علىٰ رأي المثل، حتىٰ أنّ خوذة الجندي وقميصه الواقي من الرصاص لم تكن لتجديه نفعا أمام هذا السيل من تأديب احترافي ممنهَج يشبه عملية جراحية دقيقة يزاولها جراح أعصاب أو عيون.

وما إن أَتمُّوا مهمّتهم غير عابئين بصرخاته وأنّاته وتوسّلاته؛ حتىٰ التقطوا له بالجوّال بضع صور تنضح بالخزي والأسىٰ، أُضيفت إلىٰ أخرىٰ التقطتْها كاميرا للمراقَبة وثَّقَت تفاصيلَ قدومه ودخوله وجلوسه وتعرّيه دون أن يدري..

إذ كيف يدري مَن غيّب عقلَه وأَخرس ضميرَه وانبطح أمام شهوانيته؟!

وكيف يدري مَن فضّل الحرام علىٰ الحلال والظلام علىٰ النور والحَرور علىٰ الظلّ؟!

وكيف يدري مَن شرب بول الشيطان وادّهن بغائطه، فغاب عنه أنّ عبد الشهوة أذلّ من عبد الرقيق؟!

وبانقضاء سواد الليل وبياض النهار، صارت فضيحته علىٰ مرأىٰ ومسمع من أهل المنطقة يتناقلونها صوتا وصورة عبر هذا الكوكب الأخضر المُسمّىٰ واتساب، وهو ما صبّ عليه العذاب صبّا وتمنّىٰ لو انشقّت له الأرض شقّا؛ لاسيّما بعدما قوّضت الفضيحةُ حياتَه الأسرية المتعثّرة بفعل نزواته الطائشة المتكرّرة، وتَسبّبَت في فصله من عمله بعد أن كان قد تلقّىٰ تحذيرا وراء تحذير جرّاء ممارسات شيطانيّة سابقة من هذا النوع الآثم..وهكذا انقلب السحر علىٰ الساحر، وعلىٰ نفسها جنَت براقش، ويمهل ربّك ولا يهمل.

(٣٢) الشحّاذ

كان هذا الشحّاذ من الذكاء بمكان حين أَعرض عن الأنماط الشهيرة البالية التي صاحبَت واحدة من أقدم المهن علىٰ الأرض وهي مهنة التسوُّل؛ فلم يلبس المرقّع ويَظلَع باسطًا كفّه للسّابلة عند إشارات المرور وأمام المراكز التجارية وأجهزة الصرف البنكيّة، ولم يعْتلِ الحافلات برجل عرجاء أو يدور علىٰ المقاهي موزِّعًا مطبوعاته من الآيات والأحاديث والأدعية، كما لم يُطِل لحيته وينكش شعره ويفترش باب مسجد بصحبة رضيع يصرخ ومَلفّ مكتنِز بالأشعّات والتحاليل والوصفات الطبيّة الوهميّة؛ بل دقّ بابَ صديقي المهندس قائلا: عندي لك بشرىٰ وأريد البشارة، وبعدما فغر صديقي فاه وأَذن له بالدخول، سأله في تبتُّل: هل رأيتَ النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم في منامك؟ فمطّ صديقي شفته السفلىٰ، وهزّ رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ثمّ أَعرب عن شوقه العارم لرؤيا خير مَن طلعت عليه الشمس، وعندها التقط الشحّاذ الخيْط بمهارة الحواة، وشرع يحكي بإسهاب قائلا: نمتُ ليلة أمس علىٰ الطّوىٰ،

ورأيتُني وإيّاك في رحاب الجامع الأزهر وقد اصطففْنا لصلاة الفجر، أنا في منتصف الصف الثاني، وأنت خلف الإمام في الصفّ الأوّل. ولمّا تراصّ المصلّون وتهيّؤوا للصلاة كتفا تلقاء كتف وقدمًا إزاء قدم؛ إذ بنُور أخّاذ يغشىٰ الأبصار ويعمّ الأرجاء، ثمّ يتكثّف ويستدير كالبدر وسط المحراب، ويشرع في الصلاة بنا كإمام. وما إن انتهَت الصلاة، حتىٰ تهامس القوم بأنّ خير الأنام كان هو النّور والإمام! وراحوا يتعانقون فرحين حتىٰ لمعت عيونهم واخضلّت لحاهم، ورأيتُني -يروي الشحّاذ- أعانقك من دون الناس وأهتف باسمك وتهتف باسمي، بينما تتعلّق بيُسراك طفلة صغيرة ذات جدائل منسدلة إلىٰ منتهىٰ الظهر، اسمها قمر، وهو اسم زوجته الطبيبة بالمركز الصحي!

ها هنا خفق قلب صديقي كمَن رُزق بمولود بعد عقم مديد، وانبسطَت أساريره كمَن فرغ من الحساب وتلقّىٰ كتابه بيمناه؛ ثمّ مدّ يده إلىٰ محفظته المكتنزة وأفرغها في جيب الشحّاذ الخاوي علىٰ عروشه، قبل أن يهرع إلىٰ زوجته قمر -ذات الجدائل- ويرجوها تحضير وجبة فاخرة مغلَّفة لصاحب البشارة، وكم كانت الزوجة نبيهة حين علّقَت قائلة: الجائع يحلم بالخبز لا بالنّبيّ، وبالسّوق لا بالمسجد!

وعلىٰ النقيض من مسلك صديقي المهندس الذي غلّب العاطفة وبهرتْه حبْكة الرواية؛ كان صديقي أبو محمّد حكيما، حين استاء ذات

يوم، وقتما وجد علىٰ عتبة المسجد شابّا من بني وطنه مفتول العضلات جالسًا يمدّ يده للدّرهم والرّيال! ولم تطاوعه نفسه أن يفعل كالبقيّة، فيدسّ في يد الشابّ ما تيسّر، ثمّ يذهب إلىٰ حال سبيله متوهّما أنه قد أدّىٰ ما عليه. ولهذا هاتف أحدَ أصدقائه من أصحاب المحلّات الكبيرة الشهيرة، وتوسّط لديه ليُفسح المجال لهذا الشابّ ويمنحه فرصة عمل يحفظ بها ماء وجهه ويستعين بها علىٰ وعثاء الحياة، فوافق الرجل علىٰ الفور رغم الركود والعطالة التي خلّفتْها جائحة كورونا، وقال: ائْتني به في الحال.

وهناك عُرض علىٰ الشابّ عرضًا لائقا يتحصّل بموجبه علىٰ راتب مُجزٍ مع سكن يؤويه، وهو ما لم يتخيّله صديقي، إذ عدّه كرما حاتميًّا مضىٰ زمنُه وارتحل، واعتبره عرضا مغريا يسيل له لعاب الشابّ وينتشله من وهْدة اليد السفلىٰ وذلّها إلىٰ ربوة اليد العُليا وأنفتها. العجَب العجاب أنّ الشابّ أَقْمح برأسه وحكّ أرنبة أنفه وذمّ شفتيْه، ثمّ أَبدىٰ رفضَه قائلا: أنا أتحصّل من روّاد المساجد علىٰ ضعف هذا الراتب! بمعنىٰ أنّ تسوّلًا مريحا يدرّ عليه اللبن والعسل، لا يمكنه الاستعاضة عنه بعمل يكدّ فيه ليجني الماء القراح والخبز الجاف..

وعندها فار الدم في عروق الصديق؛ فاستمْهله دقيقة، وانْتحىٰ جانبا، ثمّ هاتف أحدَ معارفه في دوريّة للشرطة تجرّم فعل التسوّل وتتعقّب

محترفيه، ونسّق معهم علىٰ تسليمه لهم في مكان ما، قبل أن يعود إلىٰ المتسوّل الأنيق ويُجلسه في كرسي السيارة الخلفي علىٰ زعْم إعادته إلىٰ أقرب مسجد، مذكِّرًا إيّاه بأنّ الشريف إذا احتاج اشتغل بينما الوضيع إذا احتاج سأل. وما هي إلّا دقائق معدودات حتىٰ وجد الشحّاذ نفسه في قبْضة شرطة حازمة، ستقذف به حتمًا خارج الحدود، ولسان حالها يصرخ في أذنيْه بأعلىٰ صوت: في الصيف ضيّعتِ اللّبن.

(٣٣) ماتَ!

ذات مساء ريفي دافئ، لملم شتاتَ أسرتي الكادحة حول وجبة عشاء بسيطة لا تتعدّىٰ الخبز والأرز، وشيئا من مزروعات الأرض وخيراتها؛ كالفول والعدس أو البامية والملوخية، وحاش لله أن يكون من بينها اللحم أو السمك او الدجاج؛ هُرع أحدُ الرجال في جلباب فضفاض يستنجد بي للكشف علىٰ مريضٍ أربعيني، كان لي ولغيري نسمة لطيفة إزاء حرّ لافح؛ نظرًا لِما يحمله بين جنَباته من فطرة في صفاء ماء زمزم، تعلوها روح شفّافة كالبلّور، يشهد بذلك ملازمته المسجد المتاخم لبيته. إضافة لوجهه البشوش وأمانته البادية بين جدران دكّان بقالة له يجاور المسجد أيضا..ولله درّ مَن جاور المسجد بيتًا وعملا، وتَمثّله في تعاملاته اليومية سلوكًا وخلُقا!

في جلبابٍ أبيض معطَّر كغادٍ لصلاة جمعة، وحقيبة صغيرة جاهزة لهكذا كشف منزلي طارئ؛ رحتُ أنهب شوارع القرية الترابية المسوَّرة

بأكوام من سِباخ[1]، وأهزم ظلاما يخيّم على بيوتها الطينيّة المتراصّة كعلب الكبريت عن يميني ويساري؛ عدا بعض مصابيح كهربائية عتيقة معلّقة أعلىٰ أعمدة حديدية صدئة، ونورا شاحبا جاد به قمر رقيق يجول فوق رؤوسنا كحارس أمين؛ إذ لم تكن القرية قد غزتها الصراصير المسمّاة بالتوكتوك، والسيارات الخاصة آنذاك كانت في ندرة ماء الصحراء.

وعلىٰ وقْع خطوات حثيثة وأنفاس لاهثة وأصوات متهدّجة؛ علمْتُ من مرافقَيّ أنّ صاحبَنا عبّود، وهو اسم علىٰ مسمّىٰ، عقب ريّه للأرض الزراعية، وأثناء عودته بعد العشاء الأولىٰ؛ وقعَت عليه ماكينة مياه عملاقة كتبَت شهادة الوفاة للسواقي العتيقة وصارت من لوازم الفلاح وعدّته، فخمّنْتُ أنّ به جرحا يحتاج رتقا، وهي مهمّة ليست صعبة لطبيب مثلي حديث التخرّج، أو علىٰ أسوأ الفروض أَلمّ به كسرٌ في الذراع أو الساق، وهذا أيضا يسهل تشخيصه ولا يلزمني سوىٰ إحالته لعمل الأشعة ومنها إلىٰ طبيب العظام.. ولكن كم مِن مرّة نبا سهم التخمين فأتت الأمراضُ علىٰ غير ما يشتهي الطبيب، لا سيّما في ساعات ليليّة لا تأتي دوما للأطبّاء بخير.

(١) السباخ: روث الماشية الجاف، يستعمله الفلاح كسماد بلدي يخصّب به الحقول

وما إن وطأْتُ ساحة البيت الأمامية المسمّاة (الجُرْن)، والذي هو للفلّاح بمثابة الرئتيْن؛ حتىٰ تناهىٰ إلىٰ سمعي صوت النسوة يصطخبْن ويتصايحْن بعدما ملأ الحزنُ حلوقهنّ وعقد عن الكلام لسانَهنّ، وهو ما استجاب له صدري بالعلوّ والهبوط، ووقع في روعي موقع الكرْب العظيم، ولكنّي طمأنتُ نفسي بأنّ النساء قلوبهنّ ليّنة كالعجين ومشاعرهنّ كالنّار مشبوبة، وبالتالي يهوّلْن كلّ حقير ويعظّمْن كلّ ما مِن حقّه التصغير. وبهذا التفنيد، قاومتُ القلق، وقطعتُ الطريق علىٰ قولون عصبي مجنون ينشط في مثل هذه الظروف، ثمّ اخترقْتُ الجمْع المحتشِد بصعوبة بالغة، ودلفْت إلىٰ حجرة رحبة وجدتُها غاصّة بالرجال والأشجان!

ودون مقدّمات، اكتفيتُ بإلقاء سلام بارد، ثمّ اتجهتُ مباشرة إلىٰ مريضي المسجّىٰ فوق سرير مرتفع ذي أعمدة نحاسية طويلة مطليّة بالسواد، ومحاطة بناموسيّة كعادة الأَسِرّة حينئذ. ومن أوّل نظرة، أدركْت كيف تخوننا الظنون؟! وكيف تنهار توقّعاتنا كبنيان خارت قواه وتضعْضعَت فيه السقوف والجدران؟! فالوجه محتقن، والضلوع مهشَّمة، والقبضة مرتخية، والبصر شاخص، والبدن هربت حرارته، والنفَس لا أثر له، أمّا النبض فقد غادر مع الروح إلىٰ غير ذي رجعة! ربّاه: أهو موت الفجأة الذي يهبّ كعاصفةٍ مالها من دون الله كاشفة؟! والأجل

الذي يقطع بسيفه البتّار كلّ أمل؟! واللحظة الفارقة التي لا يستطيع أربابُها توصيةً ولا إلىٰ أهلهم يرجعون؟! وهو ذاته الضيف الأبرز الذي يشيخ علىٰ أثره الأطباء قبل الأوان لكثرة ما يزورهم ويزورونه في غرف الأموات وأقبية الأشباح المسمّاة: غرف العناية المركَّزة، ومسارح العمليات، وأقسام الطوارئ؟!

كان واضحًا أنّ طريق العودة الضيّق بين الحقول، والظلام الرابض علىٰ الأفق، قد حاد بالحمار عن الجادّة، ومالت الماكينة حتىٰ كادت تسقط علىٰ أحد جانبيها، وهو ما قاومه الرجل وتصدّىٰ له بصدر عار وقبضتيْن مرهقتَيْن يشدّ أزرَهما ذراعان لا يملك سواهما بعدما خلت الحقول من الفلّاحين، ولكنّ الحديد ببأسه الشديد أبىٰ إلّا أن يقول كلمته، إذ كانت الماكينة من النوع الضخم الثقيل القادر علىٰ ريّ عدّة فدادين في غضون بضع ساعات، فسقطَت فوق صدره سقوط الفيل فوق بعوضة، وهرستْه هرْس الدبّابة لعودٍ من القصب نام تحت عجلاتها، ليُصاب القلب بخرس دائم، وتعلن الرئة هزيمتها بالضربة القاضية الموجِعة، بعدما تهتّكت الأنسجة وانفجرت الشرايين والأوردة.

وعلىٰ غير عادة الأطباء في مثل هذه المواقف؛ سالت دموع صامتة مالحة فوق خدّي، وخارت قواي حتىٰ كأنّ قدماي من قطن أو ورق، ولم

أجد بدًّا من الجلوس متهاويا علىٰ كنبة بجوار السرير! فقد تحوّلْتُ من طبيب يواسي إلىٰ مكلوم ينتحب، ومِن رجل إطفاء إلىٰ محترِق يصيح، وكان ذلك بمثابة خيبة أمل للحاضرين نزلت عليهم كدُشّ بارد في ليلة شتوية وكادوا يخبطون كفًّا بكفّ! إذ عوّلوا علىٰ ثباتي الانفعالي كطبيب في إبلاغ الخبر المفجِع إلىٰ تلكم النسوة الرابضات في الصالة، وإلىٰ الرجال والشباب المتجمهرين في الجُرْن، والذين يتزايد عددهم دقيقة إثر دقيقة! متناسين أنّ هذا الثبات خبرة تراكمية بيني وبينها فراسخ عدّة، إذ لازال معطفي زاهيًا وإهابي غضًّا وختْم شهادتي لدِنًا طريّا، وما أشبهني بجنديّ مستجدّ في كتيبة، وقارب صغير حديث عهد بمحيط، ورحم الله امرءًا عرف قدْر نفسه فلم يخدعها وعرف قدْر غيره فلم يبْخسه. أضف إلىٰ ذلك أن فنّ إبلاغ الأخبار السيئة للمرضىٰ وذويهم لم نسمع به في الدراسة، وأذكر أنّ أوّل دورة تدريبية تلقّيتها بهذا الخصوص تأخّرَت خمس عشرة سنة عن حفل التخرّج!

وبينما أنا ذاهل عنهم وغارق في لجّة الشجن، إذ بطبيب القرية المخضرم يطلّ علينا بصلعة لامعة وحاجب كثيف ونظّارة سميكة وصوت أجشّ، ليمارس دور المنقذ القادر علىٰ إعلان خبر الوفاة بكلّ رويّة وثبات، ولأنهض بعدها متثاقلا مدمْدِما: كم أنت هشّ أيها الإنسان!

وكم هي رقيقة تلك الغلالة الفاصلة بين الحياة والموت! وكم هي قاسية مداواة الطبيب لأهله وأصدقائه! إذ كيف لرأسٍ أن تعتمر قبّعتيْن في آن واحد؟! قبّعة الطبيب والأب، أو قبّعة الطبيب والابن، أو قبّعة الطبيب والزوج، أو قبعة الطبيب والصديق الصَّدوق!

(٣٤) عناية مركَّزة

لكلّ شيء ظاهرٌ معلَن وباطنٌ خفيّ، وقشرة يكفيها نظرةٌ خاطفة للإلمام بها، ولبٌّ يتطلّب إنعام النظر وإعمال الفكر للإحاطة به. وهنا يتفاوت الناس إلىٰ مراتب حسب إدراكهم لهذا الظاهر والقشرة، أو لذلك الباطن واللبّ؛ فتجد منهم الحكيم والسفيه، والعالِم والجاهل، والألمعيّ والغبيّ..ولكن ما مناسبة هذه الديباجة البحتريّة؟ وما مغزاها؟

في مطلع مشواري الطبّي، وبينما أخطو خطواتي الأولىٰ علىٰ طريق التخصّص في طبّ الأمراض الباطنية، الذي يتيه به أصحابه ويفاخرون علىٰ سواه من التخصصات بحسبانه أمّ الطبّ، بعدما ملأ جعبته بعلوم الأوّلين والآخرين وتشعّب لاحقا إلىٰ حفنة تخصّصات دقيقة تناسلت من رحمه؛ التحقتُ للتدريب بوحدةٍ للعناية المركّزة تستقبل الحالات الحرجة، لا سيّما مرضىٰ القلب والشرايين التاجية التي تئنّ تحت ضغط رباعي الخطر: ارتفاع الضغط والسكّري والكوليسترول، إضافة إلىٰ

التدخين. وذات منتصف ليلة باردة هادئة، أويْتُ إلىٰ غرفتي البيضاء أرضا وجدرانا وسريرا، ومنّيْتُ نفسي بإغفاءة يسيرة تعوّض ما تبدّد من طاقة بدنية وذهنية جرّاء ساعات عملٍ نهاريّةٍ متعاقبة صيّرتني كجدار يريد أن ينقضّ ولا موسىٰ له ولا خَضِر. وما إن احتضنَت الوسادةُ رأسا تفور كالبركان، ولاح اللاوعي مُترَعا بذكريات حالمة تمر مرّ السحاب؛ حتىٰ ارتجّت الغرفة بدويّ جرس إنذار دقّ له قلبي وركض كفرس جامح، فقفزْتُ علىٰ أثره من سريري حافي القدمين متوفِّز الحِسّ مشدود العصب متوجّسًا خِيفة.

وعلىٰ الفور، شخصْتُ بعين مفتوحة وذهن يقظ إلىٰ شاشة بحجم يصل إلىٰ أربعين أو خمسين بوصة، تمثّل وحدة مركزيّة متّصلة بأجهزة طرفيّة موزَّعة في جميع الغرف، وموصولة سلكيا بصدور المرضىٰ لتسجّل نشاط القلب الكهربائي علىٰ مدار الساعة، ويَصدر هذا الصوت المزمجِر عند حدوث تغيّر في نبضات القلب من حيث العدد أو الهيئة، وهو تغيُّر لو تعلمون عظيم؛ إذ يمكن أن يؤدّي إلىٰ توقّف مضغة قلبيّة لا تعرف الغفوة ولا القيلولة، وبتوقُّفها يغيب صوت الحياة ويعلو صوت ترتيلة الموت.

ورغم ما تشير إليه الشاشة الفضيّة من رجفان بطيني خطير، ينقبض فيه البطيْنان بسرعة خاطفة ولكن علىٰ نحوٍ عديم الفائدة، فيجعل رسم القلب

تموّجات هابطة صاعدة علىٰ غير هدىٰ، وكأنها قلم طفل يَخطّ لأوّل مرّة علىٰ السطور بلا نظام ولا معنىٰ، أو مؤشّر بورصة يخبط خبط عشواء في زمن الحروب والأزمات؛ وجدتُ المريضة وادعة ساكنة؛ لا فقدان في وعيها، ولا تَسارُع في أنفاسها، ولا زرْقة في شفتيْها، ولا أثر للاحتضار في عينيْها! وهو ما جعلني أضرب أخماسا في أسداس، هل أصدّق جهازا يهتف: حيّ علىٰ الموت؟ أم أثق في مريضة تهمس: حيّ علىٰ النوم؟ هل أبدأ عملية الإنعاش القلبي الرئوي وأكبس بيدي زرّ جهاز الصدمات؟ أم أعود إلىٰ سريري لأمسك بزمام الحُلم قبلما يغادر غرفتي إلىٰ غير رجعة؟ أتكون مريضتي من ذلك النوع الخارق الذي لا يفقد ثباته عند الخطر فلا تزلزله الزلازل ولا تحرّكه النوازل؟ نعم: نعالج المرضىٰ لا الأجهزة، ونثق بحدْسنا أكثر ممّا نثق بالتحاليل والفحوصات، ولكن الاحتياط واجب والحذر ضروري، خاصة حين يتعلّق الأمر باختلاج خطير كهذا يعدو أسرع من الطبّ، وينقضّ علىٰ الروح كجوارح الطيْر وكواسره المفترسة.

وعقب هذه المداولة الداخلية العصيبة، التي كنت فيها الخصم والقاضي والمحامي؛ رفعتُ سمّاعة الهاتف وأخبرتُ الاستشاري بالفأر الذي يلعب في صدري ويقضم جُبْن فكري، فوفد من منزله القريب دون تردّد، وبعدما فحص المريضة سريعا، قام بفصل جهاز (المونيتور)

المتصل بها، ثم أعاد توصيله وتشغيله، وبالفعل عاد رسم القلب في الشاشة منتظما لا غبار عليه! بمعنىٰ أنّ الخلل كان تقنيًّا لا صحّيّا، وكفىٰ الله المؤمنين شرّ القتال.

تنفسّتُ الصعداء، وأبديتُ اعتذاري للرجل أن حرمْتُه من سريره في تلك الساعة المتأخّرة لشيء لا يستحقّ، والحقّ أنه بدا كُوبًا من الماء البارد في يومٍ صائف قائظ، فلم يضجر ولم يتأفّف، وكان محمود الاسم والخُلُق، وما نطق مُحيّاه سوىٰ بمقولة: لا تثريب عليك، قمتُ بواجبي كما قمتَ بواجبك، ولا ديْن لأحدنا في حقّ الآخَر. بل حكىٰ عن نفسه أيّام يفاعته الطبيّة، وقتما كُلِّف بمتابعة مريض أُجريت له عمليّة جراحية كبرىٰ في البطن، وأثناء تفقّده لكمية البول التي أفرزتْها الكلية علىٰ مدار الأربع والعشرين ساعة الفائتة من خلال كيس معلّق بقسطرة بولية، بحسبانها علامة حيوية مهمّة تدلّل علىٰ سلامة الجسم وأجهزته الداخلية؛ فوجئ بخلوّ الكيس من ذلك السائل الذهبي المُسمّىٰ بولا! فدارت في رأسه احتمالية الفشل الوظيفي للكليتيْن، أو قطْع الحالب بالخطأ أثناء العملية الجراحية وما يتخلّلها من عبث بالأحشاء وفوضىٰ الدماء ومشارط تسبح ذات اليمين وذات الشمال. وعندها هُرع إلىٰ اختصاصي الكُلىٰ، الذي فحص أسفل بطن المريض وعثر علىٰ مثانة مكتظّة كبالون علىٰ وشك

الانفجار، واتضح أن انثناء أنبوب القسطرة تحت فخذ المريض هو ما وقف عائقا دون وصول البول من المثانة إلىٰ الكيس، أي أنها مشكلة مرورية لا مركزية.

(٣٥) النّبي قَبل الهديّة

طبيعيّ أن يجود المرءُ ويسخو فيقدّم هديّة لأمّه وأبيه، أو زوجته وأولاده، أو صديقه وزميله؛ ليوطّد علاقة قائمة ويرويها بماء الديمومة، أو يعرب عن شكره وامتنانه إزاء جميل ما، لا تكفيه كلمة شكر أو حتىٰ قصيدة شِعر، علىٰ اعتبار أنّ الهديّةَ لغةُ العاطفة كما المعرفة لغة العقل والحُبّ لغة القلب والعشق لغة الروح. ولكن ماذا وراء إهداءات المرضىٰ لأطبّائهم، بعدما أتوهم علىٰ مضض يجرجرون الأقدام، وفي ظرف مُلِحّ اصفرّت فيه الوجوه وشحبت الجلود، وربّما لزيارة أولىٰ لم يسبق أن التقت قبلها العينُ بالعين وصافح الوجهُ الوجه؟!

والواقع أنّ الهدايا من النوع الثاني لها وقع السّحر في نفوس ذوي المعاطف البيضاء، فتنزل عليها بردًا كماء العين وسلامًا كليلة القدر، إذ أقصىٰ ما يطمح إليه الطبيب بعد أن نال أجره المادي، دعوةً مستجابة من فم المريض وأقربائه تُعلي في السّماء ذكره، أو شهادة ثناء تشيد بعبقريته وإنسانيته فيتقاطر عليه المرضىٰ وحدانا وزرافات.

ومن بين تلك العطايا التي تهلّ كالغيث دونما توقُّع؛ أذكر سيّدة خمسينيّة تردّدت على العيادة مرارًا لشكايات عارضة كالحمّى والإسهال والسعال والصداع وما شابه، ولكنها في هذه المرّة جاءت فقط لتسألني: هل سيارة حضرتك هي البيضاء الكائنة تحت المظلّة؟ فأجبتُها باستغراب: نعم نعم! ثمّ رحلَت وشُغِلْتُ عنها بمرضاي، ولمّا انقضى الوقت وحان أوان العودة إلى البيت، إذ بي أجد في جوار السيارة دلْوا بلاستيكيا مليئا بجيّد أنواع التمور المعبَّأة، تبلغ زنتُه نحو عشرين كيلوجراما!

مريض ثان تغاضيتُ عن أخذ مقابل مادي نظير فحص ولده الذي ألمّت به أزمةٌ ربويّة، واعتبرتُها مجرّد استشارة عابرة كلقاء الغرباء، فصار يتعهّدني بين الفينة والأخرى بعبوّة عسل فاخر، نظرا لعمله في منحل يقوم على تربية النحل وجنْي وبيع العسل. وزيادةً في الخير، فقد أَردف عسلَه ذات يوم بقارورة صغيرة حافلة بغذاء ملكات النحل الذي قِيل في فوائده ما قيل في جمال الحور العين! وهي فوائد لم يحالفني الحظّ في قطْف أيّ منها، هذا لأنّني تذوّقتُه فوجدتُه لاذعا جدّا، ثمّ ناولتُه غير آسِف إلى مَن يشتهيه اشتهاء الصّادي للماء الفرات، ويَقْوَى على تجرُّعه واسْتراطه حتى لو بلغ في مرارته وكراهته نقيع الحنظل، متمثِّلا قول أبي تمّام: لن تبلغ المجدَ حتى تلعق الصبْرا.

أمّا ثالثهم، فشيخٌ كبير انفرط العقد السادس من عمره وحلّ ضيفا بمعترك المنايا، وبهذا خانتْه قواه الجنسيّة، وطفق يلتمس لها الحبّة الزرقاء (فياجرا)، فكنتُ له نعم السند عبر عيّنات طبيّة مجانيّة تتصدّق بها شركات الدواء علىٰ الأطباء، ليس لسواد عيونهم وحمْرة خدودهم، ولكن لغرض ليس بخافٍ في نفس يعقوب[1]. وبعدما آتت الحبوبُ أُكلَها، إذ بالرجل يهديني ساعة يد بديعة، ويجعل لي نصيبا مفروضا من خيرات مزرعته العامرة بالفاكهة والخُضروات، معقِّبا في كلّ زيارة يتحفني خلالها بهداياه قائلا: النبي قبل الهدية.

وختاما، مريضي بداء الملوك (النقرس)، الذي حزم حقائبه وشدّ رحاله إلىٰ الغرب الآسيوي حيث دولة جورجيا الناهضة علىٰ أنقاض الاتحاد السوفيتي، وذلك في نزهة عائلية بين أحضان الطبيعة الخلّابة والأجواء البِكر والوديان الجبلية، إضافة إلىٰ المحميّات الطبيعية والبحيرات الساحرة والآثار العتيقة والترام الجوّي الذي يطير بك بين هاتيك المعالم ويقلّك كبساط الريح، ثمّ خصّني بهديّة تذكارية سَنيّة لا زال أثرها ماثلا أمام عيني.

---

(١) جاء في بعض الدراسات الميدانية عن الهدايا المقدَّمة من شركات الأدوية للأطباء، أن بعض الشركات تخصص نحو ٢٣٪ من ميزانيتها الترويجية لهذا البند، وأن تلك الهدايا تسهم في كتابة الأطباء لوصفات دوائية أغلى سعرا وأقل كفاءة، أحيانا دون وعي تام منهم لأبعاد تلك الهدايا.

ولا أخفيكم سرًّا أنّ ما سبق سرده ليست سوىٰ أمثلة، وإلّا فالحبل طويل والفُلك كسفينةِ نوحٍ مشحون، وفيه ما فيه من مأكولات ومشروبات وملابس وكتب وعطور وورود وأدوات مكتبية، بعضها مطرَّز بكلمات رقيقة من خطّ بديع لا يشبهه سوىٰ خطّ شيخ الخطّاطين (ابن مُقْلة)، ونعوذ بالله من شرّ حاسد ونفْث نافث.

وهنا أنوّه بأنّني لستُ بدعا في القياس، ولا طاووسا بين حُمْلان؛ فبالتأكيد ثمّة زملاء أطباء أفاضل نالهم من الحظّ جانب وربما جوانب. وإن أنسىٰ، لا أنسىٰ طبيبًا هنديا رافقتُه لعامَيْن، قبل أن يغادر عائدا إلىٰ بلده بعد أربعة عقود قضاها بين مرضاه في عيادة خاصة، وكيف أنّ أيّامه الأخيرة أنفقها في تسلُّم الهدايا من مرضىٰ يخالفونه الوطن واللّغة والمعتقَد، ولكنهم درجوا معه منذ الصغر وكان لهم نِعم الطبيب وخيْر المستشار، بعدما زرع شتلة الثقة في حدائقهم وتبدّلَت العلاقة بينهم مِن داء ودواء إلىٰ إنسان وإنسان، ومن طبيب ومريض إلىٰ صديق وصديق، وهي العلاقة المُتوخّاة في حقل الممارسة الطبيّة منذ إمحوتب وأبقراط وابن سينا، إلىٰ أن تقوم الساعة فيَفنىٰ الطبّ والمرض ولا يبقىٰ للداء والدواء أثر.

(٣٦) فهمْتني؟

زارني أحدُ مرضاي يشكو من دُوار حميد، وأثناء سرده لشكواه راح يردّد بين كلّ جملة وأخرىٰ: فهمتني؟ ودون أن ينتظر منّي جوابا، مضىٰ في حديثه علىٰ النهج والإيقاع ذاته. والواقع أنني لم أفهم منه شيئا، أوّلا لأنّ سرده واضح لا غموض فيه وبالتالي لا حاجة لإعمال الفهّامة، وثانيا لانشغالي بإحصاء كلمة (فهمتني؟) بينما الابتسامة الخفيفة لا تفارق شفتيّ. ورغم أنّ الكلمة قد يُساء فهمها حين يظنّها المرء اتهاما بالغباء في حقّ السامع وادّعاء للعمق في حقّ المتحدِّث، إلّا أنني تقبّلتُها بكلّ أريحية؛ بحسبانها لازمة لفظية رشحت من عقله الباطن وصارت لكلامه كالظلّ دون أن يعي ذلك ويفطن إليه.

وللإنصاف، قلّما تجد إنسانا يخلو من لازمة لفظية تتخلّل كلماته وتصحبها مصاحبة علامات الترقيم للجُمل والصدىٰ للصوت، كأن يقول أحدهم: (تمام؟) أو (واخد بالك؟) أو (والله) أو (يعني) أو (لذا) أو

(ربّما)، أو الـ (أاا) الشهيرة علىٰ لسان الرئيس السادات. وهي في حدّها الأدنىٰ لا غضاضة فيها ولا تثريب علىٰ صاحبها، فكما لكلّ منّا بصمته، لا ضير في أن يكون له لازمة لفظية ربّما تفيد في تنبيه السامع وعصمته من الشرود. ولكن يقع الضيْر حينما تتكرّر بطريقة فجّة تصيب السامع بالسأم، وتحوّل تركيزه من متن الحديث إلىٰ هامشه ومن أصله إلىٰ فرعه، تماما حين يتناهىٰ إلىٰ سمعنا أغنية ذات لحن فاقع ذابت علىٰ أثره الكلمات وتبخّرت المعاني، ولم يبق منها سوىٰ الإيقاع الأجوف: تِك تاك، تِك تاك! كما يحصل التثريب حين يقترفها الخطباء المتصدّرون للمجالس، والدعاة المتربّعون علىٰ المنابر؛ كأحدهم الذي أقحم كلمة (يعني) أكثر من خمسين مرّة ضمن مقطع صوتي مدّته عشر دقائق لا غير!

وهنا يدخل علماء الاجتماع علىٰ الخطّ ومعهم المختصّون في علم النفس، ليفسّروا هذه اللازمة اللفظية علىٰ أنها تعبير عن التوتّر والاضطراب وقلّة الثقة بالنفس، وحيلة لا واعية يلتقط فيها المتحدّث أنفاسه ويستدعي أفكاره ويرتّب الجملة وراء الجملة، وكأنّ لسان حال هذه اللازمة يقول: فاصل ونواصل. بينما يجرّدها البعضُ الآخَر من حمولتها السلوكية ويرونها مجرد تأثُّر عميق بشخص ما، صديقا كان أو معلّما أو شيخا أو حتىٰ أبا وأمّا، اقترب منه صاحب اللازمة وشُغف به ثمّ تقمّص عباءته وشرع بتقليده دون أن يدري، في إشارة إلىٰ سطوة العقل

الباطن الذي يدير أغلب حياتنا، تماما كوزير يجلس في الكرسي الخلفي للسيارة منفردا منبجعا، ليوجّه السائق والسيارة بإصبع منه إلىٰ الوجهة التي يريدها.

وكما اللّازمة اللّفظية، هناك لازمة حركيّة قد يبديها الشخص بصفة دائمة فتصبح علامة مميّزة لشخصه وماركة مسجَّلة باسمه، كأنّ يحرّك أحدهم رأسه ذات اليمين والشمال بين الفينة والأخرىٰ، أو يحكّ رأسه، أو يعبث بياقته، أو يهزّ قدميه أثناء الجلوس بطريقة متسارعة منتظمة كما تفعل إحدىٰ بناتي الكريمات ويسمّيها البعض لازمة العباقرة! وهذه اللوازم الحركية غير المَرضيّة، هي التي أَجهد فيها خبراءُ البرمجة العصبية وعلم النفس السلوكي أذهانهم، وصاغوا منها لغة للجسد يصنّفون بموجبها الأشخاص ويضعونهم علىٰ طاولة التشريح السلوكي ومقعد التحليل النفسي، وهو أمر لا يخلو من اعتساف وتعميم في بعض الأحيان.

أمّا اللازمة الكتابية، فهي التي نلحظها لدىٰ الكُتّاب، لدرجة أنك تستطيع تمييز هذا الكاتب من ذاك عبر لازمته الكتابية، ومن ذلك أنّني وبعد فترة من صحبة القلم، اكتشفتُ تكراري غير المبرّر أحيانا للاسم الموصول (الذي والتي)، قبل أن أشنّ عليه حربا شعواء وأتخلّص منه قدر الإمكان، لا سيّما أنّ وجوده الكثيف يهلهل الجمل ويفقدها رشاقتها. ومن ذلك أيضا ما ذكره أنيس منصور عن كتابه الشهير حول العالم في

٢٠٠ يوم، إذ لاحظ تكرارا كثيفا لكلمة (جدّا)، فأعاد الصياغة في طبعته اللاحقة متخلّصا من هذه اللازمة التي لم تمنع فوز الكتاب في طبعته السابقة بجائزة الدولة في أدب الرحلات.

والحقّ يُقال، أنّ تلك اللوازم اللفظية والحركيّة والكتابيّة، هي في أغلبها حشو لا طائل من ورائه، وأحجار تعرقل السيْر، ويجمُل بنا أن نتلافاها قدر المستَطاع. وهو أمر بالدّربة والتمرين جدّ يسير، ويقع علىٰ عاتقنا دون غيرنا، في الوقت الذي يُناط بالآخَرين اكتشافها والتنبيه إليها، إذ يندر أن ينتبه الشخص إلىٰ لازمته دون معاونة من أحد أفراد أسرته أو أقربائه ورفقائه، علىٰ اعتبار أنّ المرء مرآة أخيه، وهو منه بمثابة عين ثالثة تريه ما غاب عن ناظريْه. هذا إذا استثنينا بعض الحاذقين الدّؤوبين علىٰ ممارسة فضيلة النقد الذاتي بإصرار وموضوعيّة.

(٣٧) أزمة قلبية

منذ نعومة أظفاري، عهدتُني كارها أشدّ الكره للسهر المصنَّف كوباء عالمي خفي، وضاربًا عرض الحائط بقول شاعر الرباعيّات عمر الخيّام: "فما أطال النوم عمرا...ولا قصّر في الأعمار طول السّهر"؛ إذ أبدو معه كمَن ضُرب بعصا غليظة فوق رأسه، فاستحالت الرؤية ضبابا، وتداخلت الصور والأصوات كمقطع (فيديو كليب)، وباتت خطواتي أفقيّة مترنّحة كمَن يقيس عرض الطريق أو يرقص رقصة الدراويش المولوية. ولَطالما وددْتُ أن تغلق الحياةُ أبوابها مع صلاة العشاء، ويعود كلّ طائر إلىٰ عشّه دون استثناء، فتخمد أنفاس الزمن ويَعقِم كالبغال، بينما يخيّم علىٰ المكان صمت كثيف لا يقطعه سيف أو سكّين..ولكن ليس كلّ ما يتمنّاه المرء يدركه، لا سيّما في عصر نشاز يدور ضدّ اتجاه عقارب ساعة الفطرة.

وهكذا، اعتدتُ مُكرَها غلْق أبواب عيادتي في العاشرة مساء، ثمّ النوم في الحادية عشرة والنصف كأقصىٰ حدّ، وهو في عرف الكثيرين نوم مبكّر

يتندّرون عليه ويشبّهونه بنوم الدّجاج، ولكن لا ضير، فخير لي أن أكون دجاجة طيّبة تخلد إلىٰ قنّها مبكّرا وتفرك عينيْن كخرَزتيْن مع أذان الفجر، مِن أن أكون إنسانا متمرّدا لا يقرَب فراشه إلّا بعد انتصاف الليل واحمرار العين ودوار الرأس، ولا ينهض منه إلّا عقب ارتفاع الشمس وتوزيع الأرزاق وانتهاء بركة البكور!

في هذه اللّيلة سارت الخطّة كالمعتاد، باستثناء وحيد، وهو الطارق الذي مزّق حجاب الليل وأطفأ سراج السكون، فدقّ البابَ بإلحاح راجيًا إيّاي مصاحبته للكشف علىٰ أخيه المريض في منزله، ودعنا نسميه (جمال) فقد كان بالفعل جميل الخَلق والخُلُق، ولأنّ جمال هذا محامٍ أربعيني يمتّ لي بصلة قرابة بعيدة، وله من الفضل ما لا يُجحد ولا يُنكر؛ فقد لبّيتُ طلبه علىٰ الفور، ورُحنا نذرع الطريق الترابي المسيَّج ببيوت أغلبها طينيّة متواضعة، سعيًا إلىٰ بيت له جديد وضع فيه حصيلة غربة طويلة قضاها كادحا علىٰ ساحل الخليج العربي. ومِن فم مُرافقي، علمْت أنه يشكو ألما أعلىٰ البطن وأسفل عظمة القصّ مع ميل للقيء، فخمّنتُ علّةً هيّنة ببيت الداء (المعدة) ناجمة عن زيادة الحموضة جرّاء عشاء دسم أرهق الجهاز الهضمي وكلّفه فوق احتماله.

وما إن رآني جمال بجوار سريره، حتىٰ استبشر بقدومي وقبض علىٰ ذراعي كغريق وجد طوق نجاة، أو طفل تائه عثر علىٰ يد أمّه وسط زحام،

ولكن وجهه المربدّ الشاحب، وجبينه البارد المعروق، وأنفاسه الضيّقة المتسارِعة، وضربات قلبه المتباطئة المضطربة؛ جعلتْني لا أبادله الاستبشار؛ إذ بدا الحال أزمة قلبية حادّة لا مجرّد حامض في المعدة يعرْبد وجهاز للهضم يزمجر! وعندها حاولتُ طمْأنته ببضع كلمات معتادة لم يُعرها انتباهه وأخذ يغمْغم: (متْسِبْنيش أنا بمُوت). أفلتُّ ذراعي من قبضته بلطف، بينما قلبي يتمزّق من وقْع كلماته ونظرات عينيه، ثمّ اختليْت بأخيه وشدّدتُ عليه بنقله علىٰ وجه السرعة إلىٰ المستشفىٰ، لإجراء تخطيط للقلب واتخاذ ما يلزم حيال احتماليّة إصابته بأزمة قلبيّة علىٰ وقع انسداد الشرايين التاجيّة المغذّية لعضلة القلب.

في صباح اليوم التالي، أَطلعني أخوه علىٰ تخطيط القلب، وأَنهىٰ إليّ خبر حجزه في قسم الرعاية المشدَّدة لمرضىٰ القلب بعد تأكيد تشخيصه بالأزمة القلبية، وساعتها وضع علىٰ طاولتي علامة تعجّب كبيرة عن كيفية إصابته بهذا المرض رغم نضارة شبابه وعدم معاناته من ارتفاع سابق بالضغط أو إصابته بمرض السكّري؟! وفاتَه أنّ جمال بدين ومدخّن، وزيادة الدهون في الدم كفيلة علىٰ مرّ الزمن بإغلاق مجرىٰ الشرايين وإعاقة سير الدورة الدموية، ومن ثمّ جلب المصائب تترىٰ للقلب والدماغ والرئتين والأطراف. إضافة إلىٰ أنّ الأمراض عموما لا تعترف بقوانين صارمة ولا تخضع لمنطق الرياضيات، بما يعني أنّ الاستثناء فيها حاضر وأحيانا دون سبب مفهوم.. وفوق كلّ ذي علم عليم.

وبعد صلاة العصر، وبينما أتداول مع صديق لي موعد ذهابنا لزيارة جمال في مشفاه صباح الغد، إذ بأخيه يقبل علينا بوجه ممتقع، وينعي إلينا خبر الوفاة الذي انغرس في قلبي كخنجر؛ علىٰ اعتبار أن الطبيب يسعده دوما السماع بشفاء مريضه وإبلاله من دائه، بينما يشقيه ويغمّه حدوث أيّة مضاعفات واختلاطات، فما بالك بالوفاة! ثمّ إنّ صغر سنّ المتوفَّىٰ، وأرملته الشابّة، وأطفاله الذين تركهم خلفه كنبْت أخضر وزهور غضّة، لا شكّ يعظّم حجم الأسىٰ ويثير المزيد من الشفقة والتعاطف. إضافة إلىٰ كوْنه –وسبحان الباقي– لم يهنأ ببيته الجديد الذي حلم به، وتغرّب من أجله، وانتهي قبل أيّام من بنائه علىٰ الطراز الخليجي، ولا زالت رائحة الدهانات والأصباغ تعبق بها الأسقف والأبواب والجدران والنوافذ!

وبهذا أَسدل الموتُ الستار وطوىٰ لجمال صفحتَه وسكب ما في دواته من مداد، ولم يترك لي مجالا سوىٰ الترجيع، والدعاء بالمغفرة، والتّمْتمة بقول القائل:

"لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلّا التي كان قبل الموت يبنيها

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودُورنا لخراب الدهر نبنيها

لا تركنـنّ إلىٰ الدنيا وما فيها فالموت لا شكّ يفنينا ويفنيها"

(٣٨) تأمّلات صائم[١]

المؤمن كيّس فطن..هكذا ورد في حديث ضعيف أو موضوع حسب تصنيف المُحدِّثين وفقهاء الجرح والتعديل، وإن بقي المعنىٰ صحيحا لا تشوبه شائبة وفصيحا لا تخالطه عجْمة. والكياسة والفطنة هنا، تحثّ المؤمن علىٰ التحلّي بيقظة الحسّ والشعور، ورجاحة العقل والفؤاد، وذكاء القول والفعل؛ فلا يزدرد طعاما إلّا ويدري أصله وفصله، ولا يحتسي شرابا إلّا ويعلم أمه وأباه وفصيلته التي تؤويه، كما لا يضع قدمه حيث يجهل، ولا ينفق ماله إلّا فيما يفيد وينفع، ولا يرتدي ثوبًا سوىٰ اللائق لزمانه والسائغ لمكانه.. وإلّا صار المؤمن كما فهم بعض المصحِّفين، كِيس قُطن؛ من خيوطه يَنسج العدوُّ لنا الثوب، وكالكرة يَتلاعب بنا القوم، وبالدينار نُباع في الأسواق كالرقيق ونُبتاع!

(١) نُشر في العدد الأسبوعي من جريدة اللواء الإسلامي بتاريخ ٦ مايو ٢٠٢١ تحت عنوان (يوميات صائم).

تذكّرْتُ هذه المقولة اليوم؛ فتحْتَ وطْأة جوع الصوم وعطشه، لا سيّما في مستهلّ رمضان وانقطاع النفْس عمّا أَلِفَتْه من عادات الأكل والشرب والنوم؛ رُحتُ أتفرّس عقب صلاة العصر في سجّادة تركيّة اكتسَت بها أرضيّة المسجد مع مطلع الهلال، تغوص من ليونة مخملها الأقدام، وتنخدع لجاذبيّة ألوانها الأبصار، ولكنّها –وبكل أسىٰ– تدفع المرء دفْعا ليحكّ مؤخّرة رأسه ويضرب أخماسا في أسداس إزاء تكلفتها البالغة بضعة وعشرين ألف دولار أمريكي، أي نحو ثلث المليون من الجنيهات المصرية! ثمّ مضيتُ أتأمّل علامات التباعد بين المصلّين والمصفوفة علىٰ طريقة رقعة الشطرنج، أملا في الحدّ من غوغائية هجْمة لعينة لجائحة كورونا المستفحِلة. ولَم أَنْس التنقيب عن مخبأ سرّيّ أُودِع فيه سجّادتي القشيبة، لأتخلّص من عناء حملها ذهابًا وإيابا من العيادة إلىٰ المسجد كما تقضي تعليمات الصلاة إلىٰ أجلٍ غير معلوم.

وأثناء هذا التفرُّس والتأمُّل والتنقيب الذي صرفني –سامحه الله– عن الخشوع في أذكارٍ يجرىٰ بها اللسان كالخيل وتعقده الأنامل كآلة حاسبة؛ وقع بصري علىٰ تي شيرت ملوَّن يرتديه مصلّ بنجالي، رُسِم علىٰ صدره قلب أحمر بحجم عائلي، وكُتِب تحته بخط إنجليزي بارز ما ترجمَته: قلبي لا ينبض إلّا بحبّها[1]! ولمّا سألته باسما إن كان يعلم معنىٰ هذه

(١) My heart beats only for her

اللوحة الرومانسيّة التي يرفعها كالإعلان في ممشاه ومصلّاه، ولا تفارقه في صحْوه ومنامه؟ أجاب بالنفي القاطع. مع أنّ التي شيرت يبدو طاعنا في السنّ وقريبا من التقاعد، علىٰ عكس إزار بُنّيّ رخيص يستر نصفه السفلي ويبدو في سنّ اليفاعة والشباب.

طبعا عذرْتُ جهله باللغة، وقدّرتُ أنّ دافعه الأساسي لشراء التي شيرت ليس سوىٰ عرض سخيّ أسال لعاب جيبه بعدما هبط بالثمن إلىٰ النصف وربّما الربع، ثمّ استعنْت بصديق ملِمّ بالعربية والبنغالية وهم كُثُر، ليشرح له معنىٰ المكتوب، ويشير عليه بقصْر ارتداء هذا التي شيرت الحالِم الولهان، علىٰ غرفة نومه، وإعفاء المسجد من قلبه النابض بلهيب حبّها!

غنيّ عن القول أنّ ثمّة مكتوبا علىٰ الملابس المستوردة، أنكىٰ لفظا وأشدّ معنىٰ، بألفاظ صريحة تارة، وبألفاظ مفخّخة تارة أخرىٰ.. ولكنّي هنا فقط أشير، والحرّ تكفيه الإشارة، شريطة أن تكون لطيفة العبارة..ولعلّ الغفلة يومًا تفارقنا والفطنة تعانقنا واليقظة العُمَريّة تحلّ بدارنا، تلك اليقظة التي عبّر عنها ابن عباس حين سُئل عن عمر رضي الله عنهما فقال: كان كالطّير الحذِر، يرىٰ أنّ له في كلّ موضع شَرَكا.

(٣٩) نبأ عظيم

عرفتُه معرفة عابر سبيل من خلال مطعم له اعتدتُ التردّد عليه بصفة شبه أسبوعية لشراء ما يلزمني من طعام، إذْ غادرتْني أسرتي في تلك الدولة الخليجية، ورحت أتدبّر مأكلي بعيدا عن مطبخ لا يُوقد فيه نار إلّا ما ندر، ويَحول الحوْل علىٰ اسطوانةٍ للغاز رابضة في مكانها كالتمثال لا تبرحه. كان وسطا في الطول وإن كانت سمْنته المفرطة توحي لرائيه بالقِصَر، هادئ القسمات خفيض الصوت حتىٰ لتستبعد أن تزوره سوْرة الغضب مهما تكالبت عليه الضغوط، كما كان وَدودا منبسطا يشقّ طريقه إلىٰ قلبك في غمضة عين أو دونها.

دارت الأيّام كالساقية صعودًا ونزولا وتأرجحت كالبندول يمينًا ويسارا، ثمّ لعبت بالبشر جائحةُ كورونا، فلم تميّز بين غريب ومقيم أو سمين ونحيف أو طيّب وشرّير، فزارني في العيادة يئنّ من آلام مبرحة تطحن عظامَه كالرحىٰ، وحمّىٰ عاتية جاوزت الثامنة والثلاثين بكثير،

وكان هذا كافيا للإشارة إلىٰ عضويّته القسْرية في نادي كورونا العالمي. وعندها نصحتُه بالراحة ومسكّنات الألم وخافضات الحرارة والإكثار من السوائل، وطمأنتُه أنّ هذا عارض يزول وإلىٰ الشفاء بأمر الله يؤول.

بعد يومين عاود الزيارة يشكو قلّة النوم وضعف الشهيّة وانتكاس حاسّتَي الشمّ والتذوّق، مع استمرار الآلام والحمّىٰ ذاتها، فطمأنتُه أن لا خطر محدق. ثمّ اصطحب زوجة شرعت تعاني الأعراض ذاتها ولكن بوتيرة أهدأ وصورة أقلّ حدّة، وهو ما يعضّد إصابته دون إجراء فحص بالمسحة كان قد أعرض عنه توفيرا للنفقات، خاصة بعدما علم أنّ العلاج لن يتغيّر كثيرا عن ذي قبل.

وبينما مضت الزوجة إلىٰ طريق التعافي، إذ به يبدأ في سعال جاف مصحوب ببعض ضيق في النفَس يظهر جليّا مع المجهود، وهما علامتان خطرتان، زادهما خطرا انخفاض نسبة الأوكسجين في الدم إلىٰ ما دون التسعين! وبهذا تحوّلت وجهة المرض من أعراض فيروسية اعتيادية، إلىٰ التهاب رئوي حادّ مزدوج، يلزمه تدخُّل طارئ بالحجز في المستشفىٰ، والخضوع لعناية مشدّدة تحقنه بمضادات الفيروسات وتضخّ الأوكسجين في دمه وتمدّه بقائمة دوائية تتفاوت منهجيا من مركز علاجي إلىٰ آخَر، علىٰ اعتبار أننا بصدد وباء جديد يخضع للأبحاث والتجريب، ويقبل بهذا الرأي وذاك.

ولأنه يعمل بقطاع غير حكومي، فقد ساقته قدماه إلىٰ مستشفىٰ خاص أَجرىٰ له الفحوصات الأوّلية قبل أن يطلب مبلغا خياليا نظير توفير الرعاية المركّزة لرئتيه المنهَكَتيْن، وهو مبلغ لا يملك نصفه ولا رُبعه ولا ثُمنه، فكَزّ علىٰ أسنانه، وتَحامل علىٰ نفسه يوميْن آخرين، مكتفيًا بوصفة علاجيّة طلبها من طبيبه!

في منتصف الليل، استغاثني بصوت لاهث ونفَس متقطّع وجبين معروق، فشدّدتُ عليه بالذهاب العاجل إلىٰ مستشفىٰ حكومي قريب يقدّم خدماته بالمجّان لمثل حالته دون تفرقة بين وافد ومواطن، فذهب من فوره، وببعض الدعم من كفيله الرؤوم، تمّ تنويمه وبدْء بروتوكول العلاج. إلىٰ هذه اللحظة بدا متماسكا ومتعاونا، ولم يذهب تفكيره إلىٰ أبعد من يومين أو ثلاثة يتلقّىٰ فيها حفنة إبر وبضع لترات من الأوكسجين ثم يعود لممارسة عمله الذي يتكسّب من ورائه قوت أسرة ناشئة قوامها ربّة بيت وثلاثة أطفال.

وبمضي الوقت، باتت الأيام ثقيلة الوقْع بطيئة الخطْو؛ قناع الأوكسجين لا يغادر فمه، والفيروس في رئتيه ينهش، والحمّىٰ بالعرق تمسّده، وبالطبع كان معزولا وراء جدران باردة، ووحيدا وسط صمت مطبق لا يقطعه سوىٰ طاقم طبّي ملثَّم بأغطية تستر البدن من الرأس إلىٰ القدم، فتخلع علىٰ صاحبها رهبة الغوّاصين ومهابة روّاد الفضاء وكابوسيّة

الأشباح. كانت هذه الأجواء الموحشة كافية ليجتاحه الرعب ويتسرّب إليه الهلع، لا سيّما بعدما واصل إكسير الحياة هبوطه ولجأ الأطباء إلىٰ إدخال أنبوب في قصبته الهوائية ووضْعه تحت جهاز التنفّس الصناعي، ومعلوم أنّ المرء يدرك قيمة الصحة حين يمرض، ويزداد بالحياة تعلّقا كلّما اقترب من شاطئ الموت.

وكما ساءت صحتُه العامّة عقب فقدَان الرئتين قدرتهما علىٰ تنقية الدم من ثاني أكسيد الكربون السام، فقد ساءت حالتُه النفسية بعدما انتابتْه الوساوس بدنوّ الأجل واقتراب ملَك الموت، حتىٰ أنّ الفريق الطبي اضطُر إلىٰ الاستعانة عليه بزوجته، مع ضمّ طبيب الأمراض النفسية إلىٰ خطّة العلاج المكتظّة وإلىٰ فريق طبي صار يضاهي فريق كرة القدم عددا، وهو ما لم يُجْدِ نفعا؛ إذ حصده الردىٰ حصد الفلّاح للزرع، ورماه القدر بسهم الموت المحتوم فجر اليوم الواحد والعشرين من حجْزه، لينضمّ بذلك جوادُه إلىٰ ركب أربعة ملايين جنْدلها السيّد كوفيد بحربته النافذة وخنجره المسموم، وياله من جبّار كالتتار! بدأ هجمته في ديسمبر من يوهان الصينية، ثم عاث في الأرض فسادا وصنفته منظمة الصحة العالمية في مارس ٢٠٢٠ كجائحة، وفي يونيو التالي كان قد دب بقدمه الثقيلة ١٨٨ دولة، ولا زال حتىٰ الساعة يرعىٰ في البشر بلا هوادة.

زلزلت الوفاةُ كيان زوجته وأصدقائه ومعارفه، إذ ظنّوا أنّ صغر سنّه الذي لم يتخطّ الأربعين، وسلامة بنيانه الخالي من أيّة أمراض مزمنة كالضغط والسكّري والسرطان، كفيلان ببُرْئه وعودته إلىٰ تيّار الحياة الصاخب، وهو ظنّ أبعد ما يكون عن قدر قاهر وحكيم لا يخضع لِما تثرثر به أدمغة البشر من افتراضات تبدو منطقية وعقلانية في ظاهرها. وكعادة المحن التي تصهر النفوس صهرا، وتُبرز أنبل ما فيها من شيم وفضائل؛ تكاتف أهلُ الخير لمواساة الأسرة ماديا ومعنويا، بدءا من دفنه الذي تمّ علىٰ غير إرادة أخ شقيق أصرّ علىٰ نقله جوًّا إلىٰ بلدته وموطنه، متناسيًا أنّ ذلك يكلّف ما لا طاقة للأسرة به في ظل توقّف حركة الطيران وقصْرها علىٰ الرحلات الاستثنائية، ومتناسيا أيضا أنّ وطنًا خذلك وتخلّىٰ عنك حيًّا لن ينصفك ميتا، فما هو بحاملٍ عنك وِزرا ولا مضيف إلىٰ حسناتك رصيدا. ثمّ إنّ الأرض كلّها لله، ولا فرق بين أرض نعيش فوقها أحياء إلىٰ أن تحين ساعة الرحيل، وأرض نأوي إلىٰ باطنها أمواتا إلىٰ أن يحين أوان البعث والفصل.

وبينما انهمك الأصدقاء في تصفية مستحقّاته من عمل كان فيه شريكا بالرُّبع، وشرعت الزوجةُ تلملم أطراف ثُكْلها وتطوي بالحسرة حصير غربتها استعدادا للرحيل؛ إذ بنبأ عظيم ينزل عليها كالصاعقة ويباغتها كضربة قاضية؛ فالمال الذي يستثْمره الزوج في عمله يخصّ آخَرين، وما

هو إلّا كحارس القصر وحامل الأختام وساعي البريد، وهو ما لم يُشِر إليه قبل رحيله عبر وصّية نصح بها الشرع الشريف وأكّد! والواقع أن هذا النبأ، علىٰ إزعاجه، ساهم كثيرا في قبول الزوجة لدعم مادي غلبها الحياء في أوّل الأمر ورفضت بموجبه ما اعتبرتْه صدقة تمسّ كرامتها وتُنقص من قدْرها، فتحت ضغط الحاجة قد يقبل المرء بما لا يهواه ويسلك طريقا طالما نَدّ عنه ورفع في وجهه السبّابة.

(٤٠) سيادة المدير

صحيح أنه لا توجد مهنة تخلو من المتاعب والمصاعب، وكلّ امرئ يَعدّ مهنتَه هي الأشقّ؛ إلّا أنّ مهنة الإدارة التي تبدأ عندها كلّ الأمور وتنتهي، تبقىٰ هي صداع النهار وأرق الليل، ولاذعة الشتاء ولافحة الصيف، وتلك حقيقة لا يعلمها إلّا مَن كابدها، وليس مَن عاش ورأىٰ كمَن سمع وقرأ.

ففي ذات حقبة من عمري المهني، وجدتُ نفسي يوما، ودونما ترتيب، طبيبا مسؤولا عن مؤسسة صحية يزيد قوامها علىٰ السبعين موظّفا من مختلف الفئات الوظيفية؛ أطباء وتمريض ومضمّدين وفنّيين وإداريين وسائقين وحرّاس وعمّال، وكانوا كالفسيفساء لا ينتمون إلىٰ جنس واحد ولا يتحدّثون لغة واحدة أو يدينون بدين واحد، بل فيهم العربي والعجمي، ومنهم المسلم والمسيحي والهندوسي، وبينهم الشاب المتوثّب والكهل الناضج والشيخ الواقف علىٰ أعتاب سنّ التقاعد. ومن

خلال تلك التجربة التي لم تَطُل أكثر من بضعة أشهر بعدما ضاقت بها نفسي ذرْعا، ومن خلال تعاملي مع أناس احترفوا مهنة الإدارة وخبروها لسنوات عدّة، خلصْت إلىٰ أنّ الإدارة نوعان: إدارة بالقانون، وأخرىٰ بالودّ والاحترام إن جاز التعبير.

في النوع الأوّل؛ يشهر المدير المسؤول سيف القانون؛ فيكزّ علىٰ أسنانه مكثِرا من التلويح بالعقاب، ولا يكلّ في الدعوة لاجتماع تلو اجتماع ينجم عنه تعليمات مكتوبة وجزاءات موقَّعة وأوامر صارمة. وغالبا ما يميل لتجميع كلّ المسؤوليات في قبضته، وإن فوّض فهو تفويض مؤقّت وحصري لذوي الثقة لا الكفاءة. وفي ظل إدارته يصبح جوّ العمل مكهرَبا ومشحونا، فيشعر الموظّفون بالتوتّر، وتسري بينهم روح التوجّس والحذر، ويصير ترقُّب الأسوأ هو السمة الغالبة. وهنا لا تسأل عن روح التعاون والتفاني والإبداع في العمل، فكل هذا يتوارىٰ أمام تركيز الموظف جلّ جهده في تفادىٰ العقاب، وتجنُّب ظهور الأخطاء أو البحث عن مهرب إن وُجدت.

النوع الثاني من الإدارة؛ لا يُغيِّب القانون بالكليّة، ولكن يجعله آخِر الدواء كالكيّ، ويضعه في الذيل كالهجْر للزوجة الناشز والرفْت للموظّف المهمِل. بينما يميل إلىٰ تغليب لغة الودّ والتشجيع، ويجنح إلىٰ الإعذار ما وجد لذلك سبيلا. ودوْما يبادر إلىٰ فتح نوافذ وأبواب لتفاعلات

تتخطّىٰ حدود العمل وتمسّ البعد الإنساني الشخصي والعائلي، كالزيارات والهدايا والرحلات. كما ينحو لتوزيع المسؤوليات، وترك مساحات معقولة لحركة الموظّف في نطاق ما يمليه العمل، ممّا يُشعره بالأمان ويحثّه علىٰ التفرّغ للتجويد والإتقان ..بمعنىٰ أنها إدارة ليست رقابيّة حدّ الاختناق ولا مدلِّلة لدرجة الإفساد، وتجمع بين علم وفنّ لازمَيْن متلازمَيْن لنجاح أيّة إدارة.

وفي هذا قرأْتُ[1] عن رجل تمّ تعيينه مديرًا لمؤسّسة، وفي أوّل يوم قام بإلغاء دفتر الحضور والغياب، وأخبر الموظّفين أنه يريد نتائج ولا يهمّه متىٰ يحضرون أو يذهبون. ولأمر ما، اتصل يوم الجمعة ليلا بالمؤسسة، فإذا ببعض الموظّفين منكبِّين علىٰ مكاتبهم يعملون في صمت!

والواقع أن القلّة بيننا هي التي تنتهج الودّ في الإدارة، بينما يتجوّل الآخَرون بسيفٍ للقانون ربّما تجاوز الحدّ وشارف الظلم والطغيان، والحديث هنا يضمّ أصغر مؤسّسة وهي الأسرة إلىٰ أكبر مؤسسة وهي الدولة، ويشمل الإدارات العليا كالوزارات والهيئات، وما دونها من الإدارات الصغرىٰ ذوات العدد من المرؤوسين.

ولكن ماذا عن النساء المديرات التي تشير الأرقام إلىٰ أنهنّ يتبوّأن ١٠٪ من المناصب الإدارية في البلدان العربية واليابان، بينما تزيد إلىٰ

(١) الإدارة علم وفنّ، محمد صبيح الرشايدة، ص١٠.

٣٦٪ في ألمانيا وكندا، وإلىٰ أكثر من ٥٠٪ في الفلبين والولايات المتحدة الأمريكية؟

يُفترض أنّ نون النسوة في موقع الإدارة تتحلّىٰ بروح الأمومة وعاطفة الأنوثة وجمال الأحدوثة، فيخلو جوّ العمل من الصراعات، ويبتعد عن جمود القواعد وتكشيرة اللوائح. كما يُفترض أن يكون نموذج بلقيس حاضرا بين يدي المرأة المديرة، فتتمثّل حنكتَها في تحييد الأعداء وكسب الأصدقاء، وحكمتَها في تطبيق مبدأ الشورىٰ حيال اتخاذ القرار، وحصافتَها في الرضوخ للحقّ حين يستبين الدليل.

وعلىٰ غير هذا الافتراض، أذكر أنّي تعثّرتُ في إحداهنّ، متسلِّطة تنتهج نهج الإدارة بالقانون، وجافّة في تعاملها كعود يابس؛ ربّما لتعوّض نزعة قهْر عرفْتُ أنها تعانيها في المنزل، ولعلّها وقعَت فيما وقعَت فيه بسبب جهلها للمثل القائل: العسل يجذب النحل أكثر من الخلّ. ومعلوم أن المرأة بعاطفتها الغالبة؛ تتقلّب تقلُّب الليل والنهار وكأمشير لا تثبُت علىٰ حال، ولدغدغة المشاعر تَطرَب أكثر من طربها لعزْف المنطق، ولمعسول الكلام تُقيم وزنا أكثر ممّا تقيمه لمفعول المواقف والأحداث. كما أنها لا تعرف التوسُّط؛ إن أَحبّت أَحبّت بعنفوان، وإن كرهَت كرهَت كره الصحابة للكفر والمنافقين للجهاد.

ولعلّ هذا النموذج الفائت، يشير بدرجة ما إلىٰ أنّ الرجال أقدر علىٰ الفصل بين حياة المنزل والعمل، وأكفأ في الإدارة بالودّ الذي يحتاج صبرا أطول وأفقا أوسع وصدرا أرحب، وفي هذا تتباين الآراء، وكلّ ذي رأي يُحترم.

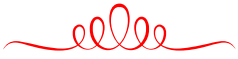

(٤١) طرائف المواقف

رغم ما يخيّم علىٰ جوّ الممارسة الطبية من أنين وألم يبلغ حدّ الصياح والصراخ في بعض الأحيان؛ فإنها لا تخلو من طرائف تحدث عفوا فتنفرج لها الشفتان ويبرز الخدّان وتضيق العينان، بل ربما سالت العيون بدموع الفرح وتعبت الخاصرتان من القهقهة، وهنا يكون وقعها أكثر بهجة وأشدّ أثرا، علىٰ اعتبار أنّ النور يلمع وسط الظلام، والصوت يجلجل ويدوّي وسط الصمت. وهذه الطرائف من الكثرة بمكان، حتىٰ أنّ بعض الأطباء أفردوا لها مؤلَّفات تتّسم بالواقعية الخالصة وتلبّي حاجة الإنسان الفطرية في الميل إلىٰ الضحك والفكاهة، وهي حاجة يتفاوت الناس فيها صعودا وهبوطا حسب عوامل وراثيّة وبيئيّة يتشعّب الحديث حولها وليس هذا مكانها.

ومن تلك الطرائف؛ أنّني وفي بداية ممارستي الطبيّة، سجّلْتُ وصفة دوائية لإحدىٰ قريباتي، وكانت لبوسًا شرجيّا، فخجلْتُ أن أخبرها كيف

تستعمله، وعوّلْتُ علىٰ لباقة الصيدلي في ذلك، ولكن يبدو أن لغة الحوار تعطّلت عند الصيدلي، فسلّمها الدواء دون أن ينبس ببنت شفة؛ إذ لـمّا سألتُها عن صحّتها بعد مرور بضعة أيام، حمدَت الله علىٰ الشفاء ودعَت لي بالعافية وطول العمر، ثمّ عقّبَت بأنّ الدّواء كان طعمه مثل الصابون!

كما أذكر يوما من أيّامي المجيدة في سلطنة عمان، وأثناء وجودي بعيادتي الخاصة هناك؛ حين أرسلَت لي ابنتي الطبيبة رسالة من مصر علىٰ الكوكب الأخضر (واتساب) تقول: ممكن تستفسر لي عن وجود (0ppoa9) لديكم؟ فهاتفْت الصيدلي من فوري سائلا إيّاه عن وجوده من عدمه، وكذلك سعره؟ فأجابني بأن هذا الصنف لم يمرّ عليه. ولمّا أجبْتُ ابنتي بأن هذا الدواء غير موجود، هأْهأَت وقهْقهَت وأخبرتْني أنه نوع من الهواتف الذكيّة وليس صنفا دوائيا!

وعمّا يُحدثه تشابه اللباس من لَبْس قد يودي إلىٰ ما لا يُحمد عقباه من المُضحكات؛ حدّثني أحد الفضلاء العُمانيين، أنه أَودع زوجتَه مؤسَّسة صحيّة للعلاج، وواعدها بأن ينتظرها بالسيارة عند البوّابة الخلفيّة بعد نصف ساعة بالتمام، وفي المكان المحدّد كانا علىٰ الموعد، هو قادم بالسيارة وهي واقفة في الانتظار، ففتحَت الباب واستقلّت السيارة، بينما

انطلق هو علىٰ عجل، وبعد عدّة أمتار وبينما بدأ في محادثتها، إذْ به يكتشف أن المرأة التي بجواره ليست زوجته، وتكتشف هي أيضا أنه ليس زوجها، ولكن شُبّه عليهما! فأُسقط في يدهما، وودّا لو انشقّت الأرض عنهما، فعاد بالسيارة مسرعا إلىٰ ذات المكان، وغادرت المرأة السيارة وهي تركض، وكان من حسن حظّ الرجل أنّ امرأته لا زالت بالداخل بعدما حبسها حابس لـمَزيد من العلاج. وقد جاء الخلط من أنّ السيّارت اليابانية من نوع تويوتا يتشارك في اقتنائها أغلب العمانيين، وخاصة اللون الأبيض العاكس لشمس الخليج الملتهبة. إضافة إلىٰ أن النّساء عند خروجهن يتّشحنَ بالسَّواد ولا يظهر منهنّ حتىٰ العينان. وكذلك الرجال عدّتهم في الملبس ليست سوىٰ عمامة يُسمّونها (مَسرّ) وجلباب أبيض يُسمّونه (كندورة)، ولا فرق في ذلك بين وزير وغفير.

وكما يحدث اللّبْس والخلْط في الثياب، فإنه يحدث أيضا في النقود؛ ففي أوّل عهدي بالطب، حيث الكشف في غرفة متواضعة أَسميتها عيادة يكلّف المريض ثلاثة جنيهات، والكشف المنزلي الذي تحفىٰ فيه قدمي إلىٰ بيت المريض يكلّف خمسة جنيهات؛ أذكر أنني وعقب انتهائي من إحدىٰ الكشوفات المنزلية، وضعَت أمّ المريض يدها في جيبها وناولتْني ربع جنيه، إي والله ربع جنيه ورقي اختفىٰ من التداول الآن ولم يبق له أثر، ولِعلمي أن يدها خلطَت بين النقود المختبئة في (سيّالة) جلبابها الفلاحي

البسيط، تحاشيتُ أن أنبّهها إلىٰ ذلك فأجرحها وأحرجها. ولأنه لم يكن بمقدوري أيامها أن أتغاضىٰ وأضرب الذكر صفحا عن قيمة الكشف، فقد احتلْتُ بإعادة الربع جنيه مطويا كما هو، قائلا بودّ وصدق: اشتروا الدواء أوّلا ثمّ ابعثوا قيمة الكشف لاحقا، وهو ما نتج عنه الانتباه والاعتذار والتصحيح عن لبْس غير مقصود.

(٤٢) في الثاني السلامة

على أديم إحدى الدول الخليجيّة، وذات يوم لاهب خانق، تجاوزَت حرارتُه الأربعين حتى صار كالأتون يغلي منه الدماغ، وتَشبّع هواؤه بالرطوبة فبات لزجا ثخينا يكاد يكتم الأنفاس؛ آثرتُ السلامة وطلبتُ المثوبة بالمكث في المسجد ما بين صلاتَي المغرب والعشاء، لا سيّما وأنّ الوقت بينهما أقصر من بنان وأَمضى من شهْقة، إذ سرعان ما ينقضي انقضاء لمعة البرق في صفحة السماء.

وعبر مكتبة باذخة تحرس المحراب ذات اليمين وذات الشمال، وتسكنها أُمّات كتب العقيدة والتفسير والفقه والسيرة والحديث واللغة والتاريخ الإسلامي؛ التقطتُ مجلّدا من نتاج قريحة الإمام ابن قيّم الجوزية عليه رحمة الله، ثمّ خلوتُ به قريبا من مكيِّف للهواء ضُبطت حرارتُه على ست عشرة درجة مئوية، واستويتُ على حشوة إسفنجيّة وثيرة ذات مسند للظهر تبرّع بها المحسنون من أهل الخير ونثروها نثْر الحَبّ في جنبات المسجد.

ومع اقتراب أذان العشاء، أقبل عليّ الإمام متهلِّلا مسلِّما، إذْ هو صديق حبيب تُشجيني تلاوته الهادئة الندية، وتُسعدني طِيبة قلبه ونقاء فطرته. وما إن جلس إلىٰ جواري وحدّق بغلاف الكتاب الماثل بين يدي، حتىٰ قال في ثقة يُحسَد عليها: قبل أربع سنوات، أُهدي إليّ هذا الكتاب بأجزائه الأربعة، وفورا أَهديتُه إلىٰ مركز الوفاء والأمل. فرفعتُ حاجبَيّ وسألتُه مستغرِبا: ولِم لَم تحتفظ بهكذا كنز قال عنه ابن عثيمين: قلّ أن يوجد في كُتب الإسلام مثله؟ ولماذا مركز الوفاء والأمل دون غيره؟ فأجاب: وما حاجتي إلىٰ ما لا يفيدني، مركز الوفاء والأمل يقوم علىٰ خدمة (المعوَّقين) وهو أحقّ به منّي! فسحبتُه من شحمة أذنه سحْبة صديق مازح، وقرّبتُ العنوان من عينيه، وقلت: اقرأ يا ابن جنّي ودقِّق: فقرأ: أَعلام (المُوَقِّعين). وعندها ضربنا كفّا بكفّ، وضحكنا سويّا حتىٰ دمعت العيون، ثمّ عزم علىٰ استرداد كتابه (أعلام الموقِّعين عن ربّ العالَمين) الذي ربّما لم يقْربْه مركز الوفاء ولا فضّ غلافه، خاصة بعدما شرحْتُ له ما عناه ابن القيّم بأعلام الموقِّعين من القُضاة والمُفتين القائمين بين الناس بأحكام الشريعة.

وقريب من ذلك الموقف الطريف اللاذع، لاح لي يومًا كتاب (التفسير البسيط) للإمام الواحدي، وكان أوّل لقاء لي به، فقلت في نفسي: بساطته تكفيه يوما أو بعض يوم للإجهاز عليه حرْثا ودرْسا، وإذ بي أجده خمسة

وعشرين مجلّدا، حوت بين دفافها من النّكات البلاغية والاستطرادات اللغوية ما تنوء باستيعابها أذهان المختصّين من العلماء وطلبة العلم، وعندها أدركت أنني قُبالة مغلاق لا أملك مفتاحه، وهمْهمتُ بأنّ الكتاب ليس دوما يُقرأ من عنوانه...وبعد زمن زال فيه جهلي باللغة، أدركتُ أنّ الرجل علىٰ حقّ، وأنّ العنوان يوافق المضمون، إذْ إنّ بسيطه مِن البسْط والاتساع، لا الإيجاز والاختصار كما شاع بيننا الآن! وما أكثر التحريف في اللغة بيننا.

والواقع أن هذه العجلة في قراءة عناوين الكتب وما تُحدثه من لبْس، تبدو قليلة الخطر وتافهة الأثر مقارنة بما يحدث حين نتعجّل قراءة البشر ونطلق الأحكام علىٰ الناس كمدفع رشّاش سريع الطلقات وبمنطق طفولي ساذج، فلا سفر ولا بيع ولا شراء ولا جوار ولا مأكل ولا مشرب، بل نظرة سطحية وموقف عابر ورأي فطير ثمّ نصنفهم تصنيفا قاطعا نبني عليه دون مراجعة! وهكذا تُولد قطيعة يصعب رتقها وضغائن تأبىٰ عودة المياه إلىٰ مجاريها، علىٰ اعتبار أنّ النفوس كالزجاج لا يُجدي لهشيمها لصْق ولا ينفع مع كسْرها جبْر.

أظنّكم توافقونني علىٰ أنّ المثل العتيق الذي يتعهّد به الآباء والأمهات أبناءهم كلّ صباح، وتتزيّن بحروفه مؤخّرة السيّارات: "في العجلة الندامة وفي التأني السلامة"، لا يزال ساريا وقابلا للتعميم في شتّىٰ مناحي الحياة

المادية والمعنوية. كما أظنّكم توافقونني علىٰ أنّ الحكمة المقطَّرة تقطن مقولة الأمريكي بنيامين فرانكلين: "خذ وقتك في كلّ شيء فالتسرّع يؤدّي إلىٰ الضياع"، ومقولة التشيكي الألماني كافكا: "تنبع كلُّ الخطايا من خطيئتيْن أساسيتيْن: التسرُّع والكسل".

(٤٣) صديقي الحسّاس!

كثيرٌ منّا مرّت به حساسية دمعَت لها عينُه واحمرّت كعين ثور؛ نتيجة ضوءٍ مبهر، أو غبارٍ شارد. أو عَطَس أنفُه وسال بالماء كصنبور تالف؛ جرّاء رائحة ما، أو مغبّة احتكاك بوبر الحيوانات الأليفة. أو سَعَل صدرُه وأَزّ كمرجل يغلي؛ عقب تعرّضه لتيار هواء بارد ودخان كالح، أو تعاطيه بعض الأدوية، أو لسْعه بحشرة كالنّحل والدبّور. أو احمرّ جلدُه وزرْكشه الطفحُ وصار كالأجرب يحكّ؛ إثر تناوله أحد الأطعمة، أو ملامسته لنوع من الكريمات أو الألبسة أو المنظّفات.. وعندها ينزعج المرء أيّما انزعاج، حتىٰ ليتعكّر مزاجه ويضطرب نومه، ولا يهدأ له بال حتىٰ يهرع إلىٰ طبيب يداويه من فوره بمضادات الحساسية أو الكورتيزون والأدرينالين الذي يُعدّ الساحر في هذا المضمار.

ومثل هذا يحدث في العلاقات الإنسانية بين المرء وأخيه وأمّه وأباه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه، وذلك حين يبالغ في تأويل كلمة

عابرة قالها زميل، أو موقف بدر من صديق، أو رأي ساقه أخ شقيق، أو تصرُّف بدر من زوجة وابنة، فيشعل النار في تلك الكلمة ويسكب البنزين علىٰ ذاك الرأي ويهوّل ذلك الموقف والتصرّف، بعد أن يلعب به إبليس ويلاحقه بعلامات استفهام ماكرة تُطيل ما حقّه القِصر وتُعقّد ما حقّه التبسيط: لِم فعل ذلك؟ ولماذا الآن؟ وما مقصده؟ وهكذا يدور به علىٰ ظهر خيل جامح أعمىٰ، من دهليز إلىٰ دهليز أعمق، ومن متاهة إلىٰ متاهة أظلم، وصولا إلىٰ القطيعة والعداوة والانتقام.

أذكر صديقا كتب لي رسالة عبر الواتساب، يطلب قرضا يفكّ به ضائقة ألمّت به، وضمّنها رقم هاتف ثان لتحويل المبلغ إليه عن طريق إحدىٰ خدمات شركة فودافون للهواتف النقّالة يُدعىٰ (فودافون كاش)، فوافقْت من فوري، إيمانا بأنني المستفيد قبله والرابح أكثر منه، فأنا بشر أُيسّر عليه، بينما أجني –إن شاء الله– تيسير الله عليّ حسب الحديث الشريف (مَن يسّر علىٰ مُعسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة)، وفرق كبير، وكبير جدا، بين تيسير العبد علىٰ العبد في دار الفناء، وتيسير الربّ علىٰ العبد في دارَي الفناء والبقاء.

وفي مساء ذلك اليوم كتب زميل علىٰ صفحته في الكوكب الأزرق (الفيسبوك) يحذّر من لصّ الكتروني سرق رقم الواتس الذي يخصّه، وراح يرسل رسائل يطلب فيها أموالا من الأصدقاء المسجَّلين ضمن

البرنامج. وبحُسن نيّة لا تشوبها شائبة، بعثْتُ برسالة إلىٰ صديقي صاحب القرض، أسأله فيها تأكيد ملكيته للرقم برسالة صوتية خوفا من أن يكون هاتفه قد سُرق كما سُرق أخ له من قبل، خاصة أن تلك هي المرّة الأولي التي يأتيني منه طلبا ماليا علىٰ هذا النحو. وبدلا من الردّ بنعم أو لا، أو حتىٰ بالسلام عليكم وكفىٰ، إذ به يغضب غضبة مُضَريّة ويظنّني بتلك الرسالة الصوتية التي طلبتُها أريد كسر عنقه وإراقة ماء وجهه وإذابة لحمه، وربّما فسّر الأمر كما لو أنّني أتهرّب من إقراضه بطريقة أو بأخرىٰ. ثمّ طلب منّي صرف النظر عن موضوع القرض، بينما حرارة أنفاسه بادية في كلماته، وتكشيرة أنيابه بارزة بين طيّات حروفه!

تلك هي الحساسية النفسية التي يُظهر فيها المرء ردّ فعل مفرط تجاه أمر عادي، ويميل إلىٰ أخذ الأمور علىٰ محمل شخصي. وتلك هي الأنماط الشخصية التي يُزعجك التعامل معها، ويُرهقك ويستنْزفك الاقتراب منها؛ إذ عليك أن تحسب حسابا لكلّ ما يبدر منك من كلمة أو موقف، خوفا مِن حملها علىٰ محمل السوء، وما أشبهك ساعتها بالأسير والمشلول، أو بالماشي علىٰ وتر مشدود والواقف علىٰ صفيح ساخن، وتلك لعمري علاقة أفضل منها القطيعة، وصحبة أفضل منها العزلة والوحدة..فأينما وُجدت الثقة وُجدت الحياة، وأينما حلّت البساطة حلّت السعادة، وقلّما يأتي التفتيش في نوايا الناس بخير.

وإنك لواجد تلك الثقة والبساطة، فيما رُوي عن الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي دخل المسجد بصحبة حارسه في ليلة دامسة، وعثر برجل نائم دون قصد، ولمّا رفع الرجُل رأسه وصوته قائلا: أأنت أعمىٰ؟ أجابه عمر: لا. وبينما همّ الحارس يريد تأديب الرجُل، إذ بعُمر يزجره قائلا: إنّما سألني وأجبْت..هكذا بكل أريحية يمكن أن تمضي الحياة وتستمر العلاقات الإنسانية في أبهىٰ صورها.

والواقع أنه ليس بأخٍ مَن يتحسّس منك، ولا بأخٍ مَن يتكلّف لك، فالحساسية حاجز والكلْفة حاجز، وكلاهما يَصلح للغرباء والغرماء أكثر ممّا يَصلح للإخوة والأصدقاء. ولله درّ الإمام الشافعي الذي يُنسب إليه قوله: "أثقل إخواني علىٰ قلبي مَن يتكلّف لي وأتكلّف له، وأَحبّ إخواني إلىٰ قلبي مَن أكون معه كما أكون وحدي".

(٤٤) فيه شفاء

بين الجدران الباردة للعيادات والمستشفيات، ووسط الصمت الرهيب الذي يلفّها لف الثياب للأبدان؛ ما إن نضع كمامة البخار الموسِّع للشعب الهوائية علىٰ فم الرضيع، حتىٰ يهزم السكون بصرخة مدوّية وكأنك تستلّ روحه وتكتم أنفاسه! مسكين، لا يدري ما يُفعل به، وتلك نعمة يُحسد عليها.

وإزاء هذا الصريخ الذي تتقطّع له نياط القلوب الغلاظ، تسرع الأمّ إلىٰ كل وسيلة لإسكاته، ولبلوغ مأربها لا مانع لديها من تقمُّص دور الحاوي والبهلوان؛ تصفيق باليد لا مانع، صفير بالفم يجوز، غناء بصوت أجشّ مباح، هَدْهدَة بيدين تتحوّلان إلىٰ كرسي هزّاز مسموح، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية لحبل من الحِيَل يحسب الرائي الأُمَّ ساعتها إحدىٰ البُلهاء الهاربات من مستشفىٰ الأمراض العقلية، ولها بذلك أجْر وأيّ أجْر.

اليوم مضىٰ زمن كلّ هذه الخِدَع العتيقة، وانتهت أسطورة (نام نام نام وأنا أجيبلك جوز حمام)، فصار الهاتف الذكي واليوتيوب هو المنقِذ،

صور تتحرّك في خفّة الجان، وألوان تبرق كالنجوم في السماء، وأصوات تتداخل مع موسيقىٰ لا تفهم لهما معنىٰ ولا مغزىٰ، هذا هو الخمر الذي يُسكرون به الرضيع ويُدخلونه في نشوة تُنسيه الكمامة والأُمّ والمستشفىٰ والطبيب والكوْن بأسره.

ذات صباح من صباحات العيادة، التي يَعتبرها كلُّ طبيب إمارةً هو الحاكم بأمره فيها، وبينما أتجوّل في غرفة العلاج؛ سمعْتُ صوتًا يترنّم من وراء الستار الأزرق السميك، صوت دافئ ناعم آسر، فدفعني الفضول إلىٰ الاستقصاء بإزاحة الستار، وإذ بأمّ تحتضن رضيعها وعلىٰ فمه الكمامة المعهودة لجهاز البخار، وبحنجرة ذهبيّة حلّت محلّ الهاتف واليوتيوب، شرعت تتلو قرآنًا يبدو أنها تتقنه حفظا وتلاوة، بينما الرضيع مطمئنّ مستكين لا تسمع له همسا، وسبحان الهادي ببركة قرآن لا يبخل بتجلّياته علىٰ من أراد.

بقي هذا المشهد المبهج عالقا في ذاكرتي حتىٰ عودتي إلىٰ المنزل، ولمّا رويتُه لزوجتي علىٰ سبيل العظة، زادتْني من الشِّعر بيتا، وحكت عن معلّمة صديقة لها، تعول طفلا رضيعا لم يتخطّ العام، ولأنها غريبة عن وطنها، وزوجها يكدح مثلها بل ضعفها، ولا تملك ترف جلْب حاضنة تعتني بالرضيع؛ فقد دأبت كلّ صباح علىٰ إرضاع طفلها حتىٰ الشبع، ثمّ وضْعه في السرير، وبجواره مذياع يتهادىٰ منه القرآن علىٰ مدار الساعة،

وحتىٰ رجوعها إلىٰ البيت. ظننتُها تفعل ذلك بصورة استثنائية يومًا أو بعض يوم، ولكنّي دُهشت إذ علمتُ أنّ هذا حالها مع رضيعها طوال أيام الدراسة! وكم للظروف من أحكام تفرضها فرضا ولا تترك للمرء أيّة خيار، اللهم إلّا الإذعان مع الاحتماء بجَناب مَن لا يخيّب الظنون ولا يخذل مضطرا دعاه.

ولعل مردّ هذه السكينة التي تغشىٰ الرضّع عند سماعهم للقرآن، إلىٰ أنّ كلام الله يخاطب الروح كما يخاطب العقل، ويتناغم مع الفطرة قبل أن يتناغم مع الأسماع، وكما يخشع له الصخر وتتشقّق من وقْعه الأرض، لا بدّ قادر علىٰ التأثير في أجساد غضّة لدنة فطرتها نقيّة كالغمام وأرواحها محلّقة كالحمام. وعلىٰ مَن يعجب مِن ذلك، أن يعدّها –علىٰ سبيل التقريب لا التشبيه– موسيقىٰ إلاهيّة تفعل فعلها كما تفعل موسيقىٰ جنّد لها الغرب الدراسات والأبحاث لتثبت صنيعها في الترويح والاستشفاء وتخفيف الآلام..

ولنا في هذا الصدد أن نتساءل مع مرشد جماعة العدل والإحسان (الشيخ عبد السلام ياسين) في تنويره للمؤمنات بقوله: هل يستوي في فُرَص علوق الإيمان بالقلب، مَن غَذّينه بالأغاني رضيعا، ومَن أَلقمْنه مع ثدي اللبن ثدْي التغنّي بالقرآن؟!

(٤٥) مغص كلوي

علّمتْني الحياة أن أجتهد في ألّا آكل ولا أرتحل ولا أمرض وحدي.. فاستدارة مائدة الطعام والأطباق تعني أنه لا بدّ من تحلُّق واجتماع حولها، وهذا الاجتماع والتحلُّق هو ما يخلع علىٰ الطعام البركة، ويمنحه مذاقا استثنائيا، ويحمّله بشحنة زائدة من السعرات النفسية اللازمة لصحة الروح وسلامتها. أمّا الرحلة التي يتقاسم فيها البشر ضحكاتهم، ويفتلون من تفاصيلها حبل حكاياتهم؛ لا شكّ أنّ الصحبة تقصّر مسافة السفر، وتهوّن مصاعبه، وتُضاعف الفرحةَ بمقدار عدد الأصحاب. وأشدّ ما يكون الأمر وضوحا واحتياجا، في المرض، ذلك الوحش الذي يفترسك إن كنت وحيدا كجذع شجرة في فلاة، ويتراجع حين يجد أحدَهم صنع من بدنه عكّازا لك، بينما يمسك الثاني بيدك ويربت الثالث علىٰ كتفك ويحمل الرابع مؤونتك.

حكىٰ لي زميل سوداني أن حصاة بحجم حبّة العدس عاثت فسادا في دهليز حالبه الأيسر، وأصابته بمغص كلوي أقضّ مضجعه في ثلث الليل

الأخير، فزلزله واعتصره وجعله يرتعد ويتعرّق ويقيء ويتلوّىٰ علىٰ الأرض كثعبان. ولأنه كان غريبا عن وطنه ووحيدا بين جدران شقته؛ فقد هرع إلىٰ الهاتف يلتمس أحد أصدقائه ليصحبه إلىٰ المستشفىٰ، ولكنه أحجم لتأخُّر الوقت، وأحجم أكثر حين تذكّر أنّ صديقه يقرن النوم بإخراس الهاتف عبر الوضع الصامت. وعندها، وبخطىٰ وئيدة وظهر مقوَّس، تحامل علىٰ نفسه وانكفأ علىٰ مقْود سيارته، وراح ينهب طريقا طال رغم قصره وبدا له أنّ السيارة تسير إلىٰ الخلف، ويعلم الله بأيّ حال بائس وصل إلىٰ المستشفىٰ ليحقنه الأطباء بمسكّن البيثيدين القويّ الذي تخرّ له الجبال وتنهدّ.

العجيب أن ما حدث لهذا الزميل حدث لي في زمن لا حق، مع بعض الاختلاف، إذ كانت الزوجة والأطفال بالبيت، ولكن أيًّا منهم لا يستطيع قيادة السيارة وإيصالي إلىٰ المستشفىٰ، ولم ينقذ الموقف إلّا اتصالا بصديق غير حميم لبّىٰ النداء رغم هجْعة الليل ودفء الأنفاس، وبقيَت مكرمة منه لم أنساها وأتحيّن الفرصة تلو الفرصة لمكافأته علىٰ صنيعه.

ولهذا السبب أجدني أُشفق علىٰ كلّ مريض يزورني في عيادتي مرّة، بينما أشفق علىٰ بعضهم مرّتين، مرّة لمرضهم ومرّة ثانية حين يأتون فرادىٰ بلا سند من زوج أو ولد أو جار أو صديق. هذا لا ينفي استيائي من آخَرين يأتي الواحد منهم بشكوىٰ بسيطة كصداع أو زكام، وترىٰ في عقبه

طابورا طويلا يحوي أمّه وأبيه وإخوته وبنيه وصاحبته التي تؤويه! وفي جعبة كلّ منهم سؤالا يلقيه علىٰ مسامعك، ولا يخلو الأمر من طلبات بالجملة لقياس ضغط أو نبض أو حرارة! عدا عن أطفال يطلقونهم في أرجاء العيادة كالقرود، فيعبثون ويلهون كأنهم في حديقة عامة ينقصها العشب والكرات والأراجيح والزحاليق!

لعلماء النفس والاجتماع كامل الحقّ بقولهم إنّ الإنسان كائن اجتماعي بطبعه مدني بفطرته، قد تلزمه الوحدة أحيانا ليستعيد هدوءه واتزانه ويتسلّح بما تفيض عليه تأمّلاته، ولكن الأصل هو المشاركة والاجتماع، في الأفراح والأحزان، في الجدّ والهزل، في العافية والمرض، وفي الحلّ والترحال..ألَا ترىٰ أنّ الشيطان من الواحد أقرب ومن الاثنيْن أبعد، وألَا ترىٰ الإنسانَ تتنظره علىٰ باب الحياة أكثر من يد، ويشيّعه إلىٰ قبره مئات يستعصون علىٰ العدّ.

قرّائي الأعزّاء: لا تدَعوا أحبّتكم المرضىٰ يذهبون إلىٰ الطبيب وحدهم؛ فالمُعافَىٰ يحتاج دعما والمريض يحتاج دعميْن، وأنّات المرض الثقيلة تخفّ وطأتها كثيرا حين تجد أذنا تسمعها وذراعا تحوطها ولسانا يطيّب خاطرها.

(٤٦) القفز في الفراغ

تَخيّل أن رجلا احتفل لتوّه بفطام ولده بعدما بلغ سنّ الحَولَيْن، وبينما تُصارع الأمّ فطيمها فتُحيل بينه وبين ما أدمنه من حليب سائغ التذّ به علىٰ مدار الأيام والليالي، وتستعين عليه بأسلحة غير مشروعة كالصبّار والشطّة تدهن بهما حلمة الثدي، إذ بزوجها الهُمام يناديها طالبًا منها تحويل رصيد إلىٰ هاتفه الخاوي علىٰ عروشه، فظنّته يرتدي عباءة النُّبل والشهامة ويتجهز لجلب عشاء من المطعم مقدّرًا انشغالها في معركة الفطام الحامية الوطيس. وبمجرّد استقرار الرصيد في هاتفه نوكيا ٣٣١٠ والذي توقّف خطّ إنتاجه عام ٢٠٠٦، إذ به يكبس زرّ زميل قديم فرّقت بينهما الحياة عدد سنين وبات اليوم مديرا لمدرسة ابتدائية قريبة.

وبعد سلامات وتحيّات التهمت نصف الرصيد والزوجة علىٰ مقربة منه تتميّز غيظا، سأله عن ماهية الإجراءات اللازمة لانضمام الصبْية إلىٰ الصف الأوّل الابتدائي؟ فشرع المدير يشرح باهتمام مكوّنات دوسيه

التقديم وتكْلفته، ثمّ زاده شرحا فوق شرح إكراما لزمالة عتيدة قطعها اختصار صاحب النوكيا طريق التعليم واكتفائه بالإعدادية. وإمعانا في الوفاء، طلب منه المرور عليه بالمدرسة صباح الغد، وسينهي له ترتيبات الدخول قبل أن يقوم من مقامه أو يرتدّ إليه طرْفه. ولمّا ردّ عليه: لا يمكن غدا. أمهلَه إلىٰ بعد الغد، إذ ظنّه مشغولا بلقمة عيش تقطّعت من أجلها الأنفاس في زمن المكوس والغلاء. وقبل أن يحتضر الرصيد، ويطلق الهاتف صفيره كأجهزة العناية المركَّزة تنعي توقّف القلب عن النبض؛ إذ بأبي الفطيم يجيب: ولدي ما زال ابن عامين، ولكنّي كنت أستطْلع وأستشْرف!

سيذمّ البعض شفتيه قائلا: وما الجديد؟ هذا خيال، وفي الخيال يمكن أن تلد الدجاجة ويبيض الإنسان ويطير النعام. وأجيبه بأنّ ما سبق خيال شكلا، ولكنه واقع مضمونا، وما أقرب البوْن اليوم بين الواقع والخيال.

ذلك أنّ شابّا من أطراف عائلتي، تَواصل معي للمرّة الأولىٰ منذ اغتراب بدأتُه قبل مولده وما زال مستمرًّا، فأخبرني أنه خرّيج أحد المعاهد وراغبٌ في السفر إلىٰ الخارج، وأردف يسأل عن فرص العمل في مجال تخصّصه كفني أجهزة طبيّة؟ ورغبة في مساعدته، لِما تناهىٰ إلىٰ علمي من برّه بوالدته وقيامه علىٰ شؤونها وسهره علىٰ راحتها؛ اتصلت علىٰ الفور بمدير مؤسسة تمارس نشاطها في بيع وصيانة الأجهزة الطبية. ومِن جميل

الأقدار أنْ طلب الرجل السوريّ الشهم شهاداتِ الشاب وسيرتَه الذاتية، وقطع علىٰ نفسه عهدا بأن يكون علىٰ رأس قائمة المُعيَّنين في أقرب سانحة.

الحقّ أنني ابتهجْت وكأني العاطل عن العمل، وتهلّلت وكأني الباحث عن الوظيفة؛ فشكرْت الرجل علىٰ تجاوبه وأريحيته، ثمّ أعلمْت الشابّ ورجوْته إرسال ما يلزم من شهادات التخرّج والخبرة حالا. وبدلا من فرحة تغمره ولسان بالشكر يلهج في حقّي؛ إذ به يفاجئني بأنّ أمامه ستة أشهر تدريب يتحصّل بعدها علىٰ شهادة التخرّج، ثمّ عاما ونصف في الخدمة العسكرية الإجبارية يضع بعدها قدمه علىٰ طريق العمل وسكّة السفر!!

أرأيتم وجه التطابق بيني وبين مدير المدرسة الابتدائية، ولاحظتم وجه الشبه بين قريبي الشاب وبين أبو الفطيم صاحب النوكيا ومعدوم الرصيد! هكذا إذن، هناك مَن يقفز في الفراغ بإقدامه علىٰ عبور الجسر قبل بلوغه، ويصارع الظلّ بثقْب الأذن قبل شراء القرْط! فيبدّد طاقاته فيما لا يفيد، وينشغل بما حقّه الإهمال والتأخير، ويحمل علىٰ كتفه أحمالا ثقالا هو منها في حِلّ. وليت الأمر يتوقف عند معاناته، بل ربما يتطور الأمر، كما أسلفت، إلىٰ إزعاج مَن حوله وتوريطهم فيما هم منه براء، وكأنّ الحياة تحنّ إلىٰ الأشباح والجراب يشتاق الثعابين!

(٤٧) شاهين!

"كلٌّ يغنّي علىٰ ليلاه"..هكذا قال المثل العربي الذي تخطّىٰ حدود الزمان والمكان، وبات صالحا وشارحا لأكثر من حال. فبينما انشغل قطاع كبير من العالَم بسكتة قلبية أصابت عملاق التواصل الاجتماعي الفيس بوك وملحقاته مثل الواتساب والأنستجرام مساء الاثنين الرابع من أكتوبر ٢٠٢١م، وصار الكثيرون كمدمن حان موعد جرعة المخدّر ولم يجده أو رضيع عضّه الجوع وهربت من فمه حلمة الثدي.. كان علىٰ الجانب الآسيوي فئام من الناس تصطلي بنار مشبوبة تُسمّىٰ شاهين.

وشاهين هذا، ليس الصقر الرمادي الجارح المشهور بضراوته، والمعروف بشدّة سرعته البالغة في بعض الأحيان ٤٠٠كم في الساعة؛ ولكنه إعصار مداري اتخذ اسمه من اقتراح قطَري أقرّته الهيئة الإقليمية لأعاصير بحر العرب وخليج البنغال، علىٰ عادتها في انتقاء الأسماء من بين ترشيحات تجود بها دول المنطقة المَعنيّة، شريطة أن يكون الاسم

المعتمَد حياديا لا يحمل تحريضا سياسيا أو عرقيا أو دينيا، وأشبه بالماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة.

ولأننا في سلطنة عمان –حيث أُقيم مذ عقدين– علىٰ علم بأنها أكثر الدول العربية تعرّضا للعواصف والأعاصير، تليها اليمن. ولأنها نُكبت قبل ذلك بإعصار جونو[1] المريع والمدمّر عام ٢٠٠٧؛ فقد دارت الأعين في محاجرها بعدما انتاب الناسَ قلقُ الانتظار وهاجسُ التوقّع، الذي يفوق في بعض الأحيان ما ينجم من أحداث مرتقَبة، لا سيّما بعدما تحرّك السيد شاهين من مركزه في خليج البنغال شمال شرق المحيط الهندي، وضرب سواحل بنجلاديش والهند، في مسافة بلغت أربعة آلاف من الكيلومترات قبل أن يصل بكامل قوّته ساحل عمان صبيحة الأحد الموافق الثالث من شهر أكتوبر، ويواصل جموحه تجاه الإمارات وإيران ولكن بقدم عرجاء وتكشيرة أقل حدّة.

رياح سرعتها ما بين ١٢٠–١٥٠كم، وموج كالطود يعلو بمقدار عشرة أمتار، وأمطار رعدية غزيرة تنهمر من السماء كالسيل، تجمّعت المياه علىٰ أثرها في شوارع العاصمة بمنسوب جاوز المتر ونصف المتر في بعض الأحياء، واقتحمت البيوت بلا إذن في بعض الولايات حتىٰ نافست

(1) جونو هو اسم ربّة المطر عند قدامى الإغريق، وهو بالمناسبة عنوان أولى روايات الأديب الاسترالي اللبناني الأصل ديفيد معلوف.

الأبواب في الارتفاع. كما تقطّعت من هوله الطرق بعدما استحال الرصيف إلىٰ عجينة ذائبة وصارت معالمه في خبر كان، بينما تكفّلت الرياح العاتية بتحطيم النوافذ وقصْف الأشجار واللعب بالأسطح الهشّة بل والسيارات التي غرقت في لجة الماء كرضيع أُلقي في يمّ.

يومان فقط هما عمر الإعصار، تعهّدا بتحويل بعض المناطق المنكوبة في ولايات الخابورة والسّويق والمُصَنْعة بمنطقتَي شمال وجنوب الباطنة، إلىٰ خرابات وأشباح، بعدما قُطعت الكهرباء وفرّ السكان إلىٰ مراكز الإيواء، خاصة بعد ورود أنباء عن وفيّات تجاوزت أصابع اليدين، نجم بعضها عن انهيارات جبلية في إحدىٰ مناطق العاصمة مسقط.

وقد ساهم في تحجيم الأضرار؛ تلك الخبرة التي اكتسبتْها السلطات من إعصار جونو الفائت، والإجراءات التي أفضت إلىٰ بناء السدود ووضع الخطط وتأمين الاحتياطيات؛ فكان أن رفعت حالة الطوارئ إلىٰ أقصاها، ثمّ أغلقت أبواب المدارس والجامعات لأسبوع كامل، وعطّلت حركة الطيران في المطارات، وقيّدت مرور السيارات علىٰ الطريق السريع فحصرتْه في الحالات الطارئة، وراحت تُخلي البيوت المشاطِئة من سكّانها.. ولكن هيهات أن يُغني الحذَر من قدَر! وهيهات أن يصرع القدَر سوىٰ القدَر! وما علىٰ البشر سوىٰ الهتاف مع بطل مسرحية (المأسورون) لعماد الدين خليل، قائلين: أيها القدَر: إني أحبّك، إني أحبّك.

ومِن لطف الله بنا في صحار، المدينة الصناعية الشهيرة وعاصمة عمان القديمة، أن انفرط عقد الإعصار علىٰ يابستها فتحوّل إلىٰ عاصفة، واقتصر علىٰ زخّات مطر توضأت بها الشوارع والسيّارات والمنازل.

وهنا لزم القول: جزىٰ الله الشدائد كلّ خير؛ فقد أبان هذا الإعصار عن محبّة صادقة دافقة، عبر اتصالات ورسائل أتتني من مصر ودول عربية أجنبية، لتؤكّد علىٰ زهور للمودّة يانعة، ما جفّ لها غصن ولا سقطت منها ورقة أو غربت عنها شمس، هذا رغم غربة طويلة المدىٰ كانت كفيلة بالإجهاز علىٰ هكذا محبّة حسب مثل يقول: البعيد عن العين بعيد من القلب.

وإزاء دمار عجزت الصور والفيديوهات المتداوَلة عن نقلها، وبدت فيه بعض المناطق تجسيدا لنهاية العالم؛ لم يكن مستغرَبا من الولايات غير المتضرِّرة، تلك الحملة التضامنية الهائلة التي استضافت الأُسر المهجَّرة ووفرّت لها السكن وسبل المعيشة من طعام وشراب وكساء، بعدما خرج بعضهم بإزار ورداء في صحبة عائلة تفتقر إلىٰ ضرورات الحياة وسيماهم كمَن يُساق إلىٰ محشره يوم الحساب. علاوة علىٰ فرق شبابية نزحت زرافات من مختلف الولايات، وشمّرت عن ساعدها لإزالة حطام المنازل والأثاث الهالك، وإصلاح ما أفسده الإعصار في المزارع والطرقات والمؤسّسات العامة والملكيات الخاصة، وقُدّرت أعداد

هؤلاء المتطوعين في يوم الجمعة الثامن من أكتوبر بخمسة عشر ألف متطوّع أثار دهشة الرأي العام وطالبوا بتدشينه يومًا للتضامن العماني.. فنِعم الأخ عونا لأخيه في الشدائد والملمّات، وبئست الحياة إن خلت من تضحيات يتداولها الناس عند الحاجة.

والآن، وبعدما طوىٰ اللهُ السيّدَ شاهين بيُمناه، وصار ليلا محاه النهار؛ هل انتهت الأعاصير؟ كلّا، فستبقىٰ جندا من جنود الله يثيرها من مكمنها وقتما وأينما وكيفما شاء، بل ستتسارع وتيرتها بناء علىٰ الاحتباس الحراري والتلوّث البيئي الذي ينفث رماد أكاسيد الكربون في الغلاف الجوّي علىٰ مدار الساعة، فمِن عشرة أعاصير عالمية خطرة أحصتْها سبعينيات القرن الماضي، إلىٰ ثماني عشرة أحصتْها في التسعينيات، وهكذا تتصاعد في العدد وفي القوّة التدميرية عقدا بعد عقد. وما العمل إذن؟ هل تكفي التدابير الاحترازية المادية؟

ظنّي أنه لا مفرّ من اللجوء إلىٰ الله، والاستعداد لملاقاته في أيّ ساعة من يوم وليل؛ فالموت رزيّة كبرىٰ لا يفوقه سوىٰ الغفلة عنه وترك التفكّر فيه والعمل له. ولا بدّ من محبّة يتعاطاها الناس كالخبز والماء في مثل هذه الشدائد؛ فهي البلسم حين نفتقد الدواء، والدواء حين يتفاقم الداء. ولا غناء عن أمل نملأ به عروقنا، علىٰ ألّا يطول أمدُه فيُنسينا الآخرة ويصرفنا عن زادها وهو التقوىٰ والعمل الصالح.

الجميل وسط هذا الإعصار، هو خفوت صوت السيّد كوفيد، لا رحمه الله، فلم يعد له من أثر سوىٰ قناع يلتحيه البعض ولا يجاوز الشفتين. ولا عجب! فمَن يرتجف من الحمّىٰ لا يشتكي حرّ الشمس، ومَن يؤلمه قلبه لا يلقي بالا لحكّة تحت إبطه أو جفاف في جلده..وسبحان القائل في محكم التنزيل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ (١).

(1) الأعراف ١٥٦.

(٤٨) لقد هرمنا!

يدرك المرءُ كِبَره، ويتحقّق من اعتلائه منصة الشيخوخة؛ حين ينهمك بحثًا عن نظّارة ترقد بسلام فوق جسر أنفه، وحين يجدّ في التفتيش عن مفاتيحه بينما هي وبفعل يده قابعة في جيبه. أو حين يباغته متطفّل بسؤاله عمّا تناوله يوم أمسه؟ فيخبط جبهته بيده في محاولة بائسة للتذكرّ قبل أن يُعرض عنه ويدير دفّة الحوار بلباقة تجاه الحاضر أو المستقبل.. ويبدو أننا قد كبرنا ولكن نكابِر.

فاليوم (١٢ أكتوبر ٢٠٢١)، مضيتُ كالعادة لأداء صلاة العشاء في مسجدي الذي لا يبعد عن العيادة سوىٰ بضع عشرات من المترات، القناع ملتصق بالوجه والسجادة في مكانها بالمسجد حسب إجراءات احترازية خفّت وتيرتها بعد حقْن الجميع باللقاح المضادّ للسيّد كوفيد، فعادت صلاة الجمعة بعد خرس المنابر وغياب الخطباء زهاء عامَيْن، وإن بصورة خاطفة كأننا نسرقها، كما قلّ التباعد بين المصلّين إلىٰ متر بدل المترين.

انقضت الصلاة، وقفلْت عائدا إلىٰ العيادة، وفي ساحتها الداخلية لفت نظري غياب سيارتي تويوتا كورولا ذات اللون اللؤلؤي عن مكانها المخصَّص، وقبل أن يقذف بي الشيطان إلىٰ محيط وساوسه، وعيْت أني ذهبْت بها إلىٰ المسجد ونسيتها هناك، إي والله نسيتها! رغم أن مفاتيحها ظلّت تداعبها أناملي كمسبحة طوال سيري المتّئد في طريق العودة!

ما الذي جرىٰ؟ أهو ألزهايمر يزحف، والخرَف يدقّ ناقوسه؟ ليس في العائلة تاريخ مرضي بهكذا فاجعة! ولا زلت أتذكّر جيّدا طبق البسبوسة الذي أُهدي إليّ من صديق قدم توًّا من مصر، والتهمْت نصفه في عشاء قبل الأمس.

الذي جرىٰ، وما أدراك ما جرىٰ! أنّني قبل الذهاب إلىٰ الصلاة، عاودني شابّ عمره ستة عشر عاما وطوله مائة وخمسة وسبعون سنتيمترا، ولكن وزنه حسبما نطق الميزان بصوت متحشرج لا يكذب ولا يتجمّل: مائة وخمسة وستون كيلوجراما، ولسان حاله يردّد مع الشاعر قوله:

"أنت يا هذا ثقيل وثقيل وثقيـــل

أنت في المنظر إنسان وفي الميزان فيل!"

وأكاد أجزم بأنه شابّ طيّب حنون، رهيف الحسّ والشعور، ولا يعيبه سوىٰ زيارة المطاعم بصورة شبه يومية، وتقديسه للأرز المطعَّم بأفخاذ

الدجاج المقليّة، يُتبعه بأطباق الحلوىٰ وكؤوس مترعة بالعصير والمياه الغازية!

وطوال طريق الذهاب والعودة، وربّما أثناء الصلاة أيضا، وأنا شارد الخاطر مشغول الذهن بهكذا شاب غضّ ما زال يتأرجح بين المراهقة والبلوغ، كيف يجلس وينام ويتحرّك؟ وأيّ سرير يحتمله وبنطال يستضيفه وقميص يحتويه؟ بل ذهب خيالي سامحه الله إلىٰ أبعد من ذلك، حيث المغسلة والجنازة ومشقّة حمله علىٰ الأكتاف إلىٰ المقبرة؟ ورتّبْت في المخيّلة تأليب أصدقائي علىٰ وباء البدانة الشرس، عبر الكتابة علىٰ صفحتي في الفيسبوك قائلا: شنّوها حملة شعواء علىٰ السمنة، قبل أن نتحوّل إلىٰ بطاريق في مشيتنا نترنّح، أو براميل علىٰ الأرض نتدحرج! مع تزيين المنشور بصورة لافتة، يتصدّرها أضخم مَن التقتْهم الكاميرا في سوق البدانة الضاربة بأطنابها في مجتمعٍ للحداثة بات أكسل من حرباء، لا تبرح مكانها، بعد أن أغناها الله بلسان يمتدّ لمترين تلتقط به رزقها دون عناء! ورحم الله أياما كان العرب يمتازون بين شعوب العالم قاطبة بالرشاقة ودقّة العود، نظرا لشح الغذاء وغلبة العمل اليدوي، الذي استُبدل به اليوم وفرة الطعام وكسل التقنيات الحديثة.

في إحدىٰ المرّات، نبّهْتُ علىٰ مريض بالمرور عليّ بعد ثلاثة أيام للاطمئنان عليه، فقال: حتىٰ لو تحسّنَت حالتي؟ قلت له: نعم. فردّ

متعجّبا: ولِمَ؟ وربّما أساء الظنّ واعتقد أنني أحتال لأغرّمه أجرة الكشف مرّة ثانية وثالثة! والحقيقة أنّ المريض يظلّ محتلّا ذاكرة طبيبه حتىٰ يُشفىٰ أو الأخرىٰ لا قدّر له.

دوما يُنصح الأطباء بعدم الاستغراق العميق في شئون مرضاهم، بل محاولة طيّ صفحتهم والخروج من أسْرهم سريعا، حتىٰ لا يتلبّسوا بمعاناتهم وآلامهم فيؤثّر ذلك علىٰ سيْر حياتهم الخاصة. وتكتسب تلك النصيحة أهميتها أضعافا مضاعفة، في حقّ الأطباء النفسيين المنخرطين حتىٰ النخاع في أمراض نفسية وعصبية يمكن أن تتسرّب إليهم بطريقة أو بأخرىٰ مع التكرار والمداومة.

علىٰ أيّة حال، فقد كلّفني ذلك السهو العابر، معاودة المشي إلىٰ المسجد بعد انتهاء وقت العيادة، لاصطحاب السيارة الجاثمة في مكانها بأمان أمام المسجد، وكفىٰ الله المؤمنين شرّ السّمنة والنسيان.

(٤٩) إيمان العجائز

في زمن خربت فيه الذّمم، حتىٰ بات هضم الحقوق كهضم الثريد وأكْل الزّبيب! زارتني اليوم (٢٦ اكتوبر ٢٠٢١م) عجوز ذكرَت أنها عُولجت في العيادة قبل أحد عشر عاما، وبقي في ذمّتها (ريالان) استمْهلت الطبيبَ في دفعها لاحقا حين ميْسرة..تبدّل مكان العيادة، وغادر الطبيب المعالِج، ولم يَعُد يفطن لهذا الدّيْن الضئيل -أقل من مائة جنيه- سواها؛ ومع ذلك بقيت علىٰ العهد وراحت تفتّش عنّا وأتت تبرئ ذمّتها ممّا يقضّ مضجعها!

الحقّ أنّ الدّهَش أصابني، وهتفْت من أعماقي: سبحانك ربّي، لولا بقيّة من تلك العجوز الأمينة لهلكْنا. فهي امرأة أُمّيّة، لا تحفظ حديثا يقول: "لا إيمان لمَن لا أمانة له"[1]، ولا آيةً تنطق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[2]، إنّما أَزّها إيمانٌ فطري منقوشٌ علىٰ الصخر

(1) رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) النساء ٥٨.

ومتجذِّرٌ كنبض القلْب ونخاع العظْم، تمنّاه الإمام الرازي يوما في قصته المشهورة، حين قدم إلىٰ نيسابور وتقاطر الناسُ إليه كالفراشات ليستفتوه وتحلّق الطلّابُ حوله كالسّوار لينهلوا من علمه، فسألت سيّدة عجوز: مَن هذا الذي يتهافت الناس عليه ويلتفّون حوله؟ فقالوا: هذا الرازي الذي جمع ألف دليل علىٰ وجود الله! فردّت قائلة: لو لم يكن في قلبه ألف شكّ لَما احتاج إلىٰ ألف دليل. ولمّا بلغ الرازي ردّ العجوز، قال متعجّبا: اللهمّ إيمانا كإيمان العجائز.

وقد ازداد دهَشي من العجوز ذات الريالَيْن، حين عدت بالذاكرة إلىٰ الوراء، وتذكّرْت عاملا قضىٰ سنوات طوال يعمل معي في العيادة، وطالما جالسْته كزميل لا كعامل وطبيب، وتقاسمْت معه الطعام كصديق لا كرئيس ومرؤوس، وحين عزم علىٰ السفر في إجازة لأهله، طلب منّي قرضا يزوّج به ابنته علىٰ أن يردّه في دفعات تُخصم من راتبه بعد العودة، ومضىٰ الشهر والشهران ولم يعد. ولمّا رحت أفتّش غرفته لعلّي أجد تلفازا أو غسّالة أو اسطوانة غاز تسدّ بعضا ممّا نهبه، لم أظفر سوىٰ بإزار مهترئ لا يصلح لمسح حذاء، وبضعة مسامير صدئة أكل عليها الخشب وشرب، إضافة إلىٰ رائحة خيانته العفنة بعدما تبيّن أنه باع مقتنياته قبل السفر وبيّت النيّة للرحيل بلا رجعة، فكان كضَبّ عاقّ يأكل أولادَه وأرض جَرُوز تأكل نبْتَها ولا تدفع منه شيئا!

وعلىٰ نهجه المعوجّ سارت ممرّضة زاملتْني في العيادة لعامين، وإزاء عملية جراحية تجريها لابنتها، طلبَت قرضا بآلاف الجنيهات، تعيده في غضون شهرين. مضىٰ الشهران، وغادرت العيادة، وصارت تماطلني شهرا بعد شهر وعاما بعد عاما، حتىٰ باحت بنيّتها السوداء في عدم السداد، وتبًّا لابن آدم: يُذلّ نفسَه بالطمع ويُهلكها بالحرص!

هكذا ذبلت شجرة الأمانة اليوم، وغدا أهلها كالعنقاء يعزّ وجودهم وكالكبريت الأحمر يندر بين الناس رؤياهم، ولو طُبّقت شرائع اليونان القديمة القاضية بجدْع أنف المرأة الخائنة وقلع عين الرجل الخائن، لباتت نساء كُثُر بلا أنوف ورجال أكثر بلا عيون، ويا له من منظر قميء يليق بخونة يهزّون أركان الثقة بين الأفراد ويقوّضون بنيان المجتمعات! ولا أظنّ ما نكابده اليوم من ضنك العيش وتكاثُر العلل وذهاب البركة وتسلُّط الظلمة؛ إلّا جرّاء هذا الاستهتار تجاه أداء الأمانات وحفظها. مع الأخذ في الحسبان ضرورة توسيع معنىٰ الأمانة، بمدّ خطّها إلىٰ أبعد من المال الذي يتبادر إلىٰ الذهن فور الحديث عنها، والذهاب إلىٰ ما ذهب إليه القاضي أبو البقاء الكفوي في تبيانه للمصطلحات والفروق اللغوية ضمن كتابه الكلّيّات قائلا: "كلّ ما افتُرض علىٰ العباد فهو أمانة، كالصلاة والزكاة والصيام وجميع أحكام الإسلام وأداء الدّين، وأَوْكدها الودائع، وأَوْكد الودائع كتم الأسرار"..

وليتنا نتذكّر أن النفس ملك لله استأمننا إيّاها، لنصونها عن كلّ سوء ونكرمها بكلّ خير، وأوّل إضاعة للأمانة هي إيراد المرء نفسَه المهالك، ولهذا سمّىٰ القرآنُ الإساءة إليها ظلما، وكأنه اعتداء علىٰ حقّ الغير..

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[1].

وهنا أشير إلىٰ أنّ الصدق قرين الأمانة، معًا يشكّلان وجْهَي عملة واحدة، وبهما لُقِّب الصادق الأمين صلوات ربي وسلامه عليه واشتُهر بين قريش حتىٰ قبل البعثة النبوية. ثمّ أؤكّد علىٰ أنّ الأمانة قيمة عامّة ترفض الاستثناء، وكُلّيّة لا تقبل التجزئة؛ فهي واجبةٌ علىٰ الفقير كما الغنيّ والمُعسر كما المُوسر، وحقٌّ للكافر كما المسلم وللفاجر كما البارّ، وتبقىٰ معلّقة في الرقاب سواء كانت بالدينار أم بالمليار وسواء عاش حاملها أو مات، ويوم القضاء يفصل الديّان.

(1) النساء ١١٠.

(٥٠) أَيْهار!

بدا لي يوما إحصاء عدد الجنسيات التي تتردّد علىٰ العيادة بصورة شبه منتظمة، فاستنفدْتُ عدد أصابع اليدين والقدمين، ووجدتهم يتنوّعون بين عرب وأفارقة وآسيويين. طبعا لفت هذا انتباهي وأثار أكثر من علامة استفهام، ولكن ما لفت انتباهي أكثر، هو الأسماء الغريبة التي يتسمّىٰ بها البعض منهم، لا سيّما العرب.

أحدهم، أذكره جيّدا كفلق الصبح، شابّ في الجامعة، عجبْت لاسمه (أَيْهان)، فدار بخلدي: هل هو من الوهن أي الضعف؟ أو من الهوان أي الذلّ؟ أم من الهيِّن أي السهل اللطيف؟ وللحصول علىٰ جواب يروي الغليل، سألتُ الشابّ: ما معنىٰ أيهان؟ فابتسم ابتسامة مَن توقّع السؤال واستعدّ للجواب، وقال: هذا اسم تركي، ومعناه الشيء الذي يصعب الحصول عليه. فحدّثْت نفسي بأن هذا بعض آثار المسلسلات التركية التي ركنَت المسلسلات العربية علىٰ الرفّ وأحالتْها إلىٰ التقاعد، لا سيّما

مسلسل أرطغرل الذي أسر قلوب الملايين علىٰ امتداد العالم الإسلامي، فذاع صيته وعلا نجمه وأُلّفت حوله مؤلَّفات، إي والله.

وزيادة في الفضول الذي قتل القطة، وبه تنتعش أقلام الكُتّاب؛ استدعيتُ العمّ جوجل من مرقده في بلد ترعىٰ الحرية علىٰ أرضها بينما ترعىٰ الدكتاتورية خارجها؛ أوّلا: لأستوثق من المعلومة، وثانيا: لأستزيد منها. وإذ به يحدّثني أن الكلمة ذات أصل هندي، يتسمّىٰ بها الذكور والإناث، وتعني الفجر أو الصباح الباكر. هل بهذا الردّ المقتضَب يمكن إغلاق ملف السيّد أيهان؟ كلا، فجوجل سوق مفتوح علىٰ مصراعيه لكل من هبّ ودبّ، وعلىٰ الخائض فيه أن يمتشق مشرط الجرح والتعديل، ليميّز صحيح الكلام من ضعيفه من موضوعه، ولا شكّ أن هذا البحث الحثيث يرسّخ المعلومة الطائرة العائمة فيصنع لها أقداما كالأوتاد علىٰ أرض الحقيقة وبساط الذاكرة.

ولمّا كانت العيادة خالية من المرضىٰ والجوّ مهيّأ للاستقصاء؛ فقد ناديت ممرّضتي الهندية وسألتُها عن هذا الاسم الهلامي الشبحي، هل سمعَت به؟ فأجابت بثقة وسرعة، نعم: يتسمّىٰ به المسلمون الهنود، وابني في المدرسة له زملاء كثر بهذا الاسم. فتشجعْت وسألتُها ثانية، وما معناه؟ قالت: لا أدري، وذلك علىٰ عادة صارت لازمة لفظية لها في تصدير أيّ جواب بلا أدري، حتىٰ لو كانت تعرف الجواب! فبإمكانك

سؤالها: كم الساعة الآن؟ ولن تجد جوابا سوىٰ: لا أدري، السابعة والنصف.

هكذا إذن حصحص الحقّ، وتبيّن أن المسكين أيهان يحمل اسما عمره قرابة العشرين عاما، ولكنه لا يعلم له أصلا أو فصلا، ومَثله كمثل الحمار يحمل أسفارا. وهنا أتساءل عن جدوىٰ توريط الآباء للأبناء في مثل تلك الأسماء؟ وعن الدافع إلىٰ الجري وراء أسماء أعجمية؟ أضاقت العربية بثرائها الباذخ أن تحتوينا كأسماء؟! أم أن موجة التغريب الكاسحة التي طالت أسماء المنتجات والمنتجعات والشوارع، طالت أخص خصوصياتنا وهي الأسماء؟! أم أنّ هذا أحد الدلائل الساطعة علىٰ تأثير حادّ خلّفه الوجود الكثيف للوافدين من شبه القارة الهندية في المجتمعات الخليجيّة؟

أيًّا كان السبب، يبدو أننا سنترحّم كثيرا علىٰ أسماء أصيلة عكست هويتنا وتاريخنا وحضارتنا، بل وعكست بيئتَنا أيضا حين نتذكّر أسماءً نُحتت من خيرات الأرض الزراعية مثل عدس، ومن فواكه البحر مثل قرموط، ومن جنود الطير مثل عصفور، ومن مهن الآباء والأجداد مثل النجّار أو السروجي الذي يصنع سروج الخيل والبغال والحمير.

ومن المفيد هنا، الإشارة إلىٰ كتاب (غرائب الأسماء المصرية والعربية) لمؤلّفه عباس الطرابيلي الذي تُوفّي هذا العام (٢٠٢١م) جرّاء

إصابته بالكورونا، ووُصف بأنه تاريخ صحفي يمشي في شوارع القاهرة، وضرب مثلا للأسماء المصرية الغريبة بغاندي الأسيوطي الصحفي في جريدة أخبار اليوم، واللواء هتلر طنطاوي الذي تولّىٰ أمانة وزارة الدفاع ثم رئاسة هيئة الرقابة الإدارية.

(٥١) أسرار المرضى

"لا يجوز للطبيب أن يُفضي سرًّا وصل إلىٰ علمه بسبب مزاولته المهنة، سواء كان مريضا قد عهد إليه بهذا السرّ، أو اطلع عليه الطبيب بحكم عمله"..هكذا تقول المادة (٣٠) من الميثاق العالمي للأخلاقيات الطبية والصحية، والتي يبدو أن أكثر المرضىٰ يجهلونها، هذا إن سمعوا بهكذا ميثاق! ولذلك ترىٰ أحدهم يفضّل الكتمان، وآخَر يقدّم رجلا ويؤخّر قدما، وذلك عند فتح الصندوق الأسود و البوح بأمر خاص يتعلّق بمرضه. مع أن هذا الكتمان والتردّد يعوق سريان نهر التشخيص والعلاج، ويخلق سحابة قاتمة من التوجُّس والحذَر لا تعترف بها العلاقة المثلىٰ بين الطبيب والمريض.

أذكر مريضا عشرينيا اشتكىٰ من حرقة بالغة عند التبوّل مع إفرازات قيحيّة من القضيب، وبسؤاله عن الضلوع في علاقة جنسيّة مشبوهة خلال الأسبوع المنصرم؟ أجاب بلا رويّة: حاشا لله أن أرتكب محرَّما! وعقب

إجرائه لفحص بول استغرق بعض الوقت، كرّرتُ عليه السؤال بصيغة أخرىٰ؟ فتلعثم كمَن ضُبط متلبِّسا بسرقة، وأجاب بلسان عضّه الندم ورقبة نكسها الخجل: استر عليّ، أنا من المصلّين المسبِّحين الصائمين بالاثنين والخميس، ولكنه الشيطان، لم أقاطعْه وتركْته يسترسل إلىٰ أن اعترف باقترافه فاحشة اللواط[1] قبل أيّام!

من الناحية الطبيّة، تأكّدَت إصابته بمرض السيلان أو التهاب الإحليل البُنّي، الذي ينتقل أساسا بالممارسة الجنسيّة غير الشرعيّة، وتُسبّبه جرثومة دقيقة تُدعىٰ المكوّرات البُنيّة الشبيهة بحبّة البُنّ، ويتَوجّب علاجه بمضاد حيوي فعّال يقهر مناعةً اكتسبتْها الجرثومة العتيقة ضدّ المضادات الحيوية التقليدية، ويمنع بإذن الله حدوث مضاعفات خطيرة أبرزها عقم ينجم عن توغّل الجرثومة عميقا في الجهاز التناسلي، وفتْكها بمصنع الإخصاب ومركز التناسل(الخصيتين – البربخ – البروستات – الحبل المنوي – الحويصل المنوي)..ورحم الله أياما غابرة سبقت اكتشاف المضادات الحيوية، لم يكن للأطباء حيلة سوىٰ غسل مجرىٰ البول وحقْنه علىٰ سبيل التطهير بمواد كاوية حارقة!! وجيّد أنهم لم يشعلوا النار في القضيب أو بالسكين يقطعوه.

---

(1) اللواط هو الجماع الشرجي سواء حدث بين ذكر وذكر أو بين ذكر وأنثى، وسمّي كذلك لانتشاره بين قوم لوط وصدارتهم في اقترافه، ومعلوم أن عقوبته في الإسلام قتل الفاعل والمفعول به.

ومن ناحية أخلاقية أراها لا تقلّ -إن لم تتقدّم- على الواجب الطبّي؛ نصحتُه باجتناب هذا الفعل القميء الشاذّ عن الفطرة والمحرَّم شرعا، لا سيما أنّ الإصابة بمثل هذه الأمراض المنقولة الجنسية لا تعطي المريض حصانة ضد التكرار كغيرها من الأمراض المعدية.

ولمّا أوصيتُه بزواجٍ هو الوجاء لمَن استطاع على قول سيّد الأنام، فاجأني بقوله: تزوّجْت قبل شهور ثم طلَّقت بعد أربع وعشرين ساعة! وعندها أَعرْته سمْع الكاتب لا سمْع الطبيب، وهي إعارة محبَّبة لي دوما. فروى عن الزواج بفتاة على غير هواه ومراده، وفي يوم العرس الميمون حملوه إلى الطبيب كالرضيع إثر نوبة ضيق في الصدر وصداع شديد، وبالمساء بات مع العروس وصنع كما يصنع الأزواج، ولمّا عاوده ضيق الصدر في ثاني أيام العرس، حملوه هذه المرّة إلى معالج شعبي، أطفأ النور وحرق البخور واستحضر الأسياد، ثمّ جزم بأنه مسحور مِن قِبَل أمّ العروس، وراح يتلو على أمّ رأسه تعاويذ مدرسة عريقة للدجل تدّعي إحالة الصخر إلى ذهب والعِصيّ إلى ثعابين.. وعلى هذا الزعم طُلّقت العروس المسكينة مخضّبة اليدين دامعة العينين كسيرة الفؤاد، وصدق ربّ العزّة والجلال ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[1].

(1) البقرة ١٠٢.

وعلىٰ النقيض من صاحبنا المتردّد الذي أنكر ثمّ باح، اشتكىٰ آخَر من الأعراض ذاتها، ولكنه صارحني دون مواربة بارتكابه فاحشة الزنا أثناء فترة الأسبوعين التي يعمل فيها مغتربا عن زوجته. ولأنّ المريب يكاد يقول خذوني، فقد خشي انكشاف جريمته، وطلب مساعدتي إن تَشكّكَت الزوجة الجامعية وفطنت إلىٰ سبب امتناعه عن إعطائها حقّها الطبيعي خلال إجازة يقضيها معها لخمسة أيام، لا سيّما أنّي أَمرتُه بذلك، بل وشدّدْتُ عليه حرصًا علىٰ سلامة أهله الأبرياء..

وهكذا يُوقع المرضىٰ أنفسَهم في حفر بالغة العمق، ومعهم يجد الطبيب نفسَه في موقف لا يُحسد عليه، فلا يجد مفرًّا من التماس المعاريض كمندوحة عن الكذب، مع التزام خُلق الستر الذي أُمرنا به، وتحقيق القاعدة الفقهية: لا ضَرر ولا ضِرار..

وجزىٰ الله الخير بعضَ الطوائف الهندية التي تحرّم الكذب إلّا في حالتيْن: إطراء المرأة، وإنقاذ حياة.

(٥٢) الله أكبر

أَعرفكم تحبّون حديث العشق والعشّاق، ولا شكّ سمعتم بيت أبي فراس الحمداني: "وللناس فيما يعشقون مذاهب"؛ وأجزم أنكم بأمّهات أعينكم رأيتم مَن عشق الغِيد الحسان فاقتفىٰ أثر روميو مع جولييت، أو عشق الغناء فتعبّد في محراب العود والناي، أو عشق الكرة فاستدارت رأسه وفرغت إلّا من الهواء، أو عشق الطعام فراح يأكل في عشرة أمعاء حتىٰ اندلق الكرش وتَدلّىٰ أمامه بضعة أشبار! لن أسألكم عمّا تعشقون؟ فذاك حوار حميم تديرونه بينكم وبين أنفسكم، والله حليم ستّار، ووحده سبحانه يعلم أنّ ما لي فيما سبق نصيب، إذ إنّ عشقي للأذان يكفي ويفيض، وذلك علىٰ طريقة الإمام الشعراوي عليه رحمة الله حين سئل: لم توقفت عن قرض الشعر، فقال: أبدلني الله خيرا منه، يقصد تفسير القرآن الذي أغناه وكفاه.

نعم، أذان الصلاة أعني، فكثيرا ما أشتهي وأنتشي بتمييز نداء التوحيد حين يتهادىٰ إلىٰ سمعي من المساجد المحيطة بسكني وعيادتي؛ فهذا

النداء الرطب النديّ ليوسف، وذاك الرخيم الشجيّ لإبراهيم، وذلك المحلِّق كنسر والجامح كفرس لمحمود، أمّا هذا الهادئ المترسِّل كماء الجداول فهو لحسين ! علىٰ أنّ أكثر ما يمتعني، أصوات إخوتي غير العرب التي أراها تنساب بصدق أكثر ودفء أعمق، ولطالما اندهش نفر من هؤلاء المؤذّنين الأعاجم المتقِنين، وعجبوا لطلبي توثيق دعاء السماء بأصواتهم وإرساله إلي عبر أحد تطبيقات المراسلة الفورية.

وددْتُ مصافحة أسماعكم بشيء ممّا لديّ وهو غير قليل، ولكنّ قلمي الصَّموت أبىٰ إلّا نادرة تقول: إن مؤذّنا اعتاد الأذان بأداء صحيح ولكن بصوت كريه، ولمّا كان صاحب المسجد أميرا عادلا ولم يشأ جرح فؤاد المؤذّن، فقد خاطبه علىٰ نحو يرضيه قائلا: يا سيدي، إن لهذا المسجد مؤذّنيْن أقدميْن يُعطىٰ كلٌّ منهم خمسة دنانير، فهل لك في عشرة دنانير تأخذها علىٰ أن تترك لهم مهمة الأذان؟ فقبل الرجل العرض وغادر المدينة إلىٰ حيث شاءت له المقادير. إلّا أنّه لم يلبث غير قليل حتىٰ قفل إلىٰ صاحب المسجد قائلا: لقد ظلمْتَني يا مولاي، إذ زينْتَ لي ترك هذا المسجد بعشرة دنانير، فإنهم قد عرضوا علي عشرين حيث انتقلت علىٰ أن أفارقهم فأبَيْتُها، فابتسم الأمير وقال: لا يخدعوك إذن، فإني لأحسبهم معطيك خمسين دينارا أو تزيد إن أصررْت علىٰ البقاء هناك.

ولعلّ فيما سبق إشارة من طرف جليّ إلىٰ وجوب حسن صوت المؤذّن؛ فكما لا يؤذّن إلّا مسلم عاقل، ولا يؤذّن سوىٰ الذَّكَر المميِّز، ولا يؤذّن سوىٰ حسني الأخلاق العدول وسط الرجال؛ فإنه لا يؤذِّن إلّا مَن كان كالقمريّ يحسن للصوت صنْعا، تماما كما لا يؤمّ الناس إلّا أقرؤهم.. فالله جميل يحب الجمال في التلاوة كما الأذان، لا سيّما أنّ للأذان وظيفية دلالية تشير إلىٰ وجود مسجد ومسلمين، ووظيفة إعلامية تنبئ بدخول وقت الصلاة، ووظيفة ثالثة تحفيزية تحبّب الناس إلىٰ الأذان والصلاة وتجذبهم إلىٰ المسجد والإسلام، وهذه المهمة الأخيرة لا ينهض بها مَن عجّ صوتُه بحفر ومطبات جعلتْه أشبه بالجئير والزئير وأقرب إلىٰ صرير الباب وطرْق النحاس! وفي هذا، سمع عمر بن عبدالعزيز رجلا يؤذّن بصوت خشن أجشّ، فقال له: "أَذِّن أذانا سمحا وإلّا اعتزِلنا".

وقد حاز العميانُ قصب السبق قديما، إذ كان علىٰ المؤذّنين ارتقاء سطوح المساجد ومناراتها، فتنداح أمامهم أحواش البيوت مفتوحة كالساحات ومتراصة متقاربة كعلب الكبريت وأحجار الدومينو، وبالتالي تصبح العورات بادية لكلّ ذي عينين، هذا قبل زمن مكبّرات الصوت التي أتاحت الأذان من صحن المسجد بلا أدنىٰ حرج من كشْف عوْرة أو فضْح سوْأة.

رضي الله عن ساكن الشام، الحبشي أبي عبد الله، مؤذّن الإسلام الأوّل وسابع السابقين إليه، والذي نزل فيه قول الحقّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1]، وسَيَّده الفاروق عمر بقوله: "بلال سيدنا وأعتقه سيدنا"، وعطّر العقّادُ قلمَه بكتاب عنه عنوانه: "داعي السماء بلال بن رباح". فرغم أن رؤيا الأذان كانت من نصيب الصحابي الجليل عبد الله بن زيد، إلّا أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم وبعدما اعتمدها كصيغة للإعلام بدخول وقت الصلاة؛ لم يكلّفه بالأذان تشريفا له، بل أمره أن يعلّمه بلال لأنه أندىٰ منه صوتا وأرقّ نغما، إذ كان مغنّيا طَروبا في الجاهلية قبل أن يُبدله الله بالظلام نورا وبالضلال هدىٰ. ثمّ إنّ النبي صلىٰ عليه وسلم ، عقب فتحه مكّة، أمر بنحو عشرين رجلا، فأذّنوا علىٰ طريقة الاختبارات الشفوية التي نجريها اليوم، فأعجبه صوت أبي مخدورة، وعلّمه الأذان وانضم إلىٰ قافلة المؤذّنين التي ترنّمت بالأذان وشنّفت الآذان ونالت الأجر والثواب بمقتضىٰ الحديث الشريف: "المؤذِّنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة"..

(1) الأنعام ٥٢.

(٥٣) القناعة كنز لا يفنى

في مسجد قريب من سكني وعملي، تعرّفتُ على عامله الآسيوي المكلَّف بالتنظيف ورفع الأذان، والقائم على الإمامة في كثير من الأحيان لِما يتمتع به من صوت رخيم وتلاوة آسرة.

مضت به الأيام هانئة لنحو عشر سنين كان فيها ملكا متوَّجا؛ يتوفّر على سكن داخل حرم المسجد، ويغدق عليه المصلّون وجيران المسجد بالطعام والثياب ومختلف الهدايا لا سيّما في شهر رمضان وغيره من المناسبات الدينية، وغضّت الإدارة الطرْف عن سعيه لزيادة الدخل عبر تحفيظ القرآن للأطفال وكذلك لبني جنسه من الكبار، إضافة إلى عمل متقطّع لساعات هنا وهناك؛ كنقل أثاث أو تنظيف سيارة أو تهذيب حديقة أو ما شابه من أعمال خفيفة الوزن ولكنها تدرّ عليه أكثر ممّا يتقاضاه كراتب، حتى أنّ الأعمال قد تكثر عليه ويضيق بها وقته فيستعين بآخَرين تحت إمْرته كشهبندر.

وزادته الأيام هناءة، فوثّق علاقته بروّاد المسجد واستنابهم في زكوات أموالهم يضعها بين يدي فقراء بلده وما أكثرهم، ويبني بالصدقات مسجدا أو مدرسة تسهم في انتشالهم من وهدة الجهل. هذا قبل أن يطأ مجال جلب الخادمات والعمّال من بلده، وتلك غنيمة كبرىٰ لا تضاهيها سوىٰ صفقات البورصة وتجارة العملة. ومع تشعُّب أعماله، شرع في استخراج رخصة قيادة تمهيدا لاقتناء سيارة خاصة يتمرّد بها علىٰ دراجة عتيقة يدير أنشطته من خلف مقودها.

ولأن الأيام تجري علىٰ غير قضبان، وكثيرا ما تخلط العسلَ بالخلّ؛ فقد فاجأني ذات صلاة بأن إدارة المسجد هدمت عرشه وبعْثرت خططه، فأَعلمتْه باستغنائها عن خدماته وإحلاله بعامل آخر ودم جديد علىٰ طريقة: يذهب أرنب ويأتي سبُع.

بالطبع لم يأتِ قرارهم من فراغ أو لمجرد رغبة محمومة في التجديد؛ فقد أخبروني بعد أن أشفقْت عليه وتحمّسْت لمساعدته، بأنه ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾[1]، فتجرّأ علىٰ الإمام يستعتبه قائلا: ما بالك تتغيب كثيرا وتلقي علىٰ كاهلي الإمامة وأنت تتقاضىٰ الثمين والنفيس! ثم زجّ بنفسه فيما لا ينبغي، فصار يهاتف الخادمات وأحيانا يستقبلهنّ في غرفته، وحدث أن تعرّض لمشكلات مع كفلائهن وأربابهن وبات محلّا لمساءلة

(1) الزمر ٨.

من الشرطة. إضافة إلىٰ نميمة موثَّقة من أصدقائه بأنه يشاهد الأفلام داخل غرفته الملاصقة للمحراب، وكل هذا يخدش قدسية المسجد وينتهك حرمته.

أصارحكم القول بأنني كلّما رأيتُ سوء حاله عقب مغادرته للمسجد، وكثيرا ما أراه، أستعيد المثل القائل: بالطمع يُذهب المرء ما جمَع، ثمّ أردّد في نفسي: لو تَفكَّر المرءُ فيما بين يديه من نعمة لعرف قدْرَها، ولو عرف قدْرَها لأطبق عليها بجفنيه وعضّ عليها بنواجذه، ولكنه الإنسان الذي يُؤتَىٰ من قِبَل غفلته ونسيانه أكثر ممّا يُؤتىٰ مِن قِبَل خصومه وغرمائه، والذي ينسىٰ أن الرغبة الجامحة في تحصيل الثروة أو السلطة أو المكانة بما يفوق حاجته إلىٰ البقاء والراحة ليست سوىٰ طمع مذموم قِيل فيه: الحُرّ عبْدٌ ما طمع، والعبد حرٌّ ما قنع.

وددتُ لو اكتفىٰ بوظيفته كعامل ومؤذّن ومحفّظ، مع مراعاة قدسيّة المسجد وحرم جواره، ولا بأس بحثّ المصلّين علىٰ بذل الخير لأهل بلده المحتاجين، ثمّ نأىٰ بنفسه عمّا يسترعي النظر ويلفت الأذهان إليه، فالغريب يبقىٰ غريبا في نظر أهل البلد مهما طال به المقام بينهم، وفي الوقت الذين يَعظم جاهه وتنتفخ جيوبه تراهم يستوحشون منه ويستريبون، وسريعا يجنحون إلىٰ تقزيمه أو التخلّص منه، تماما كوزير عظمت مكانته بين الناس فخشي المِلك علىٰ كرسيّه وأطاح به إطاحة

السيّاف للرّقاب، وهذا لا ينافي الطموح والسعي طالما لا يختلط بطمع، ولا يجافي المغامرة المحسوبة التي لا تتحوّل إلىٰ مقامرة ومَهلكة.

ليتنا نتوقّف عن عيب الدهر واتهام الناس والظروف؛ فالحقيقة أنّنا المتَّهمون في عقلنا وحكمتنا، وبكثير من العقل وقليل من الحكمة يمكننا النجاة من براثن مصائب عدّة، وصدق الجليل إذ يقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾[1].

(1) البقرة ٢٦٩.

(٥٤) شيمااء

"والضدُّ يظهِر حسنَه الضدُّ"..هكذا قالت العرب قديما؛ فالجمال يُبرزه القبح، وبالأسود يتضح الأبيض، وبالشرّ يستبين الخير، وبالحقّ يتجلّىٰ الباطل، وهكذا بضدّها تتميّز الأشياء..

بعدما حان أذان المغرب، الذي يحلّ عزيزا ولا يحتمل التأجيل، بحسبان ما بين صلاتي المغرب والعشاء من وقت أقصر من بنان، انطلقْت من العيادة إلىٰ المسجد عبر طريق جانبي مختصَر يخترق البيوت، وفي عرض الطريق مرّ بي صبي في سنّ الثامنة يقود درّاجته الصغيرة بحرفية، ويتمايل يمنة ويسرة في بهجة بادية وطرَب، بينما يرفع صوته ويمدّه متغنّيا: شيمااااء شيمااااء!

وشيماء لست أمًّا يناديها من باب الاستئناس، ولا أختا يدعوها للّعب واللهو معه، ولا جارة يغازلها مغازلة صبيّ غِرٍّ لا يجيد فنّ الغزل.. ولكنها الأوزّة البطلة لأغنية رديئة الشكل والجوهر ذاعت وشاعت وسط تندر

وسخرية من روّاد التواصل الاجتماعي، بينما احتفىٰ بها وبمغنّيها الشاب (يوسف سوستة) بعض وسائل الإعلام الأتفه من التفاهة ذاتها.

تركتُه يرقص علىٰ درّاجته ويصيح في الطريق كالمجذوب، ووسّعْت من خطوي قاصدا المسجد. وعقب انقضاء الصلاة، خرجْت من باب المسجد الجانبي، فرأيت عجبا! صبيًّا ثانيا في عمر الثامنة أيضا، منهمك في ترتيب الأحذية أمام سلّم الخروج، يضع الأحذية في جانب والنِّعال في جانب، ثم يصفّ كليهما في صفوف كجنود علىٰ أعتاب حرب! ابتسمْت ووقفْت أرقبه برهة، ثمّ ناديتُه بلطف فلبّىٰ، سألتُه: ما اسمك؟ قال: حَمَد. مَن كلّفك بهذه المهمّة؟ قال: لا أحَد. فأخرجْت محفظتي ووضعْت مبلغا من المال في يده، ثمّ ربتُّ علىٰ كتفه وأشرْتُ إلىٰ دكّان بجوار المسجد قائلا: بعدما تنتهي من تنظيم الأحذية اذهب واشترِ ما تودّ من عصير.

فورا، نسي حَمَد ما كان يدعو إليه من ترتيب وتنسيق، وأطلق للريح ساقيه مندفعا كالسهم إلىٰ الدكّان، بينما عدت أدراجي وفي صدري بذور محبّة زرعها الصبيّ في صدري.

ومع علمي بأن هذه ليست النسخة الأخيرة من صبيّ (شيماء) وصبيّ المسجد، إلّا أننا بصدد سؤال عن سبب هذا التباين الواضح بين نزوع الصبيين؟ أو بصيغة أعم وأشمل، سؤال عن صاحب كلمة الفصل في تكوين السمات الشخصية والسلوك، هل هي الوراثة والبيولوجيا، أم البيئة

والاجتماع؟ والبيئة هنا تعني تلك الغابة المتشابكة من متغيرات طبيعية وجغرافية تحيط بالفرد، كالأسرة والشارع والمدرسة وغيرها. وبينما يتفق علماء النفس والسلوك على اشتراك العاملَيْن في إنجاز هذه المهمّة المقدَّسة، إلّا أنّ الخلاف لازال قائما ومحتدما حول تحديد صاحب اليد العليا، خاصة بعدما أُضيف للعامل البيئي مكوّن جديد وخطر يعمل عمل السحر ويرجّح الكفّة، وهو العالَم الافتراضي..

وأيًّا كان الجواب الذي سيطول انتظاره، فإنّني سأظلّ ولمدى بعيد أدعو في سرّي وعلني: بُوركت يا حَمَد.

(٥٥) رمضانيّات

في رمضان الفائت، ورمضان شهر القرآن، عنّ لي اختبار قدراتي في التلاوة، صحيح أن لديّ إجازة بروايتَي حفص وشعبة، ولكن ليست الشهادات وحدها برهان الإتقان. ولمّا كان الاختبار لا يجوز إلّا علىٰ يدي خبير متخصّص انصهر في بوتقة علم القراءات؛ فقد أرسلْتُ مقطعا صوتيا بتلاوتي من أواخر الجزء الثالث عشر في سورة إبراهيم، إلىٰ مولانا القارئ الطبيب أحمد نعينع، وهو مَن هو في التلاوة!

سرّني ثناءُ سيدنا نعينع علىٰ المخارج والأحكام والصوت، وسرّني أكثر لفته انتباهي إلىٰ موضع أو اثنين فيما يخصّ الوقف والابتداء. ومن ساعتها رحت أضاعف تركيزي تجاه هذا الباب، سواء ضمن قراءتي الراتبة، أو أثناء سماعي للقرّاء والأئمة أينما وكيفما اتفق.

ويبدو أنّ ما تُفكّر فيه يفكّر فيك، وما تبحث عنه يبحث عنك؛ إذ صلّيتُ بعدها خلف إمام آسيوي، من سلامة مخارج الحروف، خاصة

الحروف الحلقية التي يتعثّر فيها الأعاجم، لا يخالجك أدنىٰ شك في أنه عربيّ اللسان. وعن جمال صوته حدِّث ولا حرج، إذ يبرع في تقليد أصوات مشاهير القرّاء لا سيما سادات مدرسة التلاوة المصرية.. ولكن، و آه من لكن هذه التي تُهيل التراب علىٰ ما قبلها وتسحب الأرض من تحت قدمه.

ذات تلاوة، قرأ من سورة البقرة قول الحقّ سبحانه: "كُتب عليكم الصيام كما كُتب علىٰ الذين من قبلكم لعلكم تتقون"، فعجبْت أشدّ العجب حين توقّف بعبقرية فذّة عند (الذين)! ليُوقع السامع غير الحافظ في متاهة؟ مَن هم الذين؟ أ هم الذين ءامنوا، أم الذين كفروا، أم الذين نافقوا. وهل هم الذين سبقوا، أم الذين حضروا، أم ماذا؟

وذات تلاوة ثانية، قرأ علينا من سورة القصص: "وما أُو تيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا" ثمّ توقّف! ليورّط نفسه في ابتداء أخلّ بالمعنىٰ إخلالا تاما، إذ واصل التلاوة قائلا: "وزينتُها وما عند الله خيرٌ وأبقىٰ"، انظر كيف ساوىٰ اللّوْذعي بين زينة الحياة الدنيا وبين ما عند الله من نعيم، فجعلهما خيرا وأبقىٰ!

وقد ذكّرني وقوفه الخاطئ الذي أَسلمه إلىٰ بداية خاطئة، بيومٍ كنّا في طريقنا إلىٰ السفارة المصرية بالعاصمة العمانية مسقط، وفي تقاطع إشارات المرور، توقّف الصديق رمضان –وهذا اسمه الحقيقي– ولكن في

المكـان الخطـأ، فبـدلا مـن الوقـوف في الحـارة الوسـطىٰ التـي تتـيح لنـا الانطلاق في خط مستقيم تقبع السفارة في نهايته؛ إذ به يسهو ويقف في حارة الطريق اليُسرىٰ، هذا رغم خبرتـه الطويلـة في القيـادة والعريـضة في دروب مسقط! وبعد فتْح الإشارة، وبدلا من الانعطاف يسارا والعودة إلىٰ الطريق المقصود وإعادة التموْضع في الحارة الوسطىٰ الصحيحة، إذ به يصرّ علىٰ الاتجاه في خطّ مستقيم، ولك أن تتخيّل الهرج والمرج الذي حدث وكدنا بسببه نتعرّض لحادث مريع!

من الواضح أنّ الإمام في غيبة تامّة عـن أحكـام الوقـف والابتـداء التـي تمثّل شطر علم الترتيل، وذلك بناء علىٰ تعريف أهـل العلـم للترتيـل بأنـه: تجويد الحروف ومعرفة الوقـوف، واسـتنادا إلـىٰ قـول ابـن الأنبـاري: مِـن تمام معرفة القرآن: معرفة الوقف والابتداء فيه.

ومن الواضح أكثر، أنه لا يدري ما الوقف التامّ الـذي يَحسن الوقـوف عليه، والابتداء بما بعده؟ كرؤوس الآيات مثلا. ولا الوقف الحَسَن الـذي يَحسُن الوقوف عليه، ولا يحسُن الابتداء بما بعده؟ كأن تقف بعد "الحمد لله"، ثم لا تبدأ بـ "ربّ العالمين". ولا الوقف القبيح الذي وقـع فيـه حـين غضّ الطرف عن التعلُّق الإعرابي والمعنوي بين مـا وقـف عليـه ومـا ابتـدأ به، ودون النظر إلىٰ المعنىٰ النـاقص أو الخـاطئ النـاجم عـن هكـذا وقْـف وابتداء!

وأظنّ –وبعض الظن حقّ– أنه ما وقع فيما وقع فيه، إلّا لأنه حفظ دون شيخ يلقّنه، أو حفظ لفظًا وما فقه معنىٰ كعادة بعض الأعاجم. ولا مجال هنا للاحتجاج بقصر النفس وضيق الصدر، فقد جعل علماء التجويد لذلك مخرجا بل مخارج، وما كُتُب ومحاضرات شيخنا أيمن سويد عنّا ببعيد.

ومن نوادر الوقْف والابتداء؛ روىٰ الشيخ أيمن سويد أنه صلىٰ خلف إمام في جدّة، وبعد أن أَمّنوا، إذ به يُتبع الفاتحة بتلاوة من سورة طه فيقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾[طه:١٤]! وواضح مدىٰ قُبح البداية التي بالتأكيد لم يقصدها. وفي رواية أخرىٰ، حكىٰ أنّ طالبا توقَّف أثناء قراءته عليه هكذا: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ﴾[1]، وكيف أنه سأله باسما: ستُحدث حدثا أكبر أم حدثا أصغر؟! وفي رواية ثالثة؛ ذكر أن أحدَهم توقّف هكذا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ﴾[2]، ليعلّق الشيخ بدوره متسائلا: وأين كان أبوه؟!

الطريف في الأمر، أنني حين انتحيت بالإمام لاحقا علىٰ سبيل التذكير والتنبيه؛ علمت أنه أتمّ حفظ القرآن في سن العاشرة علىٰ يد شيخه الباكستاني، واستمرّ حتىٰ سنّ السادسة والثلاثين يستظهر القرآن ولا يفهم

(1) الكهف ٧٠.

(2)القصص ٢٣.

من معانيه سوىٰ الكلمات المتداوَلة علىٰ لسان كلّ مسلم، كرمضان والقرآن ومكّة والحجّ والصوم والزكاة والصلاة، ومنذ شهور خلت، بدأ في تعلّم اللغة العربية بطريقة جادّة وممنهَجة. وعندما أخبرني أنه يجيد تقليد تلاوة الشيخ نعينع، اغتنمتها فرصة لإرسال مقطع صوتي ثانٍ بصوته إلىٰ مولانا نعينع، خاصة أن التقليد كان متقَنا، وكثيرا ما يَسعد المرء حين يجد نفسه مطبوعا علىٰ لسان غيره ومعزوفا علىٰ أوتار أحباله الصوتية!

(٥٦) آخِرُ الزمان!

لو قارنّا بين أوّل سيارة أنتجها عملاق الصناعة هنري فورد عام ١٩٠٣ والشبيهة بعجلة رباعية لا تجاوز سرعتها الخمسين كيلومترا في الساعة، وبين سيارات اليوم التي تسير بالكهرباء ويتم توجيهها عن بعد، لوقفْنا علىٰ مدىٰ التقدُّم المذهل في صناعة السيارات. ولو قارنّا بين رسائل الماضي التي سارت كسلحفاة واستغرقت الأيام والشهور قبل مثولها بين يدي متلقّيها، وبين رسائل اليوم التي نسطّرها عبر وسائل التواصل الحديثة وتظهر حروفها للمستلِم أثناء كتابتها، لأَيقنّا بالتقدُّم الخرافي في وسائل الاتصالات..

ولكن ما قيمة كلّ ذلك التقدُّم، إذا تراجعَت الأخلاق وضُيّعت الأمانات وذهب العُرف بين الناس؟! يجيبك أحمد شوقي في بيت ذائع وخالد يقول:

إنّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت ... فإن هُمُ ذهبَت أخلاقُهم ذهبوا

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوِّم النفسَ بالأخلاق تستقِمِ

ثم يجيبك أحد مرضاي بقصة حقيقية وقعَت له قبل أيام وأصابته بالإحباط والاكتئاب، وأضرمت النار في ضغط دمه الملتهِب أصلا: فبينما هو مارّ بسيارته علىٰ الطريق، لمح علىٰ اليمين رجلا يقف بجوار سيارته وكأنه في ورطة، فمال إليه وعاين سيارة ألمانية الصنع ترقد بلا حراك كبطّة مشلولة، ومنه طلب الرجل بأدب جمّ أن يوصله لأقرب محطة تاكسي، وهو ما لبّاه الصديق بل وزاد عليه بأن وضعه علىٰ عتبة ورشة كفيلة بعلاج غيبوبة سيارته وبعْثها إلىٰ الحياة بعد ممات، ثمّ غادره بعد أن تبادلا أرقام الهواتف مصحوبة بفيض من عبارات الشكر والثناء المألوفة في مثل هذا المقام.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ مريضي علىٰ رسالة صباحية مليئة بالورود الحمراء والقلوب النابضة بتوقيع صاحب سيارة الأمس، وهكذا يوميا وعلىٰ مدار أسابيع لم تنقطع تلك الرسائل العامرة بالحبّ واللائقة بتوأميْن ناما في رحِم واحد أو زوجيْن ضمّهما لحاف واحد! إلىٰ أن حان وقت الرسائل الصوتية. ففي ساعة متأخّرة من الليل وصلت رسالة صوتية يستغيث فيها صاحب السيارة والورود والقلوب، معرِبا عن حاجته لتحويل مبلغ فوري بقيمة خمسمائة دولار نظرا لأنه مع أسرته عالقين داخل الفندق بعدما فوجئ أن بطاقته البنكية لا تعمل وهي المُتخَمة بمائة وثمانين ألف دولار علىٰ حدّ قوله! وعلىٰ وقع هذا الرقم ووتر الشهامة

الذي يعزف عليه دوما، لم يكذّب مريضي الخبر مع أنه صاحب أسرة تستنفد دخله الشهري عن آخره، فقام بتحويل المبلغ من هاتفه علىٰ وعد باسترداده في الصباح الباكر بعد مراجعة البنك وحلّ عقدة البطاقة البنكية التي شمخت بأنفها وصعّرت خدَّها وغلَّقَت كباب امرأة العزيز أبوابها.

انتظر صديقي إلىٰ الصباح والمساء، ومضىٰ اليوم واليومان ولا حِسّ ولا خبر كما يقال، ولمّا راسله مذكِّرا لا معاتِبا، أعرب عن أسفه وتحجّج بكثرة مشاغله وطلب مهلة لساعة واحدة، ومضت الساعة وراء الساعة واليوم وراء اليوم، وعلىٰ هذا المنوال مرّ قرابة الشهر، وبعدما كان يردّ علىٰ الرسائل والمكالمات مختلقا الأعذار تلو الأعذار، إذ به يصمت كصمت القبور ويبدو وكأنه غائب عن الوجود!

طبعًا أُسقط في يد الصديق واتهمه مَن حكىٰ لهم روايته بالسّذاجة والحمق، ووصموه بقلّة الخبرة في التعامل مع الناس والحياة، وهو ما ضاعف من نكبته وطعنه في شخصه وهو الموظف المخضرم في مؤسّسة كبرىٰ والأربعيني الكادح الذي لم يُولد في مَهْدٍ من ذهب. وبموجب إيصال التحويل والرسائل المكّوكيّة المتبادَلة، حزم أمره بالتوجّه إلىٰ الشرطة لاسترداد المال وإعادة بعض الاعتبار، وهو ما أتىٰ أُكُله في غمضة عين، إذ ما إن هاتفه الشرطيّ للحضور وأسمعه صوتَ القانون الأجشّ وأراه عينًا أحمر من عين ثور، حتىٰ حوّل المبلغ من فوره!

ما أحزنَني، أن هذا الصديق قد فقد الثقة في الناس وصار بينه وبين صنْع المعروف حجاب، وأغلب الظنّ أنه لو التقىٰ بمَن يطلب مساعدةً ما ناوله كسْرة خبز ولا سقاه شربة ماء، وذلك علىٰ طريقة: لا يُلدغ المؤمن من جحْر مرّتين، وفي هذا يقع الوِزر علىٰ المحتال صاحب السيارة الذي يجيد إحكام الشّباك واحتراف النّصب علىٰ ضحاياه من أهل الشهامة والمروءة.

المؤلِّف في سطور

- منير لطفي محمّد علي.
- مواليد ريف الدقهلية ١٩٦٥م (كفر الروك-السنبلاوين).
- تَخرّج في كلية طب المنصورة ١٩٨٩م (جيد جدا مع مرتبة الشرف).
- استكمل الدراسات العليا في الأمراض الباطنية جامعة الزقازيق ١٩٩٦م (جيد جدا).
- تَخرّج في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة بالمملكة العربية السعودية (امتياز).
- عضو نقابة أطباء مصر. استشاري الأمراض الباطنية
- مشرف صفحة أقلام بيضاء في مجلة الديوان الجديد الأدبية الشهرية
- له عشرات المقالات المنشورة بالجرائد والمجلات الورقية (الوعي الإسلامي-اللواء الإسلامي-الجمهورية-الرؤية العمانية) وكذلك المواقع والصحف الإلكترونية (المنار الثقافية الدولية- المثقف-الأمة الإلكترونية-دنيا الوطن-منار الإسلام-صوت العروبة-الجزيرة نت-وغيرها).

صدَر له:

١- أطباء فوق العادة/ دار عالم الثقافة ٢٠١٦م

٢- طريقك إلىٰ التميّز/ دار عالم الثقافة ٢٠١٧م

٣- رحلتي مع مرض السكّري/ داراليقين٢٠١٨م

٤- مفاتيح القراءة/ دار اليقين/ ٢٠١٨م

٥- بستان العافية/ دار اليقين/ ٢٠١٨م

٦- حياتنا بعد الستين/ دار مدارك/ ٢٠١٩م

٧- علىٰ خطىٰ لقمان/ دار ألوان/ ٢٠٢٠م

٨- معا نرتقي/ دار ألوان/ ٢٠٢٠م

٩- مقامات أبقراط/ دار البشير/ ٢٠٢٠م

١٠- مشاهير في ذاكرة المرض/ الدار البحرينية المصرية/ ٢٠٢١م

١١- أحسن تأويلا/ دار عالم الثقافة/ ٢٠٢١م

١٢- فضلا عن كتب أخرىٰ قيد الإعداد والتهذيب

للتواصل:

lotmonir@gmail.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء..	٥
المقدّمة	٧
(١) ذهب مع الرّيح!	٩
(٢)كشْف منزلي	١٣
(٣) مَصيف جَمصة	١٩
(٤) سائل الحياة	٢٣
(٥) قنبلة يدويّة	٢٨
(٦) شذوذ جنسي!	٣٢
(٧) في العجَلة النّدامة	٣٦
(٨) قَرَنْقَشُوه!	٤٠
(٩) كاميرا المراقبة	٤٤
(١٠) عذاب الضمير	٤٨

الموضوع	الصفحة

(١١) ليلة ليْلاء! ٥٢
(١٢) قبضة الموت ٥٧
(١٣) جنون ٦١
(١٤) صديقي موسى ٦٥
(١٥) كورونا الخوف ٦٩
(١٦) الأستاذ ٧٤
(١٧) دَوْرِي؟! ٧٨
(١٨) حوار مع زميلي الملحد ٨٢
(١٩) جَبْر الخواطر ٨٧
(٢٠) دعاء السَّحَر ٩٢
(٢١) جراحة تجميل ٩٦
(٢٢) يوم الشّاي العالمي ١٠١
(٢٣) شهامة ١٠٨
(٢٤) مظاهرة! ١١٣
(٢٥) الخديعة الكبرى ١١٨
(٢٦) بيت القطط ١٢٢
(٢٧) فحص كورونا ١٢٨

الموضوع	الصفحة

(٢٨) فيزياء الحُبّ ١٣٣
(٢٩) اثبت مكانك! ١٣٧
(٣٠) الأمانة ١٤٢
(٣١) جزاءً وِفاقا ١٤٧
(٣٢) الشحّاذ ١٥٢
(٣٣) مات! ١٥٦
(٣٤) عناية مركَّزة ١٦٢
(٣٥) النّبي قَبِل الهديّة ١٦٧
(٣٦) فهِمْتني؟ ١٧١
(٣٧) أزمة قلبية ١٧٥
(٣٨) تأمّلات صائم ١٧٩
(٣٩) نبأ عظيم ١٨٢
(٤٠) سيادة المدير ١٨٨
(٤١) طرائف المواقف ١٩٣
(٤٢) في التانّي السلامة ١٩٧
(٤٣) صديقي الحسّاس! ٢٠١
(٤٤) فيه شفاء ٢٠٥

الموضوع	الصفحة

(٤٥) مغص كلوي ٢٠٨
(٤٦) القفز في الفراغ ٢١١
(٤٧) شاهين! ٢١٤
(٤٨) لقد هرمنا! ٢٢٠
(٤٩) إيمان العجائز ٢٢٤
(٥٠) أَيْهان! ٢٢٨
(٥١) أسرار المرضى ٢٣٢
(٥٢) الله أكبر ٢٣٦
(٥٣) القناعة كنز لا يفنى ٢٤٠
(٥٤) شيااااء ٢٤٤
(٥٥) رمضانيّات ٢٤٧
(٥٦) آخِر الزمان! ٢٥٢
المؤلِّف في سطور ٢٥٦
الفهرس ٢٥٨